



جامعة القاهرة
كلية الآداب
مركز الدراسات الأرمنية

تاريخ محمد علي باشا

المسمى المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية

تأليف

اسكندر بن يعقوب أغا أبكار يوس الأرمني

تحقيق

أ. أحمد عبد المنعم العدوي

مراجعة وتقديم

أ. د. رؤوف عباس







جامعة القاهرة
كلية الآداب
مركز الدراسات الأرمنية

تَارِيخُ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِأَشَا

المُسَمَّى

الْمُنَاقِبِ الْمُصْطَفَوِيَّةِ

وَالْمَآثِرِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْعُلَوِيَّةِ

تَأْلِيفُ

اسكندر بن يعقوب أغا أبكار يوس الأرمني

حققه وقدم له وعلق عليه ووضع حواشيه وصنع فهرسه

أحمد عبد المنعم العدوي

راجعته وقدم له

د. مرعوف عباس

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

الكتاب : تاريخ محمد علي باشا

(المسمى المنقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية)

المؤلف : اسكندر بن يعقوب آغا أبكار يوس الأرمني

المحقق : أ. أحمد عبد المنعم العدوي

مراجعة وتقديم : أ. د. رءوف عباس

الناشر : مركز الدراسات الأرمنية - كلية الآداب - جامعة القاهرة

رقم الإيداع : ١٦١١٨ / ٢٠٠٩

إهداء

إلى أستاذي الجليل

رعوف عبّاس

لعلّ الشاعر كان يعنيك حين قال:

كَمْ مِنْ طَوِيلِ الْعُمْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِالذِّكْرِ يَصْحَبُ حَاضِرًا أَوْ بَادِي
فَازْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الرَّيِّعُ وَإِثْرُهُ بَاقٍ بِكُلِّ خَمَائِلٍ وَنِجَادٍ

فإلى روحك الطاهرة أهدي هذا العمل

تصليد

ها نحن أولاء نسير - وبحمد الله - على الدرب الذي رسمناه لأنفسنا في مركز الدراسات الأرمنية بكلية الآداب جامعة القاهرة؛ بنشر الأعمال الأكاديمية الجادة والتي تتعلق بدوائر التماس ونقاط التلاقي بين كل من الحضارتين العربية والأرمنية، وقد بدأت تلك السياسة تؤتي بثمارها، ذلك أن المركز صار في الفترة الأخيرة قبلة الباحثين لنشر دراساتهم وأبحاثهم فيما يتعلق بهذا الصدد.

ليس هذا فحسب، بل إن سياسة المركز - في سياق هذا النهج - القائمة على تشجيع شباب الباحثين لتقديم إنتاجهم العلمي الجاد والمتميز بدأت تثمر بدورها، ذلك أن محقق هذا العمل الذي ننشره اليوم هو باحث شاب واعد ما يزال بعد في مرحلة الدكتوراه.

والكتاب الذي نحن بصددده في هذه النشرة الجديدة من إصدارات المركز هو كتاب: "المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية"، والذي أطلق عليه مُحققه على سبيل الاختصار اسم "تاريخ مُحَمَّد علي باشا" وهو من تصنيف واحد من ألمع وأشهر الأدباء الأرمن في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، ألا وهو اسكندر بن يعقوب أغا أبكار يوس، وهو مثقف أرمني موسوعي، يتميز بغزارة إنتاجه الأدبي والفكري، لكن معظم آثاره الآن بين مفقود ومخطوط لم ير النور بعد، أو في حكم النادر بسبب ضياع النسخ الأصلية، وبالتالي عدم إعادة طباعتها لاحقاً.

ومن هنا تأتي أهمية هذا العمل، ففضلاً عن قيمته التاريخية؛ فهو

أحد أعمال هذا المؤلف الموسوعي المخطوطة، ومن ثم فهي من الأهمية بمكان في سياق إعادة نشر وتحقيق أعمال هذا المؤرخ والأديب الأرمني الكبير.

والكتاب يتناول تاريخ محمد علي باشا، بدءاً من وصوله لحكم مصر في أعقاب جلاء الحملة الفرنسية عنها وحتى وفاته عام ١٨٤٨، ثم يتطرق إلى ولاية إبراهيم باشا القصيرة على مصر والتي لم تتعد العام الواحد، والذي سرعان ما لحق بوالده بعد عدة أشهر.

والكتاب مصدر هام جداً للباحثين المتخصصين في تاريخ مصر والشام في عصر محمد علي باشا، ذلك أن مُصنّفه أظهر اهتماماً خاصاً بالوثائق، ونشر العديد منها في ثنايا كتابه، كما أنه تعرض لجوانب عديدة من مظاهر الحكم المصري للشام، وأوضاع الدولة العربية قصيرة الأجل التي نجح محمد علي باشا في إقامتها بحد سيفه، كذا فالكتاب من الأهمية بمكان للدارسين والمهتمين بتاريخ الأدب العربي في العصر الحديث، حيث جمع المؤلف في ثنايا كتابه شتات عدد كبير من القصائد النادرة للفيّف من الأدباء والشعراء الشّوام من معاصريه، ممّن قصدوا بلاط إبراهيم باشا لعرض إبداعاتهم عليه.

لا أريد أن أخوض كثيراً في أهمية هذا العمل وقيّمته التاريخية، سيّما وقد قدم له بمقدمة ضافية العالم الجليل الراحل المغفور له الأستاذ الدكتور رعوف عباس حامد، والذي كانت مراجعته لهذا الكتاب والتقديم له آخر ما خطته يده قبل أن توافيه المنية في السادس والعشرين من يونيو ٢٠٠٨، بعد صراع قصير مع المرض.

ومركز الدراسات الأرمنية بجامعة القاهرة يعد نشر هذا العمل في هذا التوقيت، ومع حلول الذكرى السنوية الأولى لرحيل ذلك العالم الجليل

بمثابة احتفاء بذكرى هذا الأستاذ والعالم الجليل وآخر جيل العمالقة الرواد من المتخصصين في تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

أما محقق هذا الكتاب، وهو الأستاذ أحمد العدوي؛ فهو باحث شاب واعد، من أبنائنا بكلية الآداب، وهو ما يزال بعد طالباً بمرحلة الدكتوراه بقسم التاريخ، وفي اعتقادي - وأرجو أن تثبت الأيام صدق حدسي - ينتظره مستقبل مشرق على الصعيد الأكاديمي إذا ما واصل حياته العلمية بنفس الجدية والحماس، وقد قدم لعمله بمقدمة وافية، وذيل عليه بستة أنواع من الفهارس الفنية التفصيلية ليسهل على الباحث الوصول إلى بُغيته، كما بذل في عمله جهداً علمياً متميزاً يستحق الإشادة والتقدير، ويتمُّ عن تمكنه في علم تحقيق المخطوطات.

وأخيراً وليس آخراً؛ لا يفوتني في هذا المقام أن أشكر العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبادة كُحيلة، الأستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، فهو الذي رشَّح هذا العمل المتميز ليكون ضمن نشرات المركز، وهو الذي تابع نشره خطوة بخطوة، وهو ما يعكس ثقة سيادته وتقديره للمركز ونشاطه العلمي.

والله تعالى ولي التوفيق

أ.د/ زينب أبو سنَّة

مُدير مركز الدراسات الأرمينية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

تقويم

بقلم المؤرخ الكبير
د. رءوف عباس حامد

لعلّ المصادر الأدبيّة من أقلّ المصادر حظاً من اهتمام المؤرّخين، وخاصّة في عالمنا العربي؛ فقد نالت نصيباً وافراً من الاهتمام عند غيرنا، فالأعمال الأدبيّة التي يكتبها من عاصروا الأحداث أو عايشوا شهودها؛ تقدّم للمؤرخ ما تعجز عن تقديمه المصادر الأخرى الأثريّة والوثائقيّة وغيرها من الأصول التي يتخذ منها المؤرخ حبر الزاوية في إعادة تركيب الحدث أو الظاهرة التي يتصدّى لها بالدراسة، لأنها تنقل إليه؛ أو حتّى تنقله إلى الجوّ العام الذي دارت فيه الأحداث، وتجعله يقف على أحاسيس صنّاعها ومشاعره.

حقّاً يحرص أصحاب الأعمال الأدبيّة على قدر ملحوظ من المبالغة بقدر ما يتطلب الغرض الذي كُتب العمل من أجله ذلك، تضخيماً للذات أو تعظيماً لطرف وتقرّيراً لآخر، ولكنّ اعتماد المؤرخ على العمل الأدبي يتيح له انقاء الوقوع في أسر مثل هذه المبالغات على ضوء ما بين يديه من مصادر أثريّة ووثائقيّة، فهو لا يبحث في تلك الأعمال عن وقائع ما جرى، ولكنه ينشد استنشاق عبق الجوّ التاريخي الذي دارت فيه الأحداث، وإبراك أبعاد الحالة المزاجيّة والنفسية للمشاركين فيها، حتّى يستطيع تجسيد الحدث أو الظاهرة موضوع

دراسته، هذا فضلاً عن الوقوف على العادات والتقاليد والقيم الاجتماعيّة والخلقيّة التي نادراً ما نجد تسجيلاً لها إلا في كتابات من عاشوا الحقبّة أو عاصروها .

لذلك كان الكشف عن أيّ عمل أدبي يُعنى بتسجيل حقبّة تاريخيّة ما؛ من الأهميّة بمكان للباحثين في التاريخ، حتّى لو توفرت المصادر الوثائقيّة الأصليّة؛ من هنا تأتي أهميّة هذا العمل : "المناقب المصطفويّة والمآثر المحمديّة العلويّة" لاسكندر بن يعقوب أغا أبكار يوس؛ الذي حقّقه الأستاذ أحمد عبد المنعم العدوي، وجعله يرى النور بعد ما يقرب من القرن ورُبّع القرن من الزّمان، فقد فرغ مؤلّفه من كتابته عام ١٨٧٣ .

ولعلّ بقاء العمل مخطوطاً طوال هذه المدة له ما يبرّره على ضوء أحداث العام الذي فرغ فيه المؤلّف من كتابته، فقد تناول هذا العمل مناقب محمد علي باشا وولده إبراهيم باشا تملّقا لمصطفى فاضل باشا بن إبراهيم - وحفيد محمد علي - والشقيق الأصغر للخديوي إسماعيل - وكان يصغره بعامتين - والمرشّح الطبيعي لولاية العهد وفق فرمان عام ١٨٤١ الذي جعل حكم مصر للأرشد من أبناء محمد علي باشا وذريّتهم، ولما كان إسماعيل قد نجح في التخلّص ممّن كانوا يكبرونه سنّاً من أمراء الأسرة حتّى يصل إلى أريكة الحكم - سواء كان ذلك التخلّص من صنع القدر أو من صنعه هو - فقد كان مصطفى فاضل يقف حجر عثرة في طريق تغيير نظام وراثّة حكم مصر ليصبح

من نصيب أكبر أبناء الخديو إسماعيل (مُحمَّد توفيق باشا) وهو ما تحقَّق فعلاً في نفس العام الذي انتهى فيه اسكندر أبكارْيوس من كتابة هذا الكتاب ليُهديه إلى مُصطفى فاضل باشا، ويُنال منه ما قد يفيض به عليه من عطاء، وهو العام الذي قُطِعَت فيه صلة مُصطفى فاضل باشا بمصر، واختار استانبول مقراً له، مُحاولاً إعاقَةَ صدور ما سُمِّي بالفرمان الشامل الذي وسَّع من صلاحيَّات حاكمِ مصر ليرقى بوضعها إلى "الحُكم الذاتي الكامل" الذي لا يُبقي من الصلَّات بين مصر والدولة العُثمانيَّة سوى السيادة الإسميَّة، ومظهرها سداد الخراج السنوي لاستانبول، وهو الخراج الذي اقترضت الدولة العُثمانيَّة بضمانه من البنوك الأولى قرضاً خصَّصت خراج مصر لسداده، ووافق الخديو على ذلك، واستمرَّت مصر تُسدِّد الدَّين (الخراج) حتَّى بعد زوال السيادة العُثمانيَّة بما يزيد على العقدين من الزَّمان .

وتضمَّن "الفرمان الشامل" تغيير نظام ولاية العهد (وراثَةِ الحُكم) من أرشد أبناء أسرة مُحمَّد علي إلى أكبر أبناء الخديوي، وحتَّى يضمَّن الخديو إسماعيل بقاء أخيه مُصطفى فاضل بعيداً عن مصر، فقد أرغمه - بعد مفاوضات طويلة - على أن يتنازل له عن جميع أملاكه في مصر لقاء مبلغ مالي كبير .

في هذا الجَو الملبَّد بغيوم الصراع على الحُكم والمُؤمرات - الذي جرَّت فيه أموال الرُّشى التي أنفقها الخديو إسماعيل في استانبول

أنهاراً - فرغ الأديب الهمام استكندر أبكارْيُوس من "المناقب المصطفوية" والمآثر المحمدية العلوية" ولا أظنُّ أنه وجد الفرصة المتاحة لإهداء هذا العمل فعلاً إلى مُصطفى فاضل باشا، وإلا كان الأخير قد دفع به إلى المطبعة ليخدم قضيتَه في الصِّراع السياسي مع إسماعيل، ولعلُّ استكندر أبكارْيُوس لم ينل جائزته على هذا العمل إلا على يد مُحققه أحمد عبد المنعم العدوي الذي أخرجهُ إلى النور، فمن الواضح أنَّ المخطوطة بقيت بمصر حتى وجدت في مكتبة الأزهر مُستقرّاً لها.

ولعلُّ استكندر أبكارْيُوس استفاد من هذه المخطوطة في الكتاب الذي صنّفه مشاركة مع مُحَمَّد مِكاوي ونشر عام ١٢٩٩هـ بالمطبعة الوهبية بعنوان "المناقب الإيزاهيمية والمآثر الخديوية" وما كاله من مديح للخديوي إسماعيل وتوفيق في كتابه "نزّهة النفوس وزينة الطُروس" فيما يُمكن أن نسميه "تَوْفيقاً للأوضاع"، كُفّر فيه عن ولائه لمُصطفى فاضل باشا في "المناقب المصطفوية"، وخاصةً أنه لقي إحساناً من إسماعيل عندما قصد مصر عام ١٨٧٤، وتقلّب في مناصب الإدارة المصرية زهاء عشر سنوات، قبل أن يذمه المرض ويعود إلى بلاده حيث توفّي بعد عام ١٨٨٧.

ورغم ما في الكتاب من مُبالغات؛ إلا أنه يتيح لمن يهتم بدراسة الوجود المصري في الشام على عهد مُحَمَّد علي الوقوف على المناخ

الذي دارت فيه الأحداث وبعض ما اتُصل بعلاقات السلطنة وأحوال
النَّاس، كما يُقدِّم لدارسي تاريخ الأدب العربي في القرن التاسع عشر
مَعِيناً من المادَّة النافعة .

وقد بذل المُحقِّقُ جهداً مُمَيِّزاً في ضبط النُّص والتَّعليق عليه
خدمةً للتَّاريخ والتَّحافة العربيَّة، يَسْتَحِقُّ التَّقدير والتَّناء .

رءوف عبَّاس حامد

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب جامعة القاهرة

المناقب المصطفوية والمآثر الخمدية العلوية

مقدمة المحقق

جدُّ نادرة هي المصادر الأدبيَّة التي أرخت لعصري مُحمَّد علي باشا الكبير (١٨٠٥/١٨٤٨) وإبراهيم باشا (١٨٤٨)، ولا أظنني مُبالغاً إذا ما حصرتها في كتابات الجبرتي الذي وصل بتاريخه إلى عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م، وخليل بن أحمد الرُّجبي المتوفى تقريباً في حُدود عام ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م في كتابه "تاريخ الوزير مُحمَّد علي باشا"^(١)، أما بالنسبة لإبراهيم باشا فلا شيء يسترعي الانتباه سوى عمل المؤلف الدمشقي المجهول الذي رصد أخبار حملته على الشام^(٢).

(١) نُشر مؤخراً باعتناء دانيال كريستوس وحَمزة عبد العزيز بدر وحسام الدين اسماعيل ، القاهرة ١٩٩٧.

(٢) عثر عليه أولاً الخوري قسطنطين باشا في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت التي كانت قد حصلت على صورة منه عن نسخته الأصلية الفريدة المحفوظة بمكتبة برلين ثم نشره أواخر القرن التاسع عشر ، تحت اسم "مذكرات تاريخية بقلم أحد كتاب الحكومة الدمشقيين" ثم أعاد نشره المحامي أحمد غسان سبانو تحت اسم "مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية"، ولا يمكن أن نغفل أيضاً في هذا الصدد أهمية كتابات كلوت بك، وهناك أيضاً عملين هامين جداً لمؤرخ مُعاصر لمحمد علي وهو فليكس منجن Félix Mengin وهما:-

Histoire de l' Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly ou récit des événements politiques et militaires qui ont eu lieu depuis le départ des français jusqu' en 1823, paris 1823 ; Histoire sommaire de l' Egypte sous la gouvernement de Mohammed Aly , Paris 1839 .

ومن الملاحظ أن ندرة الكتابات التاريخية المُعاصرة قد أضفت أهمية كبيرة على بعض الكتابات المتأخرة نسبياً ككتابات علي باشا مبارك وأمين سامي بك والأمير عُمر طوسون وميخائيل شاروبيم وإلياس الأيوبي وهي من بعض الزوايا ترقى بالفعل إلى درجة المصادر الأصلية.

وبين يديك الآن أحد هذه المصادر الأدبية النادرة وهو كتاب
"المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية" لاسكندر بن يعقوب أغا
أبكار يوس.

المؤلف

كتاب "المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية" من
تصنيف اسكندر بن يعقوب أغا أبكار يوس الأرمني وهو كاتب لبناني
معروف، وعلى الرغم من كونه أحد أشهر الكتاب البارزين من الشوام
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبالرغم أيضاً من نشاطه
العلمي الجَم فإن المعلومات المتوفرة لنا عن حياته لا تتوازن مع ذلك
الدور الذي لعبه في الحياة الثقافية في عصره، كل ما نعرفه عنه أن
جذوره تنحدر من أصول أرمنية^(١).

ومن غير المعروف على وجه التحديد تلك الظروف التي حتمت
على عائلة أبكار يوس النزوح من أرمينيا إلى بيروت، إلا أن جرجي
زيدان ينفرد من بين جميع من أرخوا لأبكار يوس بهذه الرواية التي تلقي
بعض الضوء على شخصية يعقوب أبكار يوس وظروف هجرته إلى
الشام، يقول جرجي^(٢):-

"في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد وأوائل القرن التاسع عشر
حدث في أرمينيا حدثٌ بعث على مُهاجرة جماعة من كبار
الأكليروس الأرمني، نزحوا من أرمينيا إلى بر الأناضول، ووصل

(١) لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية، بيروت (١٩٢٤) ٣ : ١٣٢.

(٢) تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، بيروت، د.ت، ٢ : ٣١٣.

إلينا أسماء ثلاثة منهم: وهم أسقفان أحدهما ترابيب^(١) ديونسيوس
والثاني يعقوب أبكار يوس، والثالث برتبة ورتباد^(٢).

ولا نعلم سبب تلك المهاجرة، وقد يكون السبب اختلافاً في
المذهب أو الرأي، ويقال أنّ الكنيسة الأرمنية ادّعت عليهم ألهم
تصرفوا بأموال دير أو كنيسة هناك؛ فالتصموا إلى الكنيسة
الإنجيلية، ولجأوا إلى سفير انكلترا في الأستانة اللورد ستراتفورد
Stratford، فلما تفحص قضيتهم اعتقد ببراءتهم فأخذ
يناصرهم، وتوسط في إطلاق سراحهم وأشار عليهم بالذهاب إلى
سورية وأرفقهم بكتاب توصية إلى قنصل الإنكليز في بيروت
واسمه بطرس أبوت *Peter Abbot*^(٣).

شخص هؤلاء إلى سورية والمرسلون الأمريكيان لأوّل عهدهم فيها
فرحبوا بهم فأقاموا فيها وتزوجوا فأقام يعقوب أبكار يوس في
بيروت وعرف بـيعقوب أغا، واشترى مزرعاً قرب القشلاق عُرف
باسمه ثم اشتراه الأرمن وجعلوه ديراً لهم، ولا يزال إلى الآن،
وعائلة أبكار يوس مشهورة^(٤).

على أي حال فقد استقرّ يعقوب أبكار يوس ببيروت، وصار أحد
كبار أعيانها، ثم لم يلبث أن ربطت أواصر التقدير المشترك بينه وبين
إبراهيم باشا نجل محمد علي، وارتبط به ارتباطاً وثيقاً، وصار خصيصاً
به لا سيما بعد استيلاء إبراهيم باشا على بيروت^(٥).

(١) رتبة دينية كبيرة في الإكليروس الأرمني.

(٢) راجع حاشية ٢ أعلاه، مع ملاحظة أنها أقل شأنًا من الرتبة الدينية المتقدمة.

(٣) سيشير إسكندر أبكار يوس إلى دوره في الأحداث التي سبقت حصار إبراهيم

باشا لعكا، انظر ص ٧٥ من هذه النشرة.

(٤) شيخو: نفسه، نفس الجزء والصفحة.

المناقب المصطفوية والمآثر الحمديّة العلوية

ومن هنا نشأت صلة كبيرة بين الأسرة العلوية في مصر وبين آل أبكار يوس في الشام، فبعد وفاة الأب في بيروت عام ١٨٤٥م^(١) هاجر ولده اسكندر ويوحنا إلى أوربا طلباً للعلم^(٢)، ثم عادا إلى بيروت في وقت ما خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم غادر اسكندر بيروت إلى القاهرة عام ١٨٧٤ قاصداً الاستقرار بها - وغالباً فإن صلة عائلته القديمة بالعائلة الخديوية في مصر كانت وراء إقدامه على تلك الخطوة - فقد أحسن الخديو إسماعيل وفادته، وأسند إليه عدة مناصب تقلب فيها حتى أصبح رئيس دائرة إسماعيل باشا صديق^(٣) الشهير بالمقتش - وزير المالية وقتئذ - ثم غادر إلى بيروت للاعتشفاء من مرض السحج^(٤)، ويجمع من ترجموا لاسكندر أبكار يوس على أن مرضه كان قصيراً إذ لم يلبث أن توفي عام ١٨٨٥.

لكن هذا التاريخ الذي تحدده المصادر ليس صحيحاً على الإطلاق ، فالثابت لديّ أن اسكندر كان على قيد الحياة حتى منتصف عام ١٨٨٧ على الأقل ، فهناك خطاب على شكل إهداء على غلاف أحد

(١) ذكر شيخو أن يعقوب أبكار يوس قد توفي عام ١٨٤٥ واستدل على ذلك بأبيات للكاتب والأديب الشهير إبراهيم اليازجي أرّخها لليازجي بذات العام يرثى فيها يعقوب أبكار يوس بقوله:

مضى إلى الله من طابت سريرته بالله وهو بعفو الله مصحوب
فقل لمن جاء بالتاريخ يطلبه قد صار في حضن إبراهيم يعقوب

شيخو: نفسه ، نفس الجزء والصفحة.

(٢) جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة (١٩٥٧) ، ٤ : ٢٨٨.

(٣) يوسف إيلان مركيس: معجم المطبوعات العربية، مكتبة آية الله العظمى، النجف (د.ت) ١ : ٢٣.

(٤) مرض شديد يصيب الجلد ويؤدي إلى تقشره وانسلاخه، ربما كان أحد أنواع الجدري أو نوعاً من أنواع الجذام، انظر الخوازمي: مفاتيح العلوم، نشرة جودت فخر الدين، بيروت (د.ت) ص ١٥٣.

مؤلفاته بخط يده وهو كتاب "نوادير الزّمان في ملاحم عربستان" أهده أبكار يوس لأحد الأعيان - ولم ينص على اسمه - مؤرخاً إيّاه بتاريخ ٣ حزيران (يونيو) ١٨٨٧^(١).

على الأرجح فإن اسكندر أبكار يوس قد انزوى عن الحياة العامة، واختار الإقامة بالأماكن النائية عن بيروت، وعلى الأرجح أيضاً أن ذلك كان بسبب الندب والبثور التي تركت آثارها على وجهه وجسده، بحيث صعب على متتبعي أخباره معرفة تاريخ وفاته على وجه الدقة، أو ربما حدث نوع من اللبس والخلط عند معاصري الأخوين أبكار يوس في تحديد تواريخ وفاة كلا الشقيقين اسكندر ويوحنا الذي تجمع المصادر على وفاته بإحدى ضواحي بيروت عام ١٨٨٩^(٢)، على ذلك يكون يوحنا هو الذي توفي عام ١٨٨٥، ثم تلاه شقيقه اسكندر عام ١٨٨٩ وهذا أيضاً يشكل افتراضاً معقولاً.

وعلى أي حال فالخطاب المذكور لا يثبت فقط بقاء اسكندر على قيد الحياة حتى ما بعد عام ١٨٨٥ وإنما يلقي بعض الضوء على حياة اسكندر في أخريات أيامه، وعلى حالته النفسية والمزاجية التي سيطرت عليه أواخر أيامه، يقول اسكندر موجّهاً الحديث إلى من أهدى له كتابه نوادر الزّمان:-

سيدي الأجل الألفخم أطال الله بقاءه:

لحُبِّ سَعُود أوقاتكم والسؤال عن عزيز خاطر كم الكريم، اعرض
أنه إذ لم يمكنني لحد الآن الحصول على خدمة مناسبة من تدريس

(١) انظر ظهر غلاف الكتاب المذكور بعاليه، مخطوط بالمكتبة الأصفية، حيدر

آباد، الدكن برقم ٧٣٦ تاريخ.

(٢) شيخوخة: نفسه، ٣ : ١٣٣ .

أو خلافة في هذه المدينة؛ فقد صُمّت على الرجوع إلى بيروت
في وقت قريب، وحيث من سوء الحظ لم تَسْتَحِ القُرصة باجتماعي
مع حضرتكم في أثناء هذه المدة الطويلة؛ فأرجو من جنابكم قبول
هذا التّأليف على سبيل التّذكّار.

وأطال الله تعالى بقاءكم .

الداعي لجنابكم

اسكندر أبكار يوس

في ٣ حزيران سنة ١٨٨٧

ومن هذا الخطاب يتبيّن أن خروج اسكندر من مصر لم يكن
بهدف النّقاهة والاستشفاء، وإنّما كان نزوحاً نهائياً عنها، فقد استقر
ولمدة طويلة بإحدى المُدن التي لم يُقْصَح عن اسمها، وكان يبحث خلال
تلك المدة عن عمل يناسب قدراته ومؤهلاته كتدريس أو خلافة على حد
قوله، فلما أيس من ذلك قرّر الرجوع إلى بيروت بشكل نهائي، وهو ما
حدث بالفعل حتى توفي بها بعد عام ١٨٨٧.

مُؤَلَّفَاتِهِ

ترك الأخوان أبكار يوس العديد من المؤلّفات التي جعلت منهما
بحقّ اثْنان من رواد النهضة الثقافيّة في مصر والشرق في النّصف
الثاني من القرن التاسع عشر، وبصفة خاصّة اسكندر الذين كان أغزر
إنتاجاً من شقيقه^(١)، ومن أشهر مؤلّفاته كتابه "نهاية الأرب في أخبار

(١) كان يوحنا أبكار يوس أقل إنتاجاً من شقيقه إلا أنه كان أكثر تجريدا وعمقا في =

العرب" الذي طُبِعَ أولاً بمرسيليا عام ١٨٥٢^(١) ثم زاد عليه وجدّد طباعته في بيروت ١٨٦٧ ونشره باسم "تزيين نهاية الأرب في أخبار العرب"^(٢) وكتاب "روضة الأدب في طبقات شعراء العرب" والذي صدر ببيروت ١٨٥٨^(٣) و"مؤنية النفوس في أشعار عنتر عبس" وطبع ببيرروت عام ١٨٦٤^(٤) وكتاب "تزهة النفوس وزينة الطُروس" وهو كتاب في المدائح والمراثي والتّهاني ، مدح فيه كل من الخديوي إسماعيل وتوفيق ، وطُبِعَ بمطبعة جريدة الزمان عام ١٨٨٣^(٥) وديوان شعره الذي لا زال

= أسلوبه الأدبي من شقيقه اسكندر الذي أغرم بالسجع - الذي كان أسلوبا مفضلاً لكتاب ذلك العصر من المتمكنين من العربية - وقد صنف يوحنا كتابا قيما في التاريخ أسماه "قطف الزهور في تاريخ الدهور" واحتفظ في خزانتي الخاصة بنسخة نادرة منه طبعت ببيرروت عام ١٨٧٣، وينسب شيخو له كتاب اسمه "تزهة الخواطر" لم أقف له على أثر، إلا أن شيخو يقول أن مؤلفه قد جمع به بعض الأخبار وبعض المقاطع الأدبية ، شيخو المصدر نفسه ٣ : ١٣٣، ومن أشهر آثاره قاموس انجليزي - عربي يعتبر معجماً قيماً عني بتتقيقه بعد وفاته نجله يوسف أبكاربوس، ثم أعاد تتقيقه ونشره البروفسيور فرانكلين وهي ذات الطبعة التي بين أيدينا اليوم.

(١) شيخو: نفسه، ٣ : ١٣٣.

(٢) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين بأسماء الكتب والمصنفين، بيروت ١٩٨٢ ، ١ : ٢٠٦؛ قارن أيضا لإيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون للمؤلف نفسه، بيروت (د.ت) ١ : ٥٩٢.

(٣) البغدادي: هدية العارفين، نفس الجزء والصفحة.

(٤) إدوارد فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، بيروت ١٩٨٧، ص ٤٢٩.

(٥) نفسه، نفس الصفحة؛ سركيس: معجم المطبوعات ١ : ٢٤.

مخطوطاً لم يُنشر بعد، وعدّة كُتِب في التّاريخ أبرزها "ديوان الدّواوين في أجواد المُتقدمين والمُتأخّرين" (١) .

وله ترجمة مفردة لإبراهيم باشا دعاها "المناقب الإبراهيميّة والمآثر الخديويّة" صنّفه مشاركة مع مُحمّد مكّاوي (٢) وطبع بمصر بالمطبعة الوهيّية ١٢٩٩هـ ودوّن في آخره ثبّتاً بمؤلفاته - وهذه الطّبعة غدت اليوم جدّ نادرة إذ لا علم لي بطبعات منها بعد طبعة المكتبة الوهيّية - ومن الجليّ أن كتاب المناقب المُصنّفويّة كان النّواة الأولى لهذا الكتاب .

هذا بالإضافة إلى كتابه قصّة شهريار، وله كتاب لقي حظّه من النّشر مؤخّراً وهو كتاب "توادر الزّمان في وقائع جبل لبنان" (٣)، كما يُنسب إليه كتاب "خرابات سُوريّة" وهو عبارة عن رسالة في آثار سُوريّة القديمة، ولكنّ هناك شكّ كبير أن تُكوّن هذه الرّسالة من تصنيف ميخائيل زكريا الخوري صاحب جريدة "حديقة الأخبار" (٤) .

وثمّ كتاب ذكر المُؤلّف أنّه من تآليفه، ولم أجد له ذكراً فيما بين يدي من المراجع التي ترجمت لأبكار يّوس وهو كتاب "البدر السّافر في أعيان القرن الحاضر" (٥) وغالباً فإنّ أبكار يّوس لم يتمكّن من طباعته لسبب ما .

(١) شيخو: نفسه ٣ : ١٣٣ .

(٢) شيخو: نفسه، نفس الجزء والصفحة .

(٣) نشر باعتناء إبراهيم السمك، لندن ١٩٨٧ .

(٤) مركيس: معجم المطبوعات، ١ : ٢٥ .

(٥) انظر ص ٦٧ .

موضوع الكتاب

يتناول الكتاب تاريخ مُحَمَّد علي باشا وإبراهيم باشا مع التركيز بشكل واضح على إبراهيم باشا وفتوحاته لا سيما في الشام والأناضول، ومن الواضح تماماً أن المؤلف لم يرد كتابة التاريخ للتاريخ في حد ذاته، بل قصد كما ذكر في مقدّمته أن يُجامل الأمير مُصطفى فاضل بن إبراهيم باشا -وشقيق الخديوي إسماعيل- الذي أحسن وفادته وأجزل له العطاء عندما زاره المؤلف بالأساتنة عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م وقُدّم له نُسختين من كتابيه "روضة الأدب في طبقات شعراء العرب" ونوادر الزمان في وقائع جبل لبنان" ثم عاد إلى بيروت وصنّف هذا الكتاب في ذات العام، كما يُفهم من مقدّمة المؤلف بجلاء:-

".... فجاء - بحوله تعالى - كتاباً نفيساً جليلاً ، وتاريخاً مفيداً جميلاً يلتدُّ بمطالعه القارئ والسماع، ويأخذ بمجامع القلوب والسماع، وكان ترتبي له في مدينة بيروت الحميّة، سنة ألف ومائتين وتسعين هجرية، الموافقة لسنة ألف وثمانمائة وثلاث وسبعين مسيحية قُلت:- وكان السببُ في وضع هذا الكتاب وتقديمه إلى حَضرة الوزير المشار إليه - من جعل الله مقاليد السيادة والسعادة طوع يديه - هو أنني لما كنت بالأساتنة العلّية، في أواسط [عام] ١٢٩٠ هجرية تشرفت بلشّم اعتاب دولته، وتطفّلت على عالي حضرته بتقديم نسخة من كتابي "روضة الأدب في طبقات شعراء العرب"، مع نسخة من كتاب "نوادر الزّمان في وقائع جبل لبنان"، فوقعنا عنده في حيّز القبول وأنعم عليّ باحسن مأمول، ولما رجعت إلى الأوطان، وتذكّرت ما

أولاني به من جزيل الإحسان - الذي يعجز عن وصفه اللسان -
بادرت حالاً بهذا التأليف، وسرت بنفسي لأقدمه إلى جنابه
الشريف، مُلتمساً من حضرته أن يشملني - وإياه - بالنظر
السامي المنيف لأتني من جملة عبيده وخُدامه، المُتتمين إلى سُدة
مقامه» (١).

ويبدو ممّا ذكره المؤلّف أن مُصطفى فاضل باشا لم يُكفّه مباشرة بتأليف هذا الكتاب عن مآثر أبيه وجده، وأن المؤلّف قد بادر من تلقاء نفسه إلى تأليف هذا الكتاب كردّ للجَميل أو التماسٍ للعطاء، وأنّه فرغ منه على حدّ قوله ببُيروت عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م وسمّاه المناقب المصطفويّة مُجاملة للمُهدى إليه مُصطفى فاضل.

ومن اللافت للنظر أن المؤلّف لم يتناول تاريخ مُحمّد علي باشا منذ بداية حكمه وحتى وفاته وكذا إبراهيم باشا على نحو تقليدي مُرتباً حولياً أو حتى موضوعيّاً، وإنّما جاءت مُعالجته لموضوعاته على نحو انتقائيّ تماماً، فالمؤلّف لا يكاد يحفل إلا بأخبار إبراهيم باشا وأخبار حملاته المُظفّرة في الشّام والأناضُول، وإدارة إبراهيم باشا للشّام وثورات الدّروز في عهده، والإجراءات التي اتخذها إبراهيم باشا لإخماد تلك الثورات، ثم خلافته لوالده وأخيراً وفاته.

ومن الواضح أن المؤلّف يُكنّ إعجاباً خاصّاً بإبراهيم باشا، فالمؤلّف شأنه شأن الشّوام من سُكان مُدن وحواضر الشّام قد تفتّح وعيه على دولة عربيّة مُترامية الأطراف تمتد من جبال طُوروس وحتى وادي

(١) انظر مقدمة المؤلّف، ص ص ٣٧ ، ٣٨.

النَّيل - كان إبراهيم باشا قد نجح في إنشائها بحد سيفه - ومن ثم نظر كغيره إلى إبراهيم باشا نظرة المُخلَّص من نير الحُكم العُثماني الذي لم يكن يُعني إلا باستنزاف مواردهم أولاً فأول، وكأحد الشوام أيضاً من الذين أكملوا تعليمهم في أوروبا وبالتالي كانوا أقرب من غيرهم في تفهُم تجربة إبراهيم باشا في الشام والتي حاول فيها تطبيق نفس نمط التحديث مُقتدياً بتجربة أبيه في مصر .

أضف إلى ذلك تلك الثقافة والروح العربية الخالصة التي كان إبراهيم باشا - على العكس تماماً من والده - يتميز بها ، والتي كان بثَّ الروح القومية العربية من أهم الدُعائم التي اعتمد عليها إبراهيم باشا في توطيد حُكمه بالشَّام، ومن ثم شهدت تلك الدولة العربية - قصيرة الأجل - حركة إحياء ونهضة حقيقية وملحوظة للثقافة العربية الكلاسيكية، وربما لهذا السبب ظلَّ إبراهيم باشا يتمنَّع بتقدير وإعجاب الأدباء والمُتقنين الشَّوام.

كذلك لا يجب أن نُغفل انتماء المُؤلف إلى طائفة نصاري الشَّام والذين عانوا كثيراً إيَّان الحُكم العثماني، ومن ثم لم يكن من المُستغرب أن يكونوا أكثر من غيرهم ترحيباً بالحُكم المصري الأكثر تسامحاً - إن لم يكن تعاطفاً - مع أهل الذَّمة مقارنة بالحكم العثماني ، وفي المُقابل كان هؤلاء النصاري أيضاً الأكثر تضرراً من غيرهم من عودة الشَّام إلى السيادة العثمانية مرة أخرى، لذا كان لإبراهيم باشا مكانة كبيرة في نفوسهم، هذا أخذاً في الاعتبار أن والد المُؤلف نفسه كان واحداً من هؤلاء المُقربين من إبراهيم باشا.

المناقب المعنوية والمآثر الحسنية العلوية

ومن المعقول كذلك أن المؤلف - ذو الأصل الأرمني - كان كغيره من أرمن المهجر الذين يكونون مشاعر البغض والكراهية للدولة العثمانية - متأثراً بادعاءات بني جلدتهم في الوطن بانتهاج الأتراك لسياسة تطهير عرقي منظمّة ضدهم - لم يكثرث إلا بتسجيل هزائم وانكسارات الدولة العثمانية، ولم يحفل إلا بأخبار تلك المعارك التي لم يكن نصيب تلك الإمبراطورية العظمى إلا الهزيمة والإذلال المرّة تلو الأخرى على يد إبراهيم باشا.

كذلك كان لاسكندر أبكار يوس أيضاً دافعاً خاصاً وهي العلاقة الحميمة التي ربطت والده يعقوب أبكار يوس وإبراهيم باشا، وإعلاء إبراهيم باشا من قدر والده، وقد أفصح اسكندر نفسه على أن هذا السبب كان من أسباب سعيه إلى جمع مناقب إبراهيم باشا، يقول اسكندر أبكار يوس:-

"وكان إبراهيم باشا مُحبّاً لسَيدي المرحوم الوالد،
والأب العزيز الماجد، وهو يعقوب آغا المشهور، صاحب
الفضل والصّيت المشكّور، الذي كان من أكابر زمانه،
وأجود أهل عصره وأوّانه، وكان يزوره في أكثر الأحيان،
ويعامله باللطف والإحسان، ويخلع عليه الخلع الحسن، كما
هو معلوم للنخاص والعام، من أهل بيروت وبر الشام، وهذه
الوسيلة ارتفع أبي بفضلها جاهاً وقدرّاً، واكتسب بصفاء
أنظاره شرفاً وفخراً، وكان مسموع الكلام، مرفوع المقام،
عند الولاة والحكّام، مقصد الحل للمعاهد والمشاكل، وكهفاً
تلتجى إليه الأيتام والأرامل.

وكان من جملة مساعيه الخيرية، وأفعاله الحميدة
المرضية؛ أنه أطلق عشرة أنفار من أهل بيروت من الخدمة
العسكرية، ممن كانوا فقراء الحال، وأصْحَاب عيال، منهم
أحمد مرزا البيروني، وعبد الرحمن المغربي، وأحمد العالوني،
وأحمد طقطق الدلال، وغيرهم من الرجال، وهذا حظٌ عظيم،
والنفات جسيم، لم ينله غير والذي من مكارم جناب
إبراهيم، وهذه المعاملة الجميلة هي التي حملني إلى جمع مآثره
الجليلة، وتدوينها في هذا الكتاب، ليبقى ذكراً لحضرته على
مدى الأَحْقَاب^(١).

كل هذه العوامل مُجْتَمعة جعلت المؤلف لا يكثرث إلا للتأريخ
لنتلك الدولة العربية الوليدة التي كانت انتصارات وأُمَاجِد إبراهيم باشا
وحُروبهِ ومعاركهُ الظَّافرة في الشَّام والأناضول هي ما مهَّد السَّبِيل
لميلادها.

مَصَادِرُ الْمُؤَلَّفِ

لا يُفصِّح المؤلف عن مصادر معلوماته في أغلب الأحيان، ومع
ذلك فالظَّاهر أنه استَنَقَى أكثرها من الرِّوَايَات الشَّفْهِيَّة من أَعْيَان الشَّام
والضُّبَّاط الشَّوَام الذين رافَقُوا إبراهيم باشا في حملاته سواء في الشَّام أو
الأناضول؛ من ثم فالمعلومات التي أوردَها المؤلف عن معارك إبراهيم

(١) اسكندر أبكار يوس: المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، القاهرة ١٢٩٩هـ،
ص ١١٩.

باشا وفتوحاته في الشام والأناضول تستمد أهميتها من أن المؤلف استمدّها من أفواه شهود عيان، فالمؤلف ينصُّ على ذلك بقوله:-

"وكانت لإبراهيم باشا في حصار عكا مواقف غريبة،
ومشاهد مُدهشة عجيبة، تدلُّ على شدة بأسه وشجاعته،
وحسن تدريبه في أبواب الحرب وبراعته، فمن ذلك ما حدثني
به بعض الأعيان من أهالي عربستان ممن كان في خدمته،
ومُقَدِّما بين رجال دولته، قال" (١).

إلى جانب ذلك فمن الواضح أنَّ المؤلف كان واسع الاطلاع على الوثائق الرسمية، خاصة تلك التي تتعلق بالبلاغات الحربية وموقف إبراهيم باشا الحربي ونشرات الجيش المصري، إلى جانب تلك الوثائق المتعلقة بمراسلات مُحَمَّد علي باشا مع دول أوربَّا بخصوص مفاوضاته مع الباب العالي بعد نجاحه في فتح عكا وضم الشام إلى مصر، ويبدو أن المؤلف قد استفاد من كونه أحد كبار موظفي الحكومة المصرية في عهد الخديوي إسماعيل وفي الوقت ذاته واحداً من المقرَّبين من الأسرة الخديوية، وأن تلك القُرْبى قد لعبت دورها في إتاحة الفرصة للمؤلف للاطلاع الواسع على المحفوظات والسجلات الوثائق والمراسلات الرسمية المعاصرة والتي حرص المؤلف على الاستشهاد بجُملة منها إضافة إلى نشره بعضها حرفياً في ثنايا كتابه.

بعبارة أخرى فقد مزج المؤلف بين الروايات الشفهية التي حصل عليها من أفواه الضباط والأعيان الشوام المقرَّبين من إبراهيم باشا

(١) انظر ص ٨٣ .

والذين رافقوه في حملاته سواء في الشام أو الأناضول وبين تلك المعلومات التي استخلصها من الوثائق.

وعلى الرغم من أن المؤلف قد صنّف كتابه هذا خصيصاً -بل وأهداه أيضاً- إلى أحد أحفاد مُحَمَّد علي على سبيل التّرفّ والمُجاملة؛ أي أنه لا يخلو من شبهة التملُّق فإنّه بالمقابل لا يخلو من معلومات قيّمة، خاصة تلك التي تتعلّق بإبراهيم باشا وفتوحاته الظّافرة في الشام والأناضول، وكذا أخبار تمرّد وثورة درّوز لبنان وسكّان الجبل إبان حكم إبراهيم للشّام في عهد والده مُحَمَّد علي باشا.

كما يعدّ أيضاً من الأهميّة بمكان للدارسين المهتمّين بتطوّر الجيش المصريّ في عصر مُحَمَّد علي، وكذا تطور التكتيكات العسكريّة في الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى أنّه يُلقي ضوءاً لا بأس به على أوضاع الشّام خلال عصر مُحَمَّد علي، وخصوصاً تلك المتعلّقة بالحياة الثقافيّة.

وصف المخطوط

اعتمدت في نشرتي لهذا الكتاب على نسخة خطيّة فريدة بخط المؤلف ذاته وممهورة بختمه، محفوظة بخزانة مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة تحمل أرقام ٥٣١ خاص، ٨٣١٤ عموميّ/تاريخ، فرغ منها مؤلّفها عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، واعتزم إهدائها إلى مُصطفى فاضل بن إبراهيم باشا كما تقدّم القول، ومن غير المعروف على وجه الدّقة ما إذا كان المؤلّف قد أهداها بالفعل إلى مُصطفى فاضل أم لا، وغالباً فالمؤلف لم يفعل لسبب ما، فالمخطوطة ليس عليها ما يُفيد اقتناء مُصطفى فاضل

الناقب المصطفوية والمآثر الحمديّة العلوية

لها، كذلك فإن الرُّبُط بين استقرارها في خزانة الجامع الأزهر بمصر، وعدم عودة مصطفى فاضل إلى مصر بعد استقراره في الأستانة يدل أن تلك النُسخة ظَلَّت بحوزة المؤلّف بعد أن عاد من بيروت إلى القاهرة إلى أن آلت بطريقة ما إلى خزانة الجامع الأزهر.

وعلى أي الأحوال فتلك المخطوطة بحالة مُمتازة كُتبت بعناية وبتأنقٍ واضح بالمِدَاد الأسود بخط نسخ مُعتاد، وأبعادها ٢٠×١٢سم وتشغل المساحة المكتوبة منها مساحة ١٦,٥×١٠,٥سم وعدد أوراقها ١٢٩ ورقة، وعدد مُسطراتها ١٢ سطرًا في الصفحة الواحدة، جاء على غلافها :-

"كتاب الناقب المصطفوية والمآثر الحمديّة العلوية تأليف الفقير
إليه تعالى اسكندر بن يعقوب ابكار يوس عُفي عنه"

وفي آخرها :-

" قد تم نسخ هذا الكتاب بقلم مؤلفه الفقير إليه اسكندر بن
يعقوب ابكار يوس عُفي عنه" .

ويشغل وجه الورقة السادسة من المخطوط بورترية لمُحمّد علي باشا، ومن الواضح أن المؤلّف قد أعاد النّظر في كتابه فهناك مواضع شطبٍ واستدراك متعدّدة في الكتاب، وأخطاء المؤلّف قليلة بشكل عام، ولا شيء يسترعي الانتباه سوى بعض الاختلافات الطّفيفة في طُرُق رسم بعض الكلمات التي درج كُتّاب القرن التّاسع عشر على رسمها بشكل يُخالف ما اعتدناه الآن، كما أن المؤلّف وإن كان قد اهتم بضبط

الكلمات بالشكل إلا أنه لم يُظهر تلك العناية نفسها فيما يتعلق بالهمزات، وإن كان إغفاله بعضها حرصاً منه على انتظام السجع في عباراته.

طريقي في إخراج النص

نظراً لأن النسخة التي اعتمدت عليها في نشري لهذا الكتاب هي نسخة وحيدة كتبت بخط المؤلف نفسه فقد آثرت عدم التدخل في النص إلا في أضيق الحدود؛ ولأغراض تتعلق بانتظام السياق فحسب، وعليه فقد تركت النص على حاله ليكون شاهداً على ثقافة المؤلف من جهة، وليقف الباحثون بجلاء على طرق وأساليب كتاب القرن التاسع عشر في الكتابة، لذا فقد اقتصر عملي في هذا الصدد على التتويه بمواضع الأخطاء وتصويبها في الحواشي كل في موضعه.

كما عرفت بالأعلام والمواضع والاصطلاحات الواردة بالنص، وقابلت الحوادث التاريخية الواردة به على المصادر المعاصرة، كما صنعت له ستة فهارس خصصت الأول منها لقوافي الأشعار الواردة بالنص، أما الثاني فقد جعلته لأسماء الكتب التي سمّاها المؤلف في كتابه، أما الثالث فقد خصّصته للأعلام، والرابع للأمم والقبائل والجماعات والطوائف، أما الخامس فللمآكن والبقاع، وجعلت السادس للاصطلاحات الفنية والفاظ الحضارة.

وفي الختام لا يسعني سوى التقدم بأسنى آيات الشكر والعرفان والتقدير لهؤلاء الذين كان لهم فضل في إنجاز هذا العمل، أخص بالذكر

المقاب المصطفوية والمآثر الحمديّة العلوية

منهم زوجتي الحبيبة التي بذلت معي جهداً كبيراً وأنفقت الساعات الطوال في مقابلة النص الذي قمت بانتساخه على الأصل.

ولا أعرف حقاً كيف أشكر أستاذي الجليل الدكتور عبادة كحيلة الذي تابع هذا العمل خطوة بخطوة، وتحمّس لعرضه فور انتهائي منه على الراحل الكبير الأستاذ الدكتور رءوف عباس، كما لم ييخل عليّ بالنصح والإرشاد، ولولاه ربما لم يكن قد قدر لهذا العمل أن يرى النور، فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أدين بالشكر لوالدي وأستاذي وصديقي الأستاذ الدكتور محمود عرفة محمود والذي فتح لي أبواب مكتبته الخاصة أنهل منها حيث شئت، فضلاً عن ذلك التشجيع والدعم المعنوي الذي لقيته منه ومن أستاذتي الفاضلة الدكتورة منى حسن محمود أثناء إنجازي لهذه النشرة.

ويظلّ الدكتور أيمن فؤاد سيّد بـمدرسته المتميّزة في فنّ تحقيق التراث العربي ونشره - أستاذي وقُدوتي ومثلّي الأعلى في هذا المضمار، وعلى طريقتة المتميّزة في إخراج النصوص تحسّست أثر خطاه، وبذلت وسعي في السير على منهاجه في إخراجي لهذا النص، كما أفدت كثيراً بملاحظاتة في تلافي العديد من الأخطاء والهئات.

الشكر كل الشكر أيضاً للأستاذ الدكتور أحمد زايد عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة وكذلك للأستاذة الدكتورة زينب أبو سنّة مدير

مركز الدراسات الأرمينية، على هذه الحفاوة التي تلقوا بها هذا العمل، وعلى هذا الإخراج الفني الرائع للكتاب.

أما أستاذي المغفور له العالم الجليل، والمؤرخ الكبير الدكتور رؤوف عباس فقد طوّق عُنقي بجميله أولاً في قبول مراجعة هذه النشرة، وشرّفني ثانياً بإجازته للعمل وإطرائه وثنائه على الجهد الذي بذلته فيه، وليس يُخفّف عندي من مرارة فقدته إلا عزائي بتلك السطور التي كتبها لي كمقدمة لهذا العمل، والتي ربّما كانت آخر ما خطّه قلمه قبل أن يدهمه المرض اللعين.

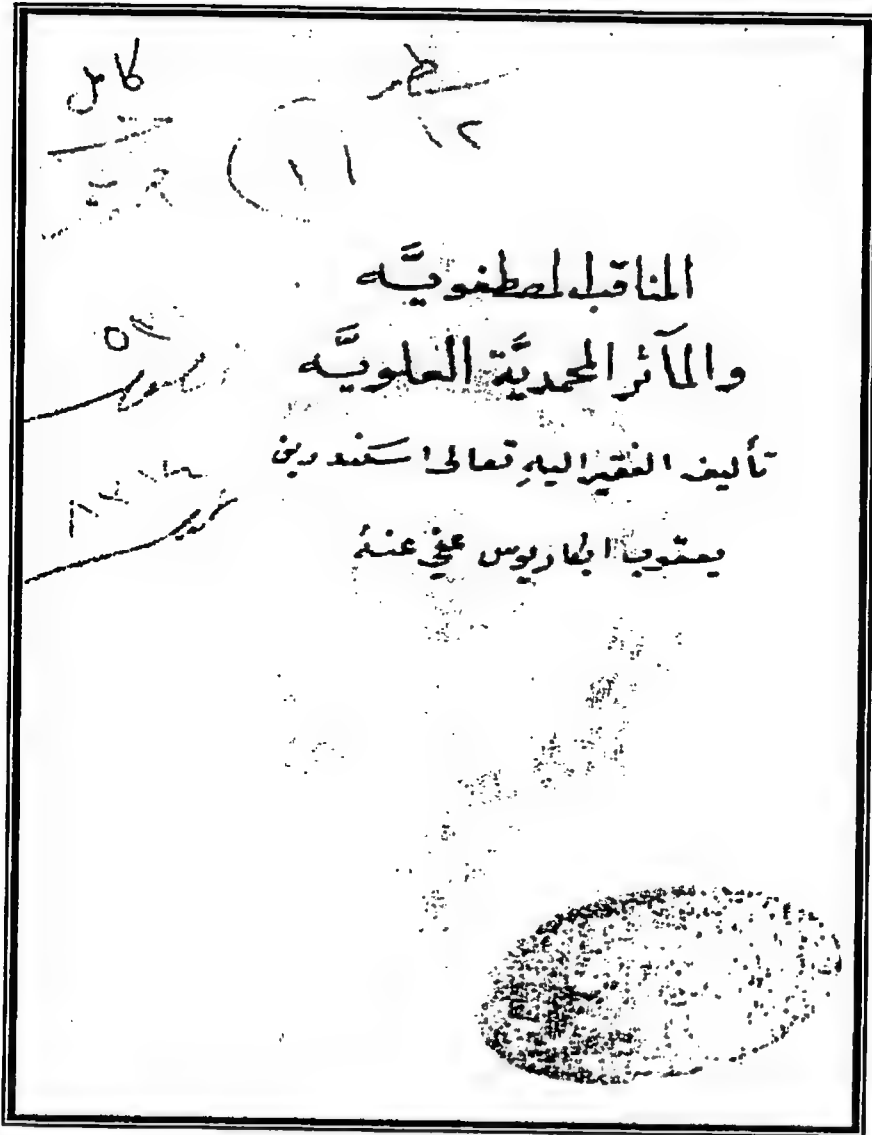
وإذا كان ذلك العالم الجليل قد رأى أن استكندر أبكاربوس قد نال جائزته على يدي بنشري لهذا العمل بعد أكثر من قرن وربع القرن، فقد نلت جائزتي على جهدي في هذا العمل على يديه، وكفّاني إطرأوه لي وثنأوه عليّ شرفاً.

احمد العدوي

الهرم في ٢٠ من رجب الفرد ١٤٣٠ هجرية

الموافق ١٣ من يوليو ٢٠٠٩ ميلادية

اللوحات

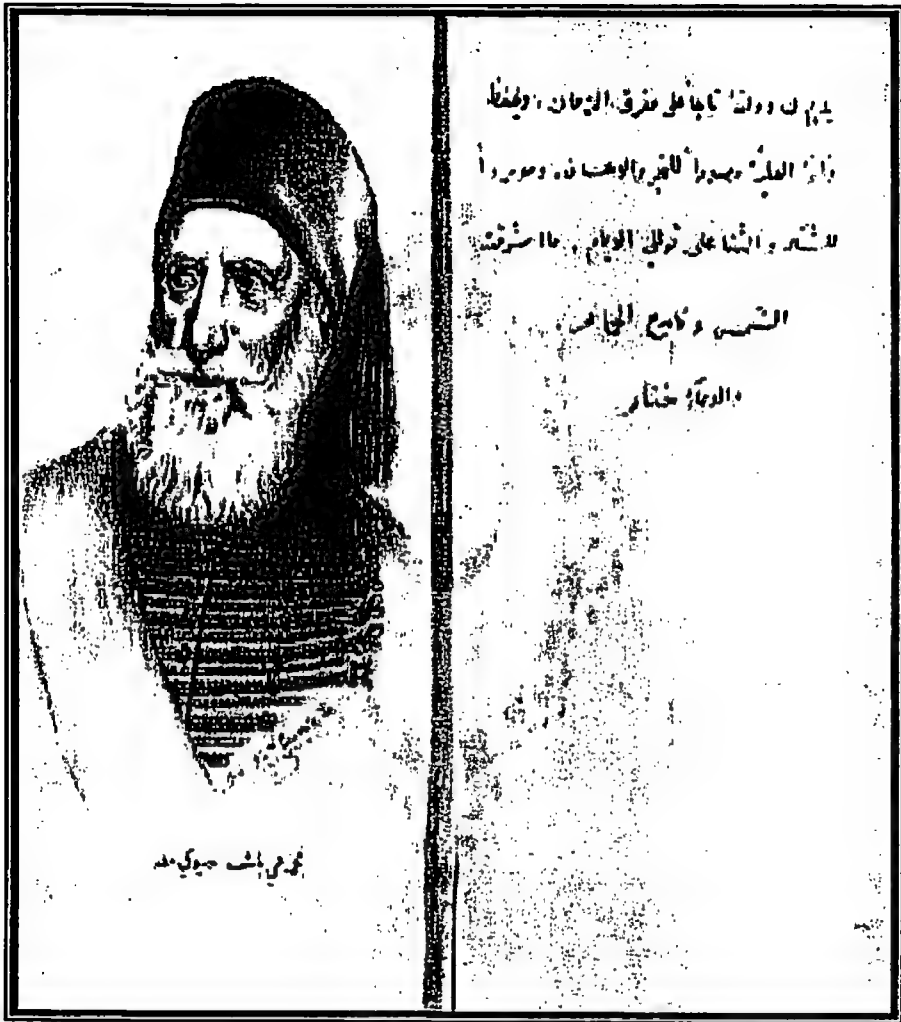


اللوحة الأولى
غلاف المخطوط

<p>المشهور والنفوذ النشور. الشهم الهام. اليك الباسل الضام. ابراهيم باث نوسر الصدام وثية اللباليه واليهام. وسباير في عاتق في بر الوفاء وظفر الشام. برسا وأن الناس منه من. الباسل والقدام والحلم والعدالة والوجاه. والتميز والسياسة الجيا والفراسة. الي غير ذلك مما لا يحصى والاعتبار وتبين به صدور الاسرار. جنة الجوارى تعالى كتابا نفيسا بلباس. وقام بها مناجاة مجيدة. يفتخر بطائفة الغاربه والسامع. وبأخذ بجوارى اللؤلؤ والمسامع. ولان ترسي له في مدينة بيروت المحب. من المندوبين. وتسبب في جريد المرافعة سنة اثنتى عشرين وسبعمائة وسبعمائة</p>	<p>بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الذي احبب ذكر الاولين بنهم المذبحين. وجعل حواشيهم تذكارا للتأخرين على مدى الايام والسنين. فاما بعد فيقول العبد الفقير الي قدر رب العزير. استغفر من يعقوب الطاريوس المعترف بالحق والعقيد النج هو وصفت هذا الكتاب في الحواشي المرفوعة المنطق بالدولة المجدبة الملبدة. ذات القامر السعيد والنفاسة العالمة الزكية. ولعل في عين الناس اختارها. ولطيفة ونواور آثارها. على ما قال وراق. ولعل في سمع بطون الصنف والادوار وانفذ اليه اغانى المجدوم المبرور. صاحب البيت المظهر</p>
---	--

اللوحة الثانية

ظهر الورقة الاولى ووجه الثانية من المخطوط



اللوحة الثالثة

ظهر الورقة الخامسة ووجه السادسة من المخطوط

١٢ -
معدون الجود ومصدر الفضائل . ونحز الدواقر
والدوايل . والله المستيول في حفظ دولته الزاهرة .
وسلطوته القاهرة . بيد القادر . ورعايته
على توالي اللبالي والديام . بعينه
التي لا تخط ولا تنام
قد تم نسخ هذا الكتاب بقلم مؤلفه الفقير اليه
تعالى اسكندر بن يعقوب البغاريوس
عفي عنه

(الكتاب)



اللوحة الرابعة
الورقة الأخيرة من المخطوط

الْمَنَاقِبُ الْمُصْطَفَوِيَّةُ

وَالْمَأَثَرُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْعَلَوِيَّةُ

تَأَلَّفَ

الْفَقِيرُ إِلَيْهِ تَعَالَى

أَسْكَنْدَرُ بْنُ يَعْقُوبَ أَبِكَارِ يُوسُفَ

عُفْمِي عَنْهُ

١٥ / بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله رب العالمين، الذي أختي^(١) ذكر الأولين بقلم
المؤرخين، وجعل حوادثهم تذكراً للمتأخرين، على مدى الأيام والسنين.

أما بعد فيقول العبد الفقير إلى عفو ربه القدير اسكندر بن
يعقوب أيكاريوس - المُعترف بالعجز والتقصير - إنني قد وضعت هذا
الكتاب في الحوادث المصرية المتعلقة بالدولة المُحمديّة العلوية - ذات
المآثر السنية، والصفات العاطرة الزكية - وجمعت فيه من محاسن
أخبارها، ولطائفها ونوادر آثارها، كل ما طاب وراق، وتحلّت بمحاسنه
بطون الصحف والأوراق، وأضفت إليه وقائع المرحوم المبرور،
صاحب الصيت /^٢ المشهور، والفضل المأثور، الشهم الهمام، والليث
الباسل الضرغام، إبراهيم باشا فارس الصدام، وغرّة الليالي والأيام،
وسائر فتوحاته في بر التُرك وقُطر الشام، وما رأت الناس منه من
البطش والإقدام، والحلم وعدالة الأحكام، والحكمة والسياسة، والنباهة
والفراسة، إلى غير ذلك مما يستحق الاعتبار، وتتزيّن به صدور
الأسفار.

فجاء بحوله تعالى - كتاباً نفيساً جليلاً، وتاريخاً مُقيداً جميلاً
يلتذ بمطالعه القارئ والسامع، ويأخذ بمجامع القلوب والمسامع، وكان
ترتيبي له في مدينة بيروت المحميّة، سنة ألف ومائتين وتسعين هجريّة،
الموافقة لسنة ألف وثمانماية وثلاث^(٢) وسبعين مسيحية.

(١) كذا بالأصل.

(٢) كلمة ثلاث جاءت استدراكاً من المؤلف أعلى السطر.

/ ٢٢ وبعد أن تمَّ جمعة وانتظم، وصار يليقُ أن يَهْدَى لكبار
الملوك وعظماء الأمم، سميت المناقب المصطفوية، والمآثر المحمدية
العلوية، وقدمته خدمة إلى أعتاب فخر الوزراء الكرام، وعمدة الكُبراء
الفخام، صاحب الفضائل والمكارم، والهمة التي هي أمضى من الصَّارم،
الوارث رُتب المجد كابرأ عن كابر، والنَّاهض برفيع نسبه لأعلى ذرى
النُجوم الزواهر، حضرة أفندينا المُعظَّم مُصنَّفِي فاضل باشا المُقَّم.

شعر :-

هو الهمام الذي باهى الأنام ومن فاق الكرام فلم يلحقه مُشترك
يُدعى وزيراً لجهل بالصواب فمن من أصاب قال -لعمرى- أنه ملك

كيف لا وهو نادرة الزمان، وكعبة المجد والإحسان / ٢٣ المحمود
بكل شفةٍ ولسان، والجوهرة الثمينة في هذا الأوان، الذي اتَّصف بجميل
الصفات، وشاعت مكارمه في جميع الجهات، وأشرقت شمس معاليه،
وابتهجت الأقطار بنور تجليهِ فكان كما قلت فيه:-

يا مُصطفى المفضَّل يا من جوده عمَّ المَلَا وبذا الخلايق تشهدُ
أنت الذي منه الفضائل تجتسَّى والفخر والشرف العلي والسودد^(١)
فُتت الورى همماً ومَجْدأً باذخاً لا يدع إذ أنت الهمام المقدرد
إن قلت كسرى كنت أعلى همة أو قلت حاتم أنت منه أجود!

(١) كذا بالأصل : ولعله أراد "السودد".

فِيكَ الْمَحَامِدُ وَاللِّطَائِفُ وَالتَّقَى	وَالْحِلْمُ وَالْعِزُّ الَّذِي لَا يُجْحَدُ
لَمْ تَجْتَمِعْ فِيكَ الْمَحَاسِنُ إِلَّا مَا	أَنْتَ الْمَحَاسِنُ وَهِيَ فِيكَ تُعَدُّ
يَتْلُو عَلَيْكَ الْحَمْدُ فِي صَلَوَاتِهِ	مَنْ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ ثُمَّ يَرُدُّ
صَدَقَ الْمُخْبِرُ عَنْ صِفَاتِكَ قَوْمُهُ	حَتَّى أَطَالَ فَقَالَ إِنَّكَ أَوْحَدُ
٥٣/ شَهِدْتَ لَكَ الْأَنَامُ أَنَّكَ رَبُّهَا	وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّهَا لَكَ أَعْبَدُ
مَا أَكْثَرَ الْجُهْلَ! لَكِنْ شَرُّهُمْ مَنْ	كَانَ عَنْ أَبْوَابِ فَضْلِكَ يَشْرُدُ

وقلت أيضاً في حضرته عند تقدمة الكتاب إلى أعتاب دولته :-

مولاي يا من به الأسفار قد لهجت	وغرّدت السنن الأعلام تغريدا
إليك سفراً لقد أودعته شرفاً	لذكر أنارك الغراء تخليدا
زيّنته باسمك العالي السني فأتى	يتيه حُسناً كدراً جاء منضوداً
هبة القبول ودم بالعز مقتخراً	على الدوام عظيم الفضل مقصوداً

قلت :- وكان السبب في وضع هذا الكتاب وتقديمه إلى حضرة الوزير المشار إليه، من جعل الله مقاليد السيادة والسعادة طوع يديه، هو أنني لما كنت بالأساتذة العلوية، في أواسط [عام] (١) ١٢٩٠ هجرية / ١٩٧٣ م تشرفت بلثم أعتاب دولته، وتطلّعت على عالي حضرته بتقديم نسخة من كتابي "روضة الأدب في طبقات شعراء العرب"، مع نسخة من كتاب "توادر الزمان في وقائع جبل لبنان" فوقعتا عنده في حيز القبول وأنعم

(١) زيادة اقتضاها السياق.

عليّ بأحسن مأمول، ولما رجعت إلى الأوطان، وتذكرت ما أولاني به
من جزيل الإحسان - الذي يعجز عن وصفه اللسان - بادرت حالاً بهذا
التأليف، وسرت بنفسي لأقدّمه إلى جنابه الشريف، ملتمساً من حضرته
أن يشملني - وإياه - بالنظر السامي المنيف لأنني من جملة عبيده
وخذّامه، المنتمين إلى سدة مقامه، لعمرى إنّه بجر الفضائل، وكعبة
العوارف والفواضل، وفخر الأواخر والأوائل.

/ شعر :-

هذا الهمام الذي شاعت مكارمه فلذ به فهو ربُّ المجد والكرم
هذا الذي جرت الأقدار حين جرت أقلامه في فصول الخُكم والحُكم
هذا ابن من صيته قد طار مُنشراً في الشرق والغرب بين العرب والعجم
يداه ما خلقت إلا لبذل نداء للسائلين، وفخر السيِّف والقلم
زهت بدولته الأيَّام وابتهجت به المنازل فاستغنت عن الدِّيم
تاجُ الزَّمان فريد العصر أفضل من أمّت حماه مطايا العزم من أمم

وبالجُملة فإنّه فريد العصر، وتاج رأس هذا الدهر، أعماله
محمودة، ومآثره ظاهرة مشهودة، لا يُنكرها إنسان، ولا يقوم بحق
شكرها لسان، ولا تحتاج إلى دليل ولا برهان، وهو مع هذه الأوصاف
الحميدة، والمناقب الجليلة الفريدة، في غاية /^{١٠} الرقة واللطف، جامعاً
بين البأس والظُرف ممدوحاً محمّوداً، جميل الخلق مسعوداً، ذا حزم
وفراسة، ومعرفة بأحوال السياسة.

وفضلاً عن بصيرته في الأمور السياسية، له بصيرة عظيمة في علم العربية، واللغات الإفرنجية، سالكاً سيرة الخلفاء الفاضلين، متمسكاً بتقوى الله رب العالمين، يحب العلماء والشُعراء، ويكرم الأدباء والفضلاء، ويمدُّهم بهباته الوافرة، وصلاته الجزيلة المتكاثرة، لا يَحْزِم من قصده، واستغاثَ به واعتمده.

هذا وإنني مُعترفٌ بالقصُور عن تقدمة الثناء على أخلاقه الكريمة، واستيفاء الشُّكر على مكارمه العظيمة، والله المسؤول أن /^{هـ} يُديم لنا دولته تاجاً على مَفْرِقِ الزَّمان، ويحفظ ذاته العليَّة مصدراً للخير والإحسان، ومورداً للشُّكر والثناء على توالي الأيام، ما أشرقت الشمس وناح الحمام، والدعاء ختام.



**٧/ ذكر ولاية مُحمَّد علي باشا العظيم الشان، تقمَّده الله بالرحمة
والرُضوان وسقى ثرى رمسه غيث النعم^(١) من أعلى غرف الجنان**

وكانت الديار المصرية في زمن المماليك البحريَّة -وهي
الحكومة الكولمانيَّة- عديمة الانتظام من جَوْرِ الولاة والحكَّام، الذين
استولوا على البلاد وأضرُّوا بالعباد، فاندثرت معارف علومها،
واندُرست معالم رسُومها من كثرة المظالم والضرائب والمغارم التي
لا يستوفيها قلم كاتب ولا يُحصيها رقم حاسب.

وما زالت في انحطاط واختلال إلى أن خرجت من تلك /^٧ظ
الحال، وبلغت إلى أعلى درجة من التمدُّن والكمال في أيام حضرة
الخدوي الأعظم والداوري الأكرم الأفخم، أنموذج الفخر والجَّاه
المرحوم مُحمَّد علي باشا طاب ثراه الذي لم يوجد [في]^(٢) الزمان
مثله، ولم يُحاك أحد فضله في الحِلْم والحزم، وشدَّة البأس والعزم.

شعر :-

عزیزِ سَمَا في مجده وصِفاتِه له فوقَ هامِ الفرقدين منازلُ
به تفخر الأیام والمجد والعلی وكل مديح لم یکن فیہ باطلُ

(١) قوله: "غيث النعم" استدراك أثبتته المؤلف أعلى السطر.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

وكان مولد هذا البطل الهمام، والليث الباسل الضرغام، بمدينة قَوالَة^(١) من بلاد الأرناؤوط^(٢) - وهي مدينة شهيرة في تلك الحدود والخطوط - سنة ألف ومائة وثلاث وثمانين هجرية، الموافقة / ٨ لسنة ألف وسبعمائة وتسع وستين مسيحية. ومات أبوه^(٣) وهو صغير فتوكل به

(١) قَوالَة "Kavalla" (أو قولة كما ترسم في بعض الأحيان) مدينة شاطئية كبيرة تقع على الشاطئ الشمالي لبحر إيجه قبالة مدية سالونيك Salonica اليونانية.
(٢) الأرناؤوط : سكان إيالة أرناؤطلق، وتضم بعض مناطق غربي اليونان وألبانيا الآن، وهي الولاية التي كانت تمتد على الشاطئ الشرقي للبحر الادرياتي بين خطي عرض ٣٩ و٤٣ شمالا، والأرناؤوط أو الألبان شعب من أصول آرية، اعتنق الإسلام إبان خضوع ألبانيا للعثمانيين، وأصل لفظة أرناؤوط Arnaut الذين عرفوا باسم الأربن Arben وتحرفت عند الترك إلى الارناؤوط، انظر :- ك. سوسهايم، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، القاهرة ١٩٦٩، ٣ : ١٣٢، مادة أرناؤوط.

(٣) لم يُحقق بعد أصل ونسب محمد علي باشا في بحث مستقل، كذلك فإن الفترة التي قضاها من عمره في مسقط رأسه بقَوالَة قبل قدومه إلى مصر صُحبة جيش الصدر الأعظم لإجلاء الفرنسيين عنها غامضة وقليلة التفاصيل، وغالباً فإن للمعلومات الضئيلة التي توفرت لنا عن أصله وحياته ما قبل قدومه إلى مصر مصدرها هو مرويات محمد علي باشا نفسه كلما سُئل عن نفسه أو عن له الحديث عن صباه وشبابه أمام أولاده وحاشيته ورجال بلاطه، فالباشا أكد على أنه ولد عام ١٧٦٩ بقَوالَة، وأن والده "إبراهيم أغا" - الذي كان يشغل منصب رئيس خفر الطرق في قَوالَة - ما لبث أن توفي قبيل ولادته ثم تلتته والدته بعد ذلك وكفله عمه "طوسون أغا" الذي ما لبث أن توفي أيضاً فلم يبق له أحد من ذويه ليكفله حتى قبل شوربجي "قولة" - أي حاكمها - إسماعيل أغا كفالته والإنفاق عليه، والذي ما لبث أن اكتشف ما حبه الطبيعة لهذا الشاب من همة وذكاء فطري فأرسل إليه عدة مهام في بلاطه، وظل يرتقي في المناصب حتى وصل إلى أمير آلاي فرقة من الجند، فاشترك في تطهير بحر مرمرة وجزر الأرخبيل من نشاط القراصنة، وما لبث شوربجي قَوالَة أن زوجه من إحدى قريباته من ذوات الثروة وكان اسمها أمينة هانم التي كانت إما مطلقة -

أحد الذوات المشاهير، وكان بينه وبين أبيه محبة، ومودة قديمة وصحبة، فاعتنى به ورباه، وأحسن إليه وذاراه، وكان عنده كالولد

أو أرملة وهو الغالب، وليس هناك ما يدعو للقطع بشأن كونها مطلقة كما ذهب بأول كالة، انظر :-

دائرة المعارف الاسلامية، مادة إبراهيم باشا، ١ : ١٥٧.

وغالباً فإن هذا الزواج قد تم عام ١٨٨٧، ثم انضم محمد علي على كره وتمنع شديد وبأمر صارم من الشوربجي إلى ابنه في قيادة الثلاثمائة رجل الذين كان على شوربجي المدينة جمعهم وتجنيدهم لينضموا إلى جيش الصدر الأعظم السائر إلى مصر لقتال الفرنسيين، انظر :- إلياس الأيوبي : محمد علي سيرته وأعماله، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩٢٣، ص ص ٥ - ١٧.

وهذه المعلومات التي قدمها الباشا عن نفسه هي في الأغلب الأعم صحيحة، فهي ترتبط بأسماء أشخاص حقيقيين كان لهم الفضل على محمد علي وأثروا فيه في فترة شبابه الأولى حتى أن محمد علي حاول استقدامهم فيما بعد إلى مصر ليعيشوا في كنفه كشخصية المسيو ليون وهو دبلوماسي فرنسي كان يعيش في قوالة وتولى تعليم الشاب محمد علي وتثقيفه واعتمد عليه اعتماداً كاملاً في مشروعاته التجارية - وغالباً كان تأثر الباشا بمسيو ليون هو سبب ميله الواضح وثقته بالفرنسيين واعتماده عليهم أكثر من غيرهم في مشروعه الإصلاحية - لكنه توفي غداة سعي الباشا لاستقدامه إلى مصر فأرسل محمد علي خطاب تعزية مؤثر مصحوباً بعطاء لا بأس به إلى شقيقته التي كانت تقيم بمرسلياً.

لكن القصة التي قدمها محمد علي عن نفسه (أو قُدمت عنه) لا تخلو بالمقابل من طابع مسرحي واضح، من ذلك قصة الحلم الذي رآته والدته غداة ولادته بأنها شاهدته يشرب من ماء النيل فلا يرتوي والذي فسّر لها بأنه يملك مصر ولا يكتفي بها، كذلك فالتاريخ الذي حدده الباشا لميلاده غالباً مقتعل ليتطابق مع تواريخ ميلاد كل من الإمبراطور نابليون والسير ولنجتون ولغيف أيضاً من أبرز الشخصيات التاريخية التي ولدت في هذا العام تحديداً، كذا فإن قصة نشأته الأولى قد صيغت بمهارة بحيث تبدو قريبة الشبه إلى حد بعيد بقصة ميلاد ونشأة النبي محمد ﷺ، إضافة إلى أن تمنعه أمام شوربجي قوله عن المسير مع الصدر الأعظم إلى مصر يذكر بموقف صلاح الدين حين أجبر على مرافقة عمه في السير إلى مصر.

المحبوب، وأعز من يوسف عند يعقوب، فنشأ شاباً نجيباً حازماً أديباً، شجاعاً مهيباً، لا يُقدّر العواقب ولا يخشى حُلُول النوائب، وكان يُصاحب الأبطال، ويلقي [إـ]^(١) نفسه في الأخطار والأهوال، أملاً بالارتقاء وبلوغ الآمال، ولقد أجاد من قال :-

بقدر الكد تُكتسب المـعالي ومن طلب العُلا سهر الليالي^(٢)
/ وما زال على تلك الحال، ونجمة في سقود وإقبال ؛
حتى تغلبت الفرنسية على الديار المصرية سنة ١٧٩٨ مسيحية في
زمن حضرة ساكن الجنان السلطان سليم خان^(٣)، فلما ملكوا زمامها
واستقلوا بتدبير أحكامها ؛ أرسل السلطان سليم الأوامر والمراسيم إلى
وُلاة الأقاليم يحثهم بالنهوض والقيام، والمبادرة لقتال الأخصام،

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) البيت يُنسب للإمام الشافعي.

(٣) السلطان سليم الثالث (١٢٠٣ : ١٢١٣هـ — / ١٧٨٩ : ١٧٩٨م) وهو ابن السلطان مصطفى الثالث تولى السلطنة عام ١٢٠٣هـ / ١٧٨٩م وكان عمره حينئذ يناهز الثامنة والعشرين، قام بسلسلة كبرى من الإصلاحات لا سيما على الصعيد العسكري لكن انقلاب الإنكشارية عليه أجبره على التنازل عن السلطنة لخلفه مصطفى الرابع، ثم ما لبث أن توفي في سجنه عام ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م، انظر :-

يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بهام عبد الوهاب الجابي، دمشق ١٩٨٥، ص ص ١٣٩ - ١٤١.

ولمزيد من التفاصيل عن إصلاحاته انظر للدراسة للواسعة التي قام بها ستانفورد شو Stanford Jay Shaw بعنوان :-

Between old and new, The Ottoman empire under Sultan Selim III, Harvard university press, 1971. ; Erik J. Zürcher: Turkey, A modern history, third edition, London 2004, PP 21 - 29.

ونُودي بالنفير العام في بلاد الإسلام ؛ فهاجت الشُّبان في كل جهةٍ ومكان، واجتمع في بلاد الشام لهذا القصد والمزام عالم لا يُحصى ولا يُرام، غيرةً لنصرة الدين وطرد عساكر الفرنساويين، وقصدوا مصر القاهرة امتثالاً للأوامر الصَّادرة.

٥ / وكانت الدولة الإنكليزية قد اتحدت مع الدولة العثمانية لمحاربة الجيوش الفرنسية، وإخراجهم من الديار المصرية بالقوة الجبرية، وأرسلت عمارة بحرية إلى بُوغاز الإسكندرية مشحونةً بالعساكر والمُهَمَّات الحربية، فكتب حضرة السلطان إلى ولاية أساكل عربستان يُعلمهم بذلك الاتحاد، ويحرضهم على الحرب والجهاد، وأنه مهما مر عليهم من قباطين الإنكليز الرُاسين بالمراكب على الثُغور والبواغيز يقدّمون لهم الإكرام، ومزيد الوُفّار والاحترام، وهذه صورة اكتبابه^(١) حرفاً بحرف، مؤرّخة في ٩ جمادى الآخرة سنة ٢١٣ بعد الألف :-

١٥ " إله لا يخفى عليكم أن الجيوش الفرنسية قد هجموا /^{٥٩} على الديار المصرية، وافتحوا مصر القاهرة وما يليها، واستولوا على يافا وغزة والرملة ونواحيها، ومُرّادهم أن يُبيدوا أمة الإسلام ويتغلبوا على المملكة بالتمام، والآن حضرة المُحب الصادق، والخَلُّ الوفي المُوافق، جلالة أئمتنا المعظم سلطان الإنكليز المُفخّم، المُتحد معنا بإخلاص الطُوية على قتال الطائفة الفرنسية - لتعزيز مكابره، ووُفّور

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "كتابه".

مراحمه - قد أنعم وجاد، وقضى حقَّ الوداد، وسَّير من
لُدُن سده الملوكية عمارة إنكليزية مع العمارة العثمانية،
تحت لواء افتخار الأمراء الكرام في الطائفة المسيحية،
وعظيم الكبراء الفخام في الأمة العيسوية، جناب محبنا المحترم
السَّار^(١) / ١٠ ولیم سدني مميث الأكرم، بالتفويض
الحاقاني، والإمداد السلطاني ليدبّر أمور تلك الديار بحسن
السياسة والاختبار.

٥

فليعلم كل منكم تفويض محبته من لدنا في سائر الأقطار،
ومهما مرَّ عليكم من مراكبه وأتباعه فقدّموا لهم مزيد
الاغْتِبار، والإكْرام والوقار، وليكن معلوم الخاص والعام
إخلاص صدّاقته مع الإسلام والإعانة لهم منه على حرب
الفرنساوية الأخصام، اعلّموا ذلك واعتمدوه غاية الاعتماد
والسَّلام".

١٠

وكان مُحمد علي - صاحب الجأشِ القوي - قد نهض نهضة
الأسد، واتحد مع شُجعان ذلك البلد، وانضمُّوا مع ذلك الجيشِ
العَرمزم، وساروا / ١٠^{هـ} إلى مصر بمعِيَّة الصدر الأعظم^(٢)، فصارب

١٥

(١) السَّار وترسم أيضا "سَر" وتعني الرأس أو القائد في التركية، أثير الدين
الاندلسي: الإدراك للسان الأتراك، نشرة جعفر أوغلي أغا، استانبول ١٩٣٠،
ص ٥٧.

(٢) أوكل السلطان سليم للصدر الأعظم يومف باشا ضيا مهمة قيادة الجيوش
العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر، انظر :-
الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد
الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨، ٣ : ١٤٠.

في تلك الوقائع، واشتهر بالشجاعة في هاتيك المعامع وامتاز على الأقران، وانتظم في سلك الفرسان، وفي مدة قصيرة وأيام يسيرة انتشر ذكره وشاع أمره، وصار ذا كلمة نافذة عند الأعيان والجهابذة، وأكابر الأشراف والأساتذة، واستمرت الحروب بين فرنساوية والدولة الإنكليزية والعثمانية مدة مديدة وجرى^(١) بينهم وقائع عديدة إلى أن آل الأمر إلى خروج الفرنسيين من مصر تحت شروط معلومة وروابط مفهومة.

وكان جناب الصدر الأعظم قبل رحيله من مصر قد جاد وأنعم على محمد باشا أبي مرق^(٢) - وكان /^{١١} من الشطار الخدق - بولاية الديار المصرية وأمره أن يرفق بالرعية، ويجعل مركزه في القلعة السلطانية، حسب الأيام السالفة بدون مناقضة ولا مخالفة.

وما زال محمد علي يتقدم في المراتب، ويرتقي في الوظائف والمناصب، حتى صار في رتبة عليّة، ومنزلة رفيعة سنية، وكان قد صمّم العزم، وأخذ بالسداد والحزم على أن يمد باعه للقبض على زمام الملك، وينظم الأحكام على أحسن سلك، فأخذ ينفق الأموال على الفرسان والأبطال، ويستجلب خواطر الناس أهل الشوكة والبأس، ويستميلهم إليه باللطف والإيناس، حتى استعبدتهم بطيب الخلق، وحسن السريرة واللين والرفق، فكانوا يحبونه /^{١١} ويكرمونه،

(١) كذا بالأصل، والصواب "وجرت".

(٢) محمد باشا الشهير بأبي مرق والي غزة والقدس والذي ولاه السلطان على مصر في أعقاب جلاء الفرنسيين عن مصر، ثم سرعان ما عزله وولى محمد باشا خسرو بدلا منه، عجائب الآثار ٣ : ١١٤.

ويميلون إليه ويحترمونه، ويتمنون له النجاح وبلوغ الأرب،
والارتقاء إلى أعلى الرتب.

وكانت شوكة ممالك الغز قد انكسرت بعد ذلك الاقتدار
والعز ؛ لأنهم كانوا في سالف العصر قبل دخول الفرنسيّة إلى
مصر أصحاب النهي والأمر، وبأيديهم مقاليد الأمور ونظام
الجمهور، ومحافظة الحدود والتغور.

وكانت الناس تهابهم مهابة عظيمة، نظرا لشوكتهم القوية
وسطوتهم الجسيمة، لا سيما في زمن أميرهم الشهير المدعو علي بك
الكبير^(١) ؛ فإنه كان قد أظهر العصيان، وخلع طاعة السلطان
وضرب باسمه السكة، ونفى وزير الدولة إلى مكة، وتسلم زمام

(١) علي بك الكبير (١٧٢٨ : ١٧٧٠) أحد المماليك الجلبان من ذوي الأصل
الأبخازي، جلب إلى مصر وهو صبي وفي عام ١٧٤٣ التحق بخدمة الأمير
إبراهيم كتخدا، ثم ظل يرتقي بالمناصب حتى أصبح كبير المماليك بمصر،
وفي عام ١٧٦٠ طرد الوالي العثماني وتلقب بشيخ البلد واستطاع الاستقلال
بمصر لبعض الوقت، وعزز موقفه بتحالفه مع الظاهر عمر بالشام مستفيداً
في الوقت نفسه من الدعم الروسي.

Arther Goldschmidt : Biographical dictionary of modern Egypt,
Pennsylvania, 2000, P 18.

ثم ما لبث أن أجهضت حركته بواسطة زوج شقيقته وربيبه محمد بك أبو
الذهب الذي نجح السلطان في استمالة، إسماعيل الخشاب : خلاصة ما يُراد
من أخبار الأمير مراد، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر، دانيال كريسلويس،
القاهرة ١٩٩٢، ص ١٨، وانتهى الأمر بوفاته متأثراً بجراحه عقب معركة
عنيفة مع محمد بك أبو الذهب قرب الصالحية، الجبرتي : عجائب الآثار، ١ :
٥٩٠ - ٥٩١.

القلعة، /^{١٢} وألبس الوجاقات السبعة^(١)، واستبد بتدبير الأحكام وأطاعه الخاص والعام، وصفا له الوقت وراق، وانتشر صيته في الآفاق، وحدثته نفسه أن يسطو على الشام والعراق، ويعيد إلى مصر دار السلطنة كما كانت في سالف الأزمنة، وكان له مزيد الفخر والاعتبار في تلك الديار حتى كان يُخطب له يوم الجمعة على المنابر، ولم يكن للدولة من حكم مصر في أيامه إلا مجرد الاسم الظاهر.

ولما صفت للدولة العلية أحكام الديار المصرية بعد رحيل الفرنسية، صدر أمرها العالي إلى محمد باشا [خسرو] ^(٢) الوالي أن

(١) الوجاق كلمة تركية تعني الفرقة من العسكر والوجاقات السبعة هم إجمالي الحامية التركية في مصر، وقد انقسمت إلى المستحفظان والعزبان وأوجاق المتفرقة وأنيطت به مهمة حراسة الوالي، وأوجاق الجاوشان وأنيطت به مهمات المراسلات والبريد والجوئوليان وكان يتكون من المتطوعين بالحامية العثمانية والتفنجيان وهم حملة البنادق وأخيراً أوجاق الجراكسة، انظر :- احمد الدمرداش كتحدا عزبان : الدرة المصانة في أخبار الكنانة، نشرة دانيال كريسليوس وعبد الوهاب بكر، القاهرة ١٩٩٢، ص ٣٠.

(٢) زيادة لازمة، ومحمد خسرو باشا كان يشغل منصب كتحدا حسين باشا القبودان، وصدر فرمان تعيينه والياً على مصر في جمادى الأولى ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وحاول تنفيذ ما أوكل إليه من القضاء على المماليك بشكل نهائي وعدم قبول الصلح معهم، إلا أن هزائمه المتكررة أمامهم حالت دون تنفيذه لأهدافه وسقط أسيراً في يد عثمان بك البرديسي ومحمد علي فسجن في القلعة لبعض الوقت، ثم أطلق سراحه واستعاد منصبه ليومين فقط وانتهى الأمر بطرده من مصر وترحيله إلى استانبول بعد اعتراض كبار أمراء المماليك على إعادة تنصيبه من جديد كوال على مصر، انظر :- الرجبى : تاريخ الوزير محمد علي، ص ص ٧٧ - ٧٨.

يُبادر في الحال بالجنود والأبطال إلى قتال المماليك المذكورين والفجرة /^{١٢} المعتدين، ويضع السيف فيهم ويلاشيهم عن بكرة أبيهم، حتى تنطفئ أخبارهم وتنمحي آثارهم.

وكان بينهم قائدان وهما من أكابر الأعيان قد اتصفا بالشجاعة وقوة الجنان أحدهما يدعى عثمان بك البرديسي^(١)، والآخر محمد بك الألفي^(٢)، فلما اتصل بهما هذا الخبر وكان قد شاع واشتهر، أخذوا في الاستعداد للمدافعة والجلاد، فجمعوا الأخلاف والأحزاب، وانحاز إليهما الأعوان والأصحاب حتى صاروا في [جمع]^(٣) جم غفير وعدد كثير، ونهضا لمقاومة الوزير.

وكان الباشا قد جهّز لقتالهما جيشاً عرمرماً، وقدم عليه قائداً جليلاً معظماً^(٤)، فاستظهره عليه وكسراه، وهزما جيشه وفرّقه، /^{١٣}

(١) عثمان بك البرديسي أحد كبار ممالك مراد بك، لقب بالبرديسي لتوليته منصب كاشف نواحي برديس بالوجه القبلي، تحالف معه محمد علي ضد خسرو باشا ثم أن انقلب عليه وانتهى الأمر بهربه ووفاته بنواحي منفلسوط بأسبوط، انظر، عجائب الآثار ٤ : ٧٠ - ٧١.

(٢) محمد بك الألفي أحد أكبر ممالك مراد بك، قاتل مع استاذة مراد بك ضد الفرنسيين في أعقاب دخولهم مصر ثم لم يلبث أن انقلب على استاذة عقب صلحه مع الفرنسيين ثم لجأ إلى إنجلترا زمناً وعاد إلى مصر ولم يلبث أن توفي بها بعد نزاع قصير مع محمد علي، عجائب الآثار ٤ : ٤٦ - ٧٠.

Arther Goldschmidt : op.cit, PP 17, 18.

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

(٤) الإيماءة إلى يوسف بك الذي أرسله خسرو باشا لقتال المماليك وعضده بمحمد علي فتسرع يوسف بك دون التنسيق مع محمد علي واشتبك مع قوات البرديسي قرب دمنهور فكانت النتيجة هزيمة مُنكرة لقوات يوسف بك الذي كانت قواته أضعاف أعداد المماليك لدرجة أن الإنجليز نصحوا المماليك ألا يخطروا بمهاجمة العثمانيين، عجائب الآثار، ٣ : ٣٦٧.

وكان مُحَمَّد علي - الأسد الغَضَنَفَر - من جُملة ضباط العسكر تحت
رياسة القائد الأكبر، فاستشاط القائد حنقاً وَغَضِباً، واتَّهم محمد علي
بأنه كان لتلك الكَسْرَةِ سبباً، ثم وقعت بينهما المُتَافرة وأدَّت إلى
الخصام والمُشَاجرة.

وكان ذلك القائد يُعهد منه الطمع في الاستيلاء على نَخْتِ
القاهرة، فاجتمع بالوالي في بعض الليالي، وعند إمكان الفرصة قصَّ
عليه تلك القصة قائلاً أن فلاناً قد اتخذ له أحزاباً وأعواناً من العلماء
المشهورين، والذوات المُعتبرين، وهو كل يوم في همّة وحركة،
وقصده استخلاص المملَكة، ومازال يقدح في حقه بزناد شتمه،
ويزرق ستر حرمة بمخالب /^{١٣} ذمّه، حتى أوغر صدره عليه،
واستدعاه ليلاً إليه، وكان قد صمّم النية على أن يُلقيه في أشراك
المنيّة، وبلغ مُحَمَّد علي الخبر فأخذ لنفسه الحذر، وحاول^(١) تلك الليلة
ولم يحضر.

وفي اليوم الثاني لم يمكنه التواني، فنهض بالعجل خوفاً من
حُلُول الأجل، وانحاز إليه كل شُجاع وبطل، وانضم إلى جماعة
المماليك البحريّة، واتحد مع عثمان بك وَغَصِبَت القويّة، وجاهر
الوالي بالعصيان، واستعان بمن تعصّب معه من الشجعان، فبادر
الباشا لقتاله بجُنُوده ورجاله، فالتقاه مُحَمَّد علي بأبطاله وأسُوده
وأشباله، فأعانه الله ونصره وكسر جيشه وعسكره، وقبض عليه /^{١٤}
وأُسره، وكانت هذه الكَسْرَة والنُصرة في سنة ألف ومائتين وثمانين
عشرة من سني الهجرة^(٢).

(١) كذا بالأصل.

(٢) انظر هذه الأحداث في عجائب الآثار ٣ : ٤٤٨.

ولما بلغت هذه الحوادث مسامع السلطان سليم الثالث عظم عليه ذلك الأمر، وأرسل علي باشا الجزائري^(١) إلى مصر ليجلس مكان محمد خسرو باشا، ويقبض على العصاة ويتصرف بقصاصهم كيفما شاء، وعند وصوله إلى هناك أخذ يحتال على المماليك والأرناؤط ليلقيهم في شرك الهلاك، فخلعوا طاعته وخذلوه ثم حاربوه وقتلوه، وبعد ذلك بأيام وقع النزاع والخصام بين محمد بك الأفقي وعثمان بك البرديسي رغبة في السياسة وطمعا بنوال الرئاسة، فنادى^(٢) بعضهما / بعضاً وازدادا حسدا وبغضاً.

وكان لعسكر الأرناؤط مال مكسور عند عثمان بك المذكور منذ ثمانية شهور، فلما رأوا ضعف حاله وقلة أنصاره ورجاله،

(١) لقب علي باشا الجزائري بهذا الاسم لكون كان فيما سبق كان مملوكاً لباي الجزائر، ثم تورط في نهب طرابلس الغرب، وفر من وجه حمودة باشا والي تونس ولجأ إلى مصر واستجار بمراد بك، وصدر أمر الباب العالي بنفيه إلى النوبة لكن مراد بك عوضاً عن أن يقوم بنفيه كما أمر السلطان أرسله للقيام بفريضة الحج، وكاد يموت في مكة لاتهامه باقتراف عمل غير أخلاقي مع أحد الغلمان بالقرب من الحرم إلا أن توسط بعض أمراء المصريين حال دون تنفيذ الحكم فيه، ومن غير المعروف على وجه الدقة تلك الظروف التي قربته مرة أخرى من الصدر الأعظم يوسف باشا والذي وافق على انضمامه لجيشه الذي جهزه لحرب الفرنسيين وإجلائهم عن مصر، ولعل تطوعه للاشتراك في هذه الوقائع قد غفر له ما سلف منه في حق الدولة، فعفا عنه يوسف بك الصدر الأعظم ولم يلبث أن تعطف عليه بعقد إيالة مصر له فنزل الأسكندرية وحاول الاستيلاء عليها عنوة وانتهى الأمر بمقتله بإيعاز من محمد علي والبرديسي، انظر عجائب الآثار ٣ : ٤٣٤ ، وتجد سيرة مفصلة لهذا الوالي في إلياس الايوبي : سيرة محمد علي، ص ص ٣٣ - ٤٠ .

(٢) كذا بالأصل، ولعله أراد "فعاذ".

طالبوه بالرواتب والجوامك^(١) وشددوا عليه في ذلك باتفاق مُحَمَّد علي ليث المعارك، وإذ لم يَكُنْ له قدرة على مقاومتهم ولا طاقة في دفع مُصادمتهم اضطرُّوا الحال أن يوزَّع المال على أكابر البلاد ليُرْضى العساكر والقواد فلم يُجيبوه إلى طلبه، ولم يَكْثُرْ أحد به.

ولمَّا خابَ أمله وضائق حيله انْحَصَرَ في داره في جماعة من أنفاره، فوفدت عليه العساكر والأغوات وأحاطوا بقصره /^{١٥} من جميع الجهات في طلب الرواتب والنفقات، وكذلك فعلوا بغيره من البكاوات وأكابر المَمَالِيك أرباب الولايات، وبقي عُمَمان بك في منزله على^(٢) بضعة أيام وهم يترددون إليه بالتهديد وطلب الانتقام، إلى أن ساعدته الفرص ففر من بين أيديهم كما يفر العُصفور من القفص، وقصد بلاد الصعيد وانكسر عزمه الشديد.

وإذ كان مُحَمَّد علي قد حصل على صداقة العلماء ومحبة الأهالي ؛ ارتقى بهذه الوساطة إلى أن يكون هو الوالي، وفي أثناء ذلك اجتمعت الأكابر والعُمد وأقاموا مُحَمَّد علي قائم مقام على البلد، وأرسلوا مُحَمَّد خِسرُو باشا إلى القُسطنطينية وولَّوا مكانه رشيد باشا محافظ الإسكندرية /^{١٥} ولقبَّوه نائب الحاضرة السلطانية على الديار المِصريَّة.

(١) الجوامك جمع "جامكية" ما يماثل الراتب انظر :-

محمد قنديل البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، القاهرة ١٩٨٣،

ص ٨٢.

(٢) كذا بالأصل.

ولم يمض إلا زمن يسير بعد هذه الحركة حتى توفي عثمان بك ومحمد بك، وصفت لمحمد علي ولاية المملكة، ولما بلغ مسامع حضرة السلطان ما جرى وكان من الشقاق والخلاف في تلك النواحي والأطراف ؛ أخذه القلق والضجر، وزاد به الغم والكدر، وأمر مصطفى باشا باش قبطان أن يسير إلى مصر من غير توان، باستعداد تام، وجيش لهمام^(١)، ويذكر بحسن التدبير والاهتمام ما اختل هناك من النظام، واصحبه بفرمان إلى محمد علي باشا - علي الشأن - يأمره بالتوجه إلى ولاية سالونيك^(٢)، وأن يصير تسليم مصر إلى جماعة /^{١٦} المماليك، بشرط أن يدفعوا في كل سنة خمسة آلاف كيس إلى خزينة السلطنة.

فأجاب وامتنل، وسار على عجل بجنود كافية، وسفن حربية وافية، وعند وصوله إلى مصر شرع في ذلك الأمر، فلم تقبل بذلك أهالي البلاد ورؤساء العساكر والأجنّاد، وتوجّه منهم العلماء والأعيان، وأكابر العمد والأركان، وقصدوا ذلك الوزير الأكرم، والمُشار إليه الأفخم، ودخلوا عليه وتمثلوا بين يديه، فالتقاهم بالبشاشة والترحاب، وأنسهم بالخطاب، وجاراهم بالسؤال والجواب، فقالوا له عن فرد لسان:-

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "همام".

(٢) سالونيك مدينة كبيرة وقصبة لإيالة عرفت بالاسم نفسه، تقع على الشاطئ الشمالي لبحر ايجة.

١٠ "إننا عبيد الله والسلطان، ومن جملة الرعايا والأغوان، ومهما برزت به / ١٦٥ الأوامر الشريفة، والمراسيم السامية المتينة نتلقاه بالقبول والامتثال، ونسلك بموجبه في الحال، إلا في هذا الأمر الفظيع، فإننا لا نسمع ولا نطيع، لأنه كما لا يخفى على معاليك أن جماعة الممالك هم مواد الظلم والفساد في هذه البلاد، وقد أهلكوا بجورهم العباد، فلا يوجد بينهم من يصلح للرياسة، ولا من يعتمد عليه في الأحكام والسياسة، ثم أخذوا يثنون على محمد علي ويطنبون، ويصفونه بحسن الشئائل ويسهبون، وأنهم لا يقبلون والياً غيره على الإطلاق، نظراً لما فيه من اللياقة والاستحقاق، ومحاسن الشيم ومكارم الأخلاق.

١٥ فلما رأى شدة ميلهم / ١٧٠ إليه، واعتمادهم دون غيره عليه أجابهم إلى مطلوبهم، ولبنى دعوتهم كمرغوبهم، وأنهى فيه إلى الباب العالي، حسب التماس الأهالي، فصدرت الأوامر السنية، والإرادة الملوكية الشاهانية، من ديوان القسطنطينية؛ بتقريره على ولاية المملكة المصرية، وذلك في سنة ألف ومائتين وتسع عشرة هجرية.

٢٠ ولما تمكنت دولته، وامتدت صولته، واستقرت له الولاية، وبلغ القصد والغاية، بدد دولة الممالك لراحة العباد، وسعى في إصلاح البلاد بعد ذلك الفساد، فمهد ثغورها وأمنارها، وأمن سبلها وأقطارها، وأبطل ما كان فيها من المظالم، وقمع شوكة كل باغ / ١٧٥ وظالم، وأصلح الأحكام والقضايا، وجعل التسوية بين الرعايا، ورتب فيها التعليمات العسكرية، وبنى الترسانات البحرية، والسفن الحربية، وأسس فيها المدارس والمطابع، وجدد ما كان مئدراً من

الفنون والصنائع، وصيّر لها وطن الآداب والمعارف، وكعبة تجتسّى
منها نفائس التحف واللطائف، فابتهجت بطلعته أقطار البلاد، وقرّت
به أعين العباد.

فقرّت به عين الأنام مسرة وكلّ غدا يُبدي الثّال له جَهراً
فذا رافع كفاً وذا بأسٍ يداً وذا ناشرَ حمداً وذا ساجدٌ شكرًا

وبالحقيقة أن هذا العزيز يستحق أن يُقام له تمثال من الذهب
الإبريز، لتخليد ذكره /^{١٨} في تلك الديار على ممر^(١) الدهور
والأغصار، حسبما جرت به عادة الملوك الكبار، أصحاب الشوكة
والاقتدار، الذين طار صيتهم في الأقطار، وفتحوا المدن والأمصار،
لأنه لم يكن دون الاستكندر، ولا رمسيس الأكبر في الشرف والفخر،
ورفعة المقام والاعتبار، ولا في الفضائل وكثرة الآثار، لأن هذين
الملكين، والسُلطانين العظيمين تقلداً زمام السلطنة، وحصولاً على
مزيد الفخر في تلك الأزمنة بدون أدنى تعب ولا مشقة ولا نصب،
وإنما كان ذلك الشرف يتناوله الخلف عن السلف، وأما حضرة ساكن
الجنان مُحَمَّد علي باشا - عليّ الشان - فإنه تبوأ سدة /^{١٨} هذا
المقام بما كان عنده من الحزم والإقدام، وصدق النظر في سياسة
الأحكام.

وقد ظهر مما تقدّم فضل هذا الأسد الغشّمشم الذي عاد به
للدولة المصرية شبابها، بعد أن كانت قد هرمت وقبأ بها،

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "مر".

وأخرجها من ذلك الظلام، ومَتَّعها بالأمن والسَّلام، ورتَّب أحكامها على أحسن هيئة وأكمل نظام، وجعلها من أشهر ممالك الدُّول، كما كانت في زمن الفراعنة الأول.

شعر :-

هكذا هكذا وإلا فلا	من ^(١) تسمى بمجده واستطالا
ملكٌ جلُّ في الفَخار فأمسى	للسُّلاطين قُدوة ومثالا
أصفيُّ علا على كل عال	بفعال تستغرق الأقوالا
قد دَعُوهُ العَلِيَّ فخرًا فقلنا	صدقوا إن شأنه قد تعالى
/ ودعوه مُحَمَّدًا وعليه آل	حمدٌ من كل أمة قد توالى
عرفت مصر فضله فهي تُثنى	كل يوم عليه ما الدُّهر طالا

وكان مُحِبًّا للعلماء والنبلاء، يُعزِّز الأدباء والفضلاء، يصغي إلى كلامهم، ويبالغ في احترامهم، مُغرماً بمطالعة أخبار الأوَّلين وسير الملوك والسُّلاطين، وكان قويُّ الذِّكر والمُخيلة، إذا عُرِضت له دعوى أو مسألة^(٢) لا ينساها أبداً ولو طال عليها المدى، فتح اليمن وبلاد السودان، واستولى على عرب استان، وحارب عبد الله باشا

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "من".

(٢) كذا بالأصل، والصواب "مسألة".

والي عكاً وكسره، وقبض عليه وأسره عن^(١) يد الأسد الكرار،
والبطل المغوار، الذي افتتح المدن والأمصار، وخضع له كل صنديد
وجبار، صاحب الهمة العلية، والصولة الحثيرة /^{١٩} حضرة نجله
الكريم، سمي الخليل إبراهيم كما سيأتي بيان ذلك في مكانه.

وكان مع عظمته وعلو شأنه لطيف الذات، ظريف الصفات،
متصفاً بمكارم الأخلاق، وعلو الهمة، ومعاملة الكبير والصغير
بالمكارم والرحمة، لا يُمَيِّز بين الغني والصعلوك، ولا يُحابي مع
المالك على المملوك.

ومن أخباره اللطيفة ونوادره الظرفية أنه مرَّ في بعض
الأحيان بصبيان يلعبون في بُستان، فلما رآهم وقف ينظر إليهم،
ويترجّع عليهم، فبينما هم يلعبون بعضهم مع بعض إذ وقع طربوش
أحدهم على الأرض، وكان الطربوش رثيلاً حقيراً؛ لأن الولد كان
مِسْكِيناً فقيراً، فاقترح الصبي ليتناوله /^{٢٠} فالتقطه مُحَمَّد علي
بِمِخْجَنٍ^(٢) كان في يده وتناوله، وقابل الأولاد بوجهٍ بشوش، وقال من
يشترى هذا الطربوش ؟، فأقبل الغلمان إليه وجعلوا يتزايدون عليه،
فقال الغلام لا أبيعهُ إلا بمائة دينار، ولا أنقص شيئاً عن هذا المقدار،
فالتفت إلى الولد وقال يا للعجب !!، ما هذا الطلب !!، فقال يا صاحب
المِنَّةِ الجسيمة، والمنزلة الرفيعة العظيمة، إن الطربوش الذي يكون
دلالةً مُحَمَّد علي باشا لا يكون بأقل من هذه القيمة، فعجب من خطابه

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "على يد".

(٢) المحجن : الصولجان.

وسرعة بديهته في جوابه، وقال لقد قلت حقاً ونطقت صدقاً، وأمر له بمائة دينار، وقال استعن بها على ما تختار.

ومما قيل من هذا القبيل /^{٢٠} أن رجلاً من أهل البصرة يقال له الدرويش أميني^(١) وقف أمامه مرة فأمر له بألف من الفضة يستعين بها على شأنه، فأخذها ومضى وهو مُستخفٌ بإحسانه، ثم عاد في اليوم الثاني إليه ووقف بين يديه، فأمر له بمثل ذلك القدر، فأخذه وشكر، ثم عاد في اليوم الثالث فضجر منه، وأعرض وجهه عنه، فقال الدرويش :- "أطال الله بقاءك، ورفع مجدك وسناك، إنني رجلٌ فقير ضعيف الحال حقير، قد قصدت جنابك ويممت بابك طمعاً بإحسانك ونوالك، وجزيل كرمك وأفضالك لعلمي بأنك كهفُ الفقراء وملأ الغرياء، ومحطُ الرِّحال وغيثُ النِّوال، وكعبةُ الآمال، وقد /^{٢١} ضجرت مني وانتهرتني، وأعرضت وجهك عني واختقرتني، لأنك أعطيتني خمسين غرشاً في تِرْدادي عليك نوبتين، فاجعلني مكانك وتردّد عليّ في السّاعة مرتين وأنا أعطيك كل مرة ألف غرش يتبعها بعض أمتعة من نفائس اللبس والفرش، فتبسّم ضاحكاً من هذا الكلام، وأمر له بثلاثة آلاف غرش على التّمام، فتوجّه مُنشرح البال، مُتبسط الآمال وهو يدعو له بطولِ العمر والبقاء، ودوام العز والارتقاء.

وبالجملة والتّفصيل فإنه كان من أفراد هذا الجيل ليس له شبيه ولا مثيل، أقام معامل كبيرة، وأبنية كثيرة منها المسجد الشهير والجامع الكبير، الذي بناه داخل قلعة المدينة، /^{٢١} وحلّاه بأعظم

(١) كذا بالأصل.

أنواع الزينة من نفائس الأقمشة والذخائر الثمينة التي تُذهل عيون الناظرين، وتُدْهش أذهان المتفرجين، لا سيما جنينة شُبرا، وغيرها من المنتزهات الأخرى، كالقصور الزهية المبهجة، والمباني الجميلة المُدبَّجة المزخرفة بأنواع التحسين من لطائف النقوش والتزيين، التي تُضاهي بارتفاعها الأبلق^(١)، وتُباهي غمدان^(٢) والخورنق^(٣) في النزاهة وحسن الرونق.

وكانت أيامه كالطراز المذهب، تُعدُّ من أيام الهنا والطرب، كثرة^(٤) فيها التجارة والغنى، وبلغ الناس بها غاية المنى، واتسعت دائرة المعاملات بين مصر وبقيّة الجهات، وازدحمت عليها الخلائق من المغارب والمشارق، وازداد^{٢٢} أهلها وسكانها، وارتفع قدرها ومكانها، وانتشر صيتها وشأنها، وعاد إليها شبابها القديم في أيام هذا الخديوي العظيم، بعد أن كانت عجوزاً عقيم.

(١) القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس غربي دمشق، راجع بشأنه ابن كثير : البداية والنهاية، بيروت ١٩٩٦، ١٤ : ٢٧٥.

(٢) قصر غمدان، قصر أسطوري بصنعاء، يقال أن من بناه هو يعرب بن قحطان وأن المُكَمَّل لبنائه بعده وائل بن حمير بن سبأ، بالغ القدماء في وصفه وكان قصراً مربعاً مبنية أركانه بالرخام الملون وله سقف طباق ما بين السقف إلى السقف خمسون ذراعاً وطوله في الهواء نحو ثلثمائة ذراع وفي كل ركن من أركانه تمثال أسد مجوف مفتوح الفم والمؤخر والهواء يدخل من مؤخره ويخرج من فمه فيسمع له إذا هب الهواء زئير مثل زئير الأسد، شيخ الربرة : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت ١٩٩٨، ص ٤٧.

(٣) الخورنق : قصر أسطوري بالحيرة بأرض العراق ينسب بناؤه إلى النعمان بن المنذر، راجع بشأنه الطبري : تاريخ الرسل والملوك، نشره محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٩، ٢ : ٦٥.

(٤) كذا بالأصل، والصواب "كثُرَتْ".

ومن آثاره الفخيمة، ومشرُوعاته العظيمة ذات المنافع
 الجسيمة حفر ترعة المحمودية التي كانت تدعى بالأشرفية، نسبة إلى
 الملك الأشرف المنعوت بالفضل والشرف، وكانت فيما سبق من
 الزمن المتتابع خليجاً صغيراً قليل الفوائد والمنافع، ثم تعطل على
 تَمَادَى الوقت وانردم^(١)، وصار وجُوده كالعدم، فأعاده على أحسن
 طريقة، وجعله ترعة واسعة وعميقة، بحيث تَسْلُكُ فيها السفن
 البخارية حاملة الركاب والبضائع / ٢٢٧ التجارية، وبذلك اتصلت
 القاهرة بالإسكندرية على أقرب وأسهل سبيل، بعد تلك المسافة الشاقة
 والمدى الطويل، وقد اجتمع عليها من الفعلة والخدمة أكثر من
 ثلاثماية ألف نسمة، وكان مدة حفرها نحو سنة وشهر، واكتسب بهذا
 المشروع الحميد مزيد المدح والشكر، ومن مساعيه الخيرية سدُّه
 الترعة الفرعونية التي كانت عديمة النفع، ومُضرة بأراضي الزرع،
 وكان تَتِمِّمُ هذا العمل بعيداً عن الأمل لالتزامه تحويل جانبٍ عظيم
 من النيل عن مجراه العريض الطويل، وبعد بذل الجهد، ومقاساة
 التعب والكد انسدت على أحسن أسلوب وحصل المطلوب / ٢٣ طبق
 المرغوب، جزاه الله خيراً على هذا الإحسان وجعل اسمه مُخلداً على
 مَمَر^(٢) الزَّمان.

(١) كذا بالأصل.

(٢) كذا بالأصل، ولعله أراد "مر".

**غير ظهور عبد الله بن سعود وهجومه
على مكة بالفرسان والجنود**

وكان قد ظهر في قبائل الأعراب رجل يدعى عبد الله بن سعود الوهاب، وكان من الطغاة الملحدين، لا يعتد بالأنبياء والمرسلين، إلا أنه كان أسداً هصوراً، وشجاعاً جسوراً، وبطلاً في الحروب منصوراً، وكان دأبه مبارزة الفرسان، والغزو على قبائل العُربان، وفي مدة يسيرة وبرهة قصيرة تبعه جموع كثيرة، فدوخ بلاد الحجاز، وانتصر على أهلها وفاز.

فلما كانت / ٢٣^{هـ} سنة ١٢٢٢ هجرية الموافق لسنة ١٨٠٧
مسيحية زحف بعسكر جرّار إلى نواحي مكة وتلك الديار، واعترض الحجاج والزوار، ونهب المسافرين والتجار، وعاث في الأماكن الشريفة، وبدل أمن الحرمين بالخيفة، وتعدّى حدود الدين، وفعل ما لا يليق بالمسلمين^(١)، فلما عمّ الناس شره وضرره، وبلغ محمد علي باشا خبره جهز ولده طوسون باشا لقتاله، وتفريق جموعه وأبطاله، فسار بالعساكر المصرية إلى الديار الحجازية، وقاتل العرب الوهابية، وجرى بينه وبينهم حروب عديدة، ووقائع هائلة شديدة.

(١) واقع الأمر أن عبد الله بن سعود الوهاب لم يمنع الحاج من أداء الفريضة وإنما طلب من أمير الحاج عبد الله باشا ألا يأتي إلى مكة ومعه المحمل وما يصحبه من طيل وزمر وغيره مما يخالف الشرع، لكن عبد الله باشا لم يستجب لتلك الشروط وعاد أنراجه بالحجيج دون تأدية الفريضة، انظر: عجائب الآثار ٤ : ٨٣.

ولما طال القتال، واشتد الحال التزم مُحَمَّد علي باشا - ليث الطراد - أن يركب /^{٢٤} بنفسه إلى تلك البلاد، فشمّر عن ساعد الجد والاجتهاد ليغتتم ثواب هذا الجهاد، وتدرّع بدرع الله العزيز الجبار، وسار إلى تلك الديار بهمة عليّة، وعزيمة قوية، لو صدم بها جَبلاً لتزعزع وانصدع، أو صرف الزمان لاغتراه الجزع.

وسار بهمة يطوي الفيافي ليردع كل جَبّار عنيد
وأرسل رُسله قبل التلاقي فما انتصحووا لإنذار^(١) الوعيد
فبادر منزل الأعداء صُبحاً بفرسان أشد من الأسود
بفرسان يرون القتل مجداً كأن قلوبهم صَلد الحديد

فحارب طوائف العرب وقهرها، ومزق جموعها وكسرها، وقبض على عبد الله بن سَعُود، وأرسله إلى الأستانة بالأغلال والقيود، ثم رجع إلى مصر بالعز /^{٢٤} والنصر بعدما نشر راية العدل والإنصاف في تلك النواحي والأطراف، بعد ذلك الجور والاعتساف.

في وصف تجلّه الحكيم، سمي الخليل إبراهيم

ومن تمام سعده، وإقبال عزّه ومجده أن الله رزقه أولاداً كراماً لم ترمق الألباظ أشخاصاً تضاهيهم رفعةً ومقاماً، وشجاعةً

(١) كذا بالأصل، والصواب "الإنذار".

وإقداماً، وآداباً وكمالاً، وسعادة وإقبالاً، وحُسنًا وجمالاً، وسماحةً وإفضالاً، وحزماً وعزماً، وفهماً وحلماً، ولطافةً ووداعةً، وفصاحةً وبراعةً، منهم إبراهيم - وهو أكبرهم - وطُوسُون وسعيد وإسماعيل وحُسين وحليم ومُحمد علي وهو أصغرهم^(١).

وكان إبراهيم أعظمهم، /^{٢٠} وأشهرهم وأشجعهم وأقدرهم، ولد في مدينة قُوالَة بعد زواج أبيه بستنتين^(٢)، وكان متوسط القوام

(١) كان إبراهيم باشا ابن محمد علي الأكبر وإلى جانب إبراهيم أنجب للبasha من زوجته الأولى أمينة هانم ولده طوسون باشا وإسماعيل كامل باشا والأميرة توحيد هانم التي تزوجت من محرم بك قائد اسطوله، والأميرة نازلي هانم التي تزوجت من احمد بك اللدفتردار، أما جواريه فقد استولد إحداهن وتدعى أم نعمان بولد وحيد منها هو نعمان بك، وجاريته عين الحياة قادين هانم ولده محمد سعيد - هو نفسه سعيد باشا الذي تولى للخديوية فيما بعد - وجاريته ممتاز قادين ولده الأمير حسين بك، وجاريته ماهوش قادين ولده الأمير علي صديق بك، وجاريته نام شاز قادين ولده الأمير محمد عبد الحليم بك، وجاريته زينة خديجة قادين وأنجب منها ولده محمد علي باشا للمقلب بالصغير وجاريته شمس صفا قادين هانم وأنجب منها ابنتاه الأميرة فاطمة والأميرة رقية، وجاريته شمع نور قادين وأنجب منها ابنته الأميرة زينب، وكان له عدة جوارى آخر لم ينجبن له كناية قادين هانم، جلفدان قادين وقمر قادين هانم، إلياس الايوبى : محمد علي، ص ١٦.

(٢) هناك رواية مفادها أن إبراهيم لم يكن ابناً حقيقياً لمحمد علي بل كان ابن زوجته الأولى وربيبه وولده بالتبني، انظر :- مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا " نشرة أحمد غسان سبانو، دمشق (د.ت) ص ١٢، والأصل في هذه الشائعات هو أن محمد علي كان ينوي جعل طوسون ولده الأصغر للرجل الثاني بعده، فعينه حاكماً للقلمة منذ لليوم الأول لوصوله إلى مصر، متجاهلاً بذلك الأحقية المنطقية لولده الأكبر إبراهيم في ذلك المنصب، وهو ما جعل ذهن البعض ينصرف إلى أن إبراهيم لم يكن ابناً حقيقياً لمحمد علي.

مُمْتَلئُ البدن أشهل العينين مُسْتَطِيلُ الوجه والأنف، يُعد في الرجال
بألف، أجشُ الصُّوت لا يهاب الموت، وقد ذكرت ترجمته في كتابي
"البدر السَّافر في أعيان القرن الحاضر فَقُلْتُ فيه :-

"هو صدر الوزراء الأماجد، وجرثومة الفضائل والمحامد،
صاحب الرُتبة العليا، وأحد أفراد الدنيا، عزيز مصر ووزيرها،
وقائد جُودها، ومُشيرها، الوارث المَجْد عن آبائه الكرام، الذين زهت
بذكرهم الليلي والأَيَّام، من يقول لسان الحال في شأنه / ٢٥^٢ وعُلُو
قَدْره ورفعة مكانه:-

أسدُ الهيجاء ضِرْعَامُ الوغَى فرغُ أصل قد تسامى في العُلَى
قاصمُ الأعداء مَن قاصٍ ودان عزّه يكسو العدا ثوبَ الهوان

لو رآه الإسكندر لاقتفى أثره في وضع التَّنْظِيمات السِّياسية،
أو رمسيس الأكبر لفضَّلَهُ على نفسه بالشُّجاعة والفُروسية، كيف لا
وهو فخرُ الموالى، وتاج هام المَعالي، الذي اعتَدَل به الزُّمن، وسكَّنت
بأَيَّام دولته الفتن، وافتتَح المُدن والبُلدان، ونثر بصليل حُسامه كتائب
الفرسان.

كان رجلاً مهيباً، وسيِّداً حازماً نجيباً، أشدُّ النَّاسِ باساً،
وأصعبهم مِراساً، وأثبَّتْهم فُؤاداً، وأعظمهم إقْداماً واجْتِهاداً، / ٢٦^٣ عالي
الهمة، مشهوراً بالفِراسة والحكمة، مُؤيِّداً في حُرُوبه ومغازيه،
منصُوراً في وقائعهِ ومِراميه، شديد الصَّلابة على الأسقار، لا يُبالي
بالمَشَقَّات والأخطار، وكان مُحِباً لعسكِرِهِ، لا يُمَيِّزُ ذاته عنهم، جاعلاً
نفسه في الأسقار والحروب كواحد منهم، فكانوا يخضعون له تعظيماً
لمقامه واعتباراً، ويبذلون أنفسهم قُدَّامه طوعاً واختياراً.

وكان أبوه يُحِبُّه ويميل إليه، ويُعَوِّل في أمره عليه، ويُقَلِّده أعظم المَهْمَات، ومُباشرة الحروب والغارات، لعلمه بحزمه، وشدة بأسه وعزمه، فما سار في أمر إلا انتصر، ولا قصد حرب قوم إلا ظفر، وغنم وأسّر وبلغ القصد والوطر.

٥ / ^{٢٦} في مسير إبراهيم باشا بالأساطير المصرية لافتتاح الديار الشامية

وكان قد حدث في تلك الأيام بين مُحَمَّد علي باشا وبين عبد الله باشا والي عكا نفورٌ وخِصام، وكان عبد الله المذكور لا يُرْكَن إليه في أمرٍ من الأمور، شديد الطمع، عديم الوفاء، ذميم الأخلاق، متقلبُ الآراء، لا يحفظُ وُدًّا، ولا يَرعى عهداً، ولا يثبت على حال، ولا يصدق إذا قال، عاكفاً على الملاهي واللذات، مشغوفاً بسماع الأغاني والأصوات.

وكان أبوه من ممالك أحمد باشا الجزائر^(١)، يُقال له علي أغا الخزندار، فسأعنته يد العناية حتى تمكَّن من الولاية، / ^{٢٧} وطابت له الأيام، وبلغ القصد والمَرام، وكان دأبه الاهتمام، بإقامة العمار،

(١) أحمد باشا الجزائر (ت ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م) أحد أشهر من تولى باشوية عكا في العصر العثماني بل ربما أشهرهم على الإطلاق، أصله من بلاد البشناق وكان مملوكاً لعللي باشا حكيم أوغلي ثم سافر إلى مصر وخدم عبد الله بك تابع علي بك بلوط قبان، ثم تقلد كمشوقية البحيرة، ثم قلده حسن باشا الجزائري باشوية عكا فعمر أسوارها وأخذ في تحصينها وأسرف في شراء المماليك حتى قويت شوكته، وذاع صيته وازدادت مكانته بعد ثباته أمام جيش نابليون الذي حاصر عكا قرابة للشهرين ولم يظفر منها بطائل فظهر بمظهر البطل حتى قال فيه الجبرتي "ولو لم يكن له من المناقب إلا استظهاره على الفرسان في ثباته في محاربتهم له أكثر من شهرين لم يغفل فيها لحظة لكفاه" عجائب الآثار ٣ : ٤٧.

وتحصين عكا بالأبراج والأسوار، وجمع الأموال من جميع الأقطار، وكان قد استولى عليه الطيش، واستخفَّ البطرُ وطيب العيش، حتى حاد عن الطريق المحمود، وتجاوز في الأحكام الحدود، وأشهر العصيان على الدولة ذات الشوكة والصولة؛ أملاً بالاستقلال، وطمعاً في الأموال.

ولما بلغ مسامع حضرة ساكن الجنان السلطان مخمود خان ما هو عليه من الهذيان والتمرد والعصيان وارتكاب الظلم والعدوان؛ غضب من سوء فعالة، وأرسل عسكرياً لقتاله، تحت راية البطل الهمام، والصارم الصمصام درويش /^{٢٧} باشا والي دمشق الشام، فحاصره زمناً طويلاً، وأذاقه عذاباً وبيلاً، ولما اشتد عليه القتال، وأحاطت به الأهوال، وانقطع عنه الإمداد من سائر البلاد، صحا من غفلته، واستفاق من سكرته، وداخله الخوف والفرع، واضطرب فؤاده من الهلع، وأيقن أنه إذا طالَّت عليه تلك الحالة؛ يؤخذ أسيراً لامحالة، فابتدر بالعجل لاستدعاء الأمير بشير^(١) حاكم الجبل، وكان

(١) الأمير بشير شهاب الثاني، أحد أمراء آل شهاب الذين تولوا حكم جبل لبنان والبقاع في العصر العثماني، منحه إبراهيم باشا الحكم على الجبل بغير استيلاءه عليه، وفكر محمد علي في إسناد حكم الشام بأكملها له بعد أن شكاه إبراهيم باشا لوالده نقل العبيء الملقى على كاهله جراء جمعه بين القيادة العسكرية للجيش وبين الإدارة المدنية للبلاد إلا أن الأمير اعتذر وقلع بحكم الجبل فحسب فأناط تلك المهمة بمحمد شريف باشا وأعطى لسليمان باشا الفرنسي ومحمود نامي بك الجركسي الأصل إيالة طرابلس الشام ومن ثم تقلص نفوذ آل بشير كثيراً في عهد محمد علي، عن الشهادية في لبنان خلال العصر العثماني انظر:-

A. Rustum; F. Boustani: Libnan al'epoque des emirs Chihab, Bairoth 1933.

من أفراد الرّجال، موصوفاً بالفضل والكمال، وحُسن التّدبير وجميل الخِصال، ولقد أجاد من وصفه فقال :-

إلما أنت واحدٌ غير ألي لستُ أعطيكَ مَرَلَ الآحاد
فيمّا ذا يُبالغون وفهم لا يَتلفون إلا صافٍ بعد الجِهاد ؟
/ ٢٨ لك خوفٌ لو صادف العين في الحُلم لصارت تخاف طيب الرقاد
تفخر الناس بالجود ولكن انت فخرُ الآباء والأجداد

وأرسله إلى الديار المصرية؛ ليستميل له خاطر الخَضرة الخديوية لإصلاح أمره مع الدولة العليّة، وكان مُحَمَّد علي باشا له ٥
وجهة كبيرة، ومنزلة عند الدولة رفيعة خطيرة، فلبّى دعوته، وأجاب طلبته، وكتب في شأنه إلى القُسطنطينيّة، واسترضى الدولة عنه بموجب إرادة سنّيّة، ورفع عنه تلك الشدّة بعدما أقام في الحِصار مُدّة، وصار له عليه حق الجميل والإحسان على مدى السنين والأزمان.

غير أن عبد الله باشا - لشدة جوره وقلة معروفه وخيره - ١٠
كبرت نفسه بعد ذلك عليه، وجحد فضل مُحَمَّد علي باشا / ٢٨
وإحسانه إليه، وحصول العفو له على يديه، فأصدر أمراً إلى من تحت يده من الحُكّام والولاة أن لا يذكره أحدٌ من رعاياه^(١)، فلما بلغ

(١) الحقيقة أن محمد علي بعد أن لمس رفض الباب العالي القاطع لمطلبه بضم الشام إلى مصر الذي اعتبره حقاً مشروعاً بعد ما تكبده في خدمة الدولة في حرب المورة لجأ بغيث إلى إنكاء جذوة صراع جانبي مع عبد الله باشا والي عكا وأداره بمهارة شديدة واتخذ منه النكاة لادعائه أن حملته على الشام لم يقصد منها إلا تأديب عبد الله باشا فحسب لعدة أسباب اتخذ منها ذريعة لحملته على الشام كان منها: امتناع عبد الله باشا عن رد الفلاحين المصريين -

مُحمَّد علي باشا هذا الخبر استشاط غيظاً وتكثَّر، وكتب إلى حضرة السلطان يُعلمه بهذا الشأن، ويلتمس من جلالتِه خلق عبد الله باشا عن ولايته، فلم يكثرث بخطابه، ولا أجاب على كتابه، مع أنه كان من الواجب أن يُجيبه إلى طلبه ويعزل عبد الله باشا عن منصبه ؛ بالنسبة إلى خدماته^(١) الصَّادقة، وإمداداته السَّابقة؛ حيث أعانه على حرب المورة^(٢)، وبذل الأموال الكثيرة في تلك الحروب المشهورة، عندما

«الهاربين من التجديد الإجباري الذي فرضه محمد علي على المصريين، وامتناعه أيضاً عن سداد المبلغ الذي تحمله محمد علي عنه وتعهده بإنفاذه إلى السلطان نظير بقاء عبد الله باشا في ولايته وقدره محمد علي بـ ١١ مليون قرش، وكذلك منعه (أي عبد الله باشا) تصدير دودة القز إلى مصر مما أضّر كثيراً بصناعة الحرير في مصر، وأخيراً لأن عبد الله باشا لم يتخذ أي إجراء للقضاء ظاهرة تهريب البضائع إلى مصر برغم تكرر إلحاح الباشا على عبد الله باشا بشأن العمل على الحد منها، لنظر :-

Asad Rustum : the royal archives of Egypt and the origins of the Egyption Expedition to Syria (1830-1841), Beirut 1936, P 30.

السيد فرج: حروب محمد علي، القاهرة ١٩٤٢، ص ص ١٢٢، ١٢٣؛ عبد الرحمن زكي: حملة الشام الأولى والثانية، بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري لابراهيم باشا بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته، القاهرة ١٩٤٨، ص ص ٢٩٢ - ٣٠٤؛ خالد فهمي: كل رجال للباشا، ترجمة شريف يونس، القاهرة ٢٠٠١، ص ص ٦٩ - ٧٠.

(١) كذا بالأصل، والصواب لخدماته.

(٢) بلاد المورة تشمل الحدود السياسية لليونان الحالية بشكل تقريبي وكانت قد شبت الثورة بها عام ١٨٢٢ بعد نجاح إحدى الجمعيات الشوفونية السرية وتدعى جمعية فليكي هيتريا Philki Heteria في الدعوة إلى الثورة ضد الوجود العثماني في بلاد اليونان وسرعان ما وجد العثمانيون أنفسهم في موقف حرج لا سيما بعد فشلهم في القضاء على الثورة، فاصدر السلطان فرمانا بإسناد ولاية المورة إلى محمد علي بإيعاز من سفير النمسا، ولم يقدر محمد علي الهوة التي دفعه السلطان إليها حق التقدير ودفعه حبه لتوسيع رقعة دولته إلى الانغماس في تلك الحرب حتى للنخاع والتي انتهت بتدمير أسطوله بالإضافة إلى أسطول الدولة العثمانية في مواجهة مهينة في نافرين انظر :- محمد صبري : مصر من محمد علي إلى اليوم، القاهرة ١٩٢٧، ص ٦١.

أرسل ولده - أسدُ الآساد، وسيف الجهاد - إبراهيم باشا / ٢٩
بالعساكر والأجناد إلى تلك البلاد ؛ فحاض في معامعها، وقَاتَلَ في
وقائعها.

فاستعظم من الدولة ذلك الأمر بعد أن كان موعوداً منها
بإضافة ولاية سوريّة إلى أحكام مصر، فلم يعد يُمكنه الاضطبار على
ذلك الذلّ والعار، فجهّز ولده - بطل الأبطال، وليث الوغى في
النزال - إبراهيم باشا أن يسير في الحال لفتح الديار الشامية، وأردفه
بالعمارة الحربيّة انتقاماً من عبد الله باشا، ورغماً لأنفه لتستريح
الناس من ظلّمه وعسقه، وأصحابه بثلاثين ألفاً من شُجعان العسكر
الذين لا يُبالون بالخطر، بل يهجمون على الموت الأخر بقلوب
أقوى من الحجر.

شعر :-

/ ٢٩ جيش يسير النصر فوق لوائه فتهابهُ الأعداء قبل لقائه
جيش تذل له الرقاب وتتحني طوعاً وتحمي تحت ظل جوائه

وكانت العمارة البحريّة مؤلفة من ستة عشر قطعة حربيّة،
وسبعة عشر سفينة وسقيّة تحت رئاسة أسد العرين، وفخر الأماجد
المعتبرين عثمان بك نور الدين، وكان خروجه من بُوغاز الأستندريّة
في غرّة جماد الأوّل سنة ١٢٤٧ هجرية، فوصل في خمسة أيّام إلى
حيفا - إحدى أساكِل بر الشام، وأمّا القائد العام، والبطل الهمام فإنّه
سار قاصداً الديار الشامية، على طريق البريّة، وكان من جُملة

مُعاونيه عبَّاس^(١) باشا ابن أخيه، وإبراهيم باشا الصَّغير^(٢) وغيرهما
٣٠/ من القوَّاد المشاهير.

ولما بلغ عبد الله باشا هذا الخبر؛ أحاط به الخوف وانذعر،
وطار من عَيْنَيْهِ الشَّرر، ففرق الأموال وجمع الفُرسان والأبطال،
وشرع في تحصين القلع^(٣) والأسوار، واستعدَّ للقتال والجِصار،
وأرسل يستدعي من حوله من المناصب والأعيان، وكتب بخط يده
إلى الأمير بشير حاكم لبنان يستجده لهذا الأمر ويقول له أن المشايخ
[من]^(٤) بني الجرَّار وبني صَفَر وعرب السُّلُط وطُوقان وبني صَخَر
ينتظرون قُدومه إليهم ؛ ليكون رئيساً عليهم، وفي أثناء ذلك يذكِّره
بالصدّاقة القديمة والمحبة، ويثني على أمانته وحفظه المودَّة والصُّحبة
١٠ مُتمثلاً بقول الشاعر :-

٣٠/ وأنت الخالصُ الذَّهَبُ المُصَفَّى بتزكيتي ومِثلي من يزكِّي

وجعل إبراهيم باشا يواصل التسيار، ويسابق بمسيره الكوكب
السيَّار، ويفتح في طريقه المُدن والأمنصار، حتَّى أَشْرَفَ بالعساكر
المصريَّة، والجُنود الجهادية في عشرين من تشرين الثاني سنة
١٨٣١ مسيحيَّة على قلعة عكا من الجهة الجنوبيَّة، فتزلزلت بقُدومه
١٥ الدِّيار الشَّامية، وارتجت من هيئته رجةً قويَّة، وكانت عكا في تلك

(١) عباس بن طوسون بن محمد علي.

(٢) يكن إبراهيم باشا بن أحمد بن إبراهيم باشا الكبير المعروف بإبراهيم باشا الصغير.

(٣) كذا بالأصل، ولعله أراد "القلع".

(٤) زيادة اقتضاها السياق.

الأيام من أشهر مدن بر الشام، وكُرسيّ الولاية والحكّام، ذات أبراج حصينة، وقلاع متينة، وأسوار مكينة، مشحونة بالمهمّات، وآلات القتال والجَبَخانات، وفيها من رجال الحرب وفُرسان الطُعْن والضرب، /^{٣١} نحو اثني عشر ألف مقاتل، بين فارس وراجل^(١).

وكان فصل الخزين قد مضى، وانتهى وانقضى، وفصل الشتاء قد هَجَم وأتى، فنزلت العساكر والجنود في مدينة حيفا وتلك الحدود، ونصبوا المضارب والخيام، ونشروا البُود والأعلام، وفي ثاني الأيام تقدّم إبراهيم باشا في فرقة قويّة من الفرسان والطُوبجية، تتيّف عن ستّة آلاف من كل أسدٍ كاسر وبطل زخّاف، لا يهاب الموت ولا يخاف، وبنى أتراساً متينة على تلّ هناك تجاه المدينة يقال له تلّ الفخار، ووضع عليه المدافع والقنابل الكبار.

(١) كانت عكا محصنة بأسوار منيعة شاهقة الارتفاع وتحميها عدة أبراج تتوزع على شكل قوس كبير من البحر إلى البحر على رأس خليج عكا أشهرها برج النبي صالح الذي أحدث به إبراهيم باشا ثغرتة الرئيسية وبرج كريم وبرج الزاوية، والأسوار التي شيدت لحماية المدينة من جهة البحر أقلّ مثانة من تلك المواجهة للبر وذلك لأن عمق المياه في الخليج لم يكن يسمح للسفن الكبيرة بالاقتراب وبالتالي فإن الحصار البحري للمدينة لم يكن مجدياً إلا من ناحية إحكام الحصار ومنع تسرب الإمدادات للمدينة عبر منفذها البحري، وقد رمم أحمد باشا الجزار أسوار المدينة بعد جلاء الفرنسيين عنها وقام عبد الله باشا بتجديد أسوارها قبيل حصار إبراهيم باشا ومن ثم فإن هذه الأسوار كانت بحالة ممتازة وقت أن أشرف عليها المصريون في شتاء عام ١٨٣١، عن عكا واستحكاماتها الحربية قبيل حملة إبراهيم باشا راجع عمل أسد رستم :-

Notes on Akka and its Defences under Ibrahim Pasa , Beirut 1926.

وأرسل إلى عبد الله باشا يقول ضمن كتاب مع رسول أن
يُسَلِّم المدينة بطريفة أمينة ويربح /^{٣١} دم العباد وسلام البلاد،
ويبادر إلى ملتقاه، ويعتذر مما جناه، ويدخل تحت لواء الحضرة
الخدويّة، ويعيش باقي أيامه في رغدٍ ورفاهية، وعيّن له أجلاً
للحضور، وتسليم الحدود والثغور، إن تجاوزه ولم يخضع لأمره
يضرّبه بالمدافع، ويهدم البلد بأسره ويجعل كنده في نحره، وحينئذٍ
يأخذه أسيراً، ويُرسله إلى مصر ذليلاً حقيراً، ولا يعود يفيد الندم بعد
فوات الفرصة وزلة القدم، فلما وقف على كتابه، وفهم فحوى خطابه،
شقّ ذلك عليه وعظّم الأمر لديه، وحدثه عقله السقيم بعدم الطاعة
والتسليم، وتصلّب على المحاصرة والمقاومة، وأصرّ على المدافعة
والمُصادمة، ورفض أمر /^{٣٢} الصلح والمسالمة، وسعى بسوء تدبيره
على خرابه وتدميره، ولم يعلم أن أيامه قد مضت، ومُدّة أحكامه
زالت وانقضت، واستمرت بينهما المُخابرة والمُفاوضة والمُذاكرة نحو
عشرة أيام وعبد الله باشا يُحاوله بالكلام، ولا يقدر عواقب الأيام.

وكان مستر بيتر أبوت - قنصل دولة الإنكليز في بيروت -
لما بلغت هذه الأخبار سار قاصداً تلك الديار، واجتمع بإبراهيم باشا
في الخيام بعد مسير ثلاثة^(١) أيام، وأخذ يلومه بالكلام على قدومه إلى
بر الشام، بدون رخصة سنّية من الدولة العليّة بقوله له "إن هذا العمل
لا توافق عليه بقية الدول، لا سيّما الدولة الإنكليزية المتّحدة مع الدولة
العثمانيّة على حفظ الصداقة وإخلاص الطويّة"، فاغتاظ إبراهيم

(١) كذا بالأصل، والصواب "ثلاثة".

باشا وتأثر، غير أنه لم يظهر له من غيظه ما أضمر، وقال له "اعلم أيها الصديق الأكرم أنني حضرت بالعساكر الجهادية لاستخلاص الديار الشامية انتقاماً من عبد الله باشا بأمر الحضرة الخديوية، فإن كان ذلك لا يوافق دولة الإنكليز فعليها أن تخاطب به جناب والدي العزيز، فمتى أمرني بالرجوع عدلت عن هذا المشروع، وإلا فلا أرجع بدون ذلك ولو قامت علي جميع الممالك"، ثم نهض على الأثر، وتوجه قاصداً المعسكر، ولم يلتفت إلى حديث مستر أبوت وكلامه، ولا اكثرث بتعنيفه وملامه، واستمر على ما كان^{٣٣} قد قصد من ضرب الأسوار وهدم البلد.

١٠ في حصار عكا وفتح أساكل عرب استان

واستيلاء إبراهيم باشا على جبل لبنان

فلما انقضت مدة الميعاد المعهود، وفات وقت الأجل الموعود، وعبد الله باشا ما زال مُصرّاً على عدم تسليم البلد، وباقي الحدود؛ استعد إبراهيم باشا وتأهب في اليوم الرابع من شهر رجب على ضرب المدينة وهدم أبراجها الحصينة، فأصدر الأوامر إلى رؤساء الطوبجية، وقبطان باشا العمارة الخربية بإطلاق النار على الأبراج والأسوار، فقامت الحرب على قدم وساق، وارتجت جوانب الآفاق من ضرب المدافع والقنابل، وأصوات البارود الهائل،^{٣٤} وكان الضرب متصلاً من الخارج والداخل حتى كان يسمع السامع أصوات القنابل والمدافع إلى مدينة دمشق الشام على مسافة أربعة أيام.

وكان قد أرسل إلى الأمير بشير حاكم الجبل كتاباً يستدعي حضوره بالعجل، ليقرره في مركز حكومته، ويعيش في ظل نعمته، فلما وقف على هذا الخطاب داخله الخوف والاحتساب، وجمع مناصب لبنان ومن يعتمد عليهم من الأعيان واستشارهم في هذا الشأن، فاستقر رأي الجمهور على عدم التسليم والحضور، خوفاً من عواقب الأمور.

فلما أبطأ في قدومه وأصرَّ على عدم تسليمه استشاط إبراهيم باشا غضباً، وتبدلت فُرات /^{٣٤} حلمه لهباً، وكان قد صمَّم النية على أن يدمه بالعساكر النظامية، ويقبض عليه جبراً، ويستولي على لبنان قُوَّة وقهراً، ثم توقَّف وعدل عن هذا العمل، لأن أباه كان قد أوصاه به قبل خروجه من القاهرة بالعساكر الظَّافرة، نظراً لما كان [قد]^(١) وقع له عنده من التَّقرب والمودة وذلك عند زيارته الدِّيَار المصرية، وتمثله أمام الحضرة الخديوية في طلب العفو والأمان - حسبما قرَّرناه قبل الآن^(٢) - فكتب إلى والده بمصر يعلمه بهذا الأمر، فلما وقف العزيز على هذا الخبر، داخله الغيظ والكدر، وتأثَّر من مخالفة الأمير، وكتب إليه كتاباً على سبيل التَّنبيه والتَّحذير، يُعاتبه على ذلك القُصور، /^{٣٤} ويتهدده بسوء العاقبة إن تأخَّر عن

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) الإيماءة إلى ما سبق وذكره المؤلف من توسط الأمير بشير عند محمد علي في شأن مخاطبة السلطان في العفو عن عبد الله باشا، راجع ص ٦٩.

الحضور، فمن جُملة فخواه: "إن لم تحضر إلى خدمة ولدي إبراهيم باشا سريعاً، وتكون لأوامره مُنفقاً مُطيعاً، فليكن عندك يقيناً أنني سأخرب مَسَاكنك، وأغرس أرضها عنباً وتيناً، وقد بالغنا في النصيحة، وحذرنك بأقوالنا الصَّحيحة، فاستيقظ من رقادك، واخذر عاقبة عنادك، قبل أن تهجم العساكر عليك، وتأخذ ولايتك من بين يديك".

فاضطرَّب الأمير بشير من هذا التهديد والتَّذير، وأثر فيه هذا الكلام، وخاف عواقب الانتقام فصمَّم على التأهب والمسير، لخدمة إبراهيم باشا بدون تأخير، وركب من يَوْمِهِ في مائة فارس. /^{٣٥} من قومه، ولما أقبل على المعسكر خرج إلى مُلتقاه أمير آلاي العسكر، وتبعه حناً بك البحري رئيس الكتبة، ومُصطفى أغا بربر، وبعض رؤساء العساكر والجنود بالموسيقا وإطلاق البارود، فدخلوا به الأوردي^(١) بموكبٍ عظيم، ونزل في الخيمة المُعدَّة له قرب خيمة إبراهيم^(٢).

وكان إبراهيم باشا حينئذٍ يَجُول بين الجيوش والقوَّاد، ويُرتب الصُّوف والأجنَّاد، وينشطهم على الهجوم والثَّبات، والحرب قائمة

(١) الأوردي مخيم العسكر.

(٢) قارن رواية المؤرخ المجهول عن استقبال الجيش المصري للأمير شهاب، مذكرات تاريخية، ص ٤٠.

على عكا من جميع الجهات، وعند رجوعه في المساء استدعى الأمير إليه، فطُيَّب قلبه، وصفا خاطره عليه، ولاطفه بالحديث والكلام، وأجلسه معه على الطعام، وشمله باللطف والإحسان، /^{٣٥} وفوض إليه أحكام جبل لبنان، واتخذ من جملة الحواشي والأغوان، وكان قد أرسل آلياً من العساكر بالمهمات والذخائر لاستخلاص الثُغور والأساكن، تحت قيادة الليث الباسل والبطل الحاحل^(١) صاحب القدر العليّ حسن بك المنسترلي، فاستولى على صيدا وصُور وبيروت وطرابلس وباقي الثُغور.

وكانت العمارة الرابطة تجاه عكا قد تعطلت بعضها من شدة العواصف والأنواء، ووقوع الكلال^(٢) الكبار التي كانت تسقط عليها كالأمطار من الأبراج والأنوار في الليل والنهار، فأقلعت بأمر إبراهيم باشا إلى الأسكندرية في آخر كانون الثاني سنة ١٨٣٢ /^{٣٦} مسيحية.

(١) كذا بالأصل.

(٢) الكلال أو "القلل" هي قذائف المدافع.

في قدوم مُحمَّد باشا والي حلب وسرَّ عسكر^(١) بلاد العرب إلى جِمنص بأمر السلطان لاستغلال أساكل عربستان

ولما بلغ السلطان محمود خان^(٢) قدوم إبراهيم باشا إلى عربستان،
وافتحه المُدن والبُلدان، استولى عليه الغيظ والغضب، وكتب إلى
مُحمَّد باشا والي حلب يقول له من جُملة الكلام :- "اعلم أيها الوزير
الهُمام [أنه]^(٣) قد أنتهى إلينا في هذه الأيام مجيء إبراهيم باشا

(١) سرَّ عسكر أي القائد العام.

(٢) السلطان محمود خان الثاني (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م : ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) تولى
السلطنة في ظروف صعبة للغاية فمن ناحية كان قد عهد إلى الصدر الأعظم
مصطفى باشا البيرقدار مهمة إلغاء الإنكشارية وتنظيم العسكر على أساس
الجنديَّة الحديث (النظام الجديد) إلا أن الإنكشارية ما لبثوا أن ثاروا وقتلوا
الصدر الأعظم، كما تقطعت أوصال الدولة في عهده فتجددت هجمات الروس
على بلاد الدولة حتى وصلوا إلى إدنة حيث آل الأمر إلى عقد المعاهدة
المعروفة بمعاهدة إدنة والتي اعترفت فيها الدولة العثمانية بحيوية مصالح
روسيا في البحر المتوسط، وخرجت فعليا إيالة بغداد والموصل عن سلطان
الدولة بسبب عصيان سليمان باشا، كما قام الوهابيون في عهده بالاستيلاء على
الحجاز، كما ثارت بلاد المورة على حكم الدولة، ولولا جهود محمد علي
المساندة للسلطان في بادئ الأمر ما كان أحد يدري إلى أي حد قد تصل
الأمور، إلا أن جو الصفو بينه وبين محمد علي قد تبدد بسبب تجاهل السلطان
(بإيعاز من محمد خسرو باشا والي مصر الأسبق وعدو محمد علي اللدود)
لمطالب محمد علي بضم سوريا إلى مصر فاستولى محمد علي عنوة على
الشام وأعلى الأناضول.

انظر : يوسف أصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ص ١٤٤ - ١٤٨ ؛

Edward Shepherd Creasy: History of the Ottoman Turks from the
beginning of their empire, london 1856, Vol ii, PP 446 - 451.

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

بالعساكر المصريّة لفتح الديار الشّامية، والاستيلاء على ولاياتها واستخلاص أقاليمها وإيالاتها ومُدنها وباقي مَلحقاتها، واستولى /^{٣٦} على أطراف البلاد، وانقادت إليه العباد، فلذلك قد أصدّرنا الأوامر والمراسيم بتجهيز العساكر وإرسالها لتلك الأقاليم تحت راية السُّردار الأكرم حسين باشا الأفخم، فيجب عليكم أنه بوصول أمرنا هذا إليكم أن تحصنوا القلاع والمعازل والمدافع والمكاجل، وتجمعوا العساكر والجحافل، وتستخلصوا منه تلك الأساكن، قبل قدوم الجيوش المذكورة والعساكر المنصورة".

فلما وصل هذا المنشور إلى الوالي المذكور شرع في تحصين البلد بالسلاح والعدد، وجمع العساكر والجنود، وعقد الرّايات والبنود، وسار إلى حمص من غير توان، في سبعة آلاف عنان من الأرناوط^(١) والهورا^(٢)، /^{٣٧} والغربان، وحصن قلاع المدينة بالمدافع والأبنية المتينة، وأقام بفرسانه فيها، وعسكر في نواحيها منتظراً قدوم العساكر العثمانية، ومجيء حسين باشا من القسطنطينية.

وأرسل أمامه عثمان باشا اللبيب - وكان ذا بأس شديد، ورأي مُصيب - في أربعة آلاف مقاتل بين فارسٍ وراجل، لقتال العساكر المصريّة، واستخلاص المُدن البحرية، فسار بهمةً وحميةً، واستولى على اللادقية^(٣)، ثم تقدّم بعزم وثبات إلى نواحي طرابلس

(١) كذا بالأصل، والصواب "الأرناوط".

(٢) كذا بالأصل، والصواب "الهورا".

(٣) كذا بالأصل، والصواب "اللاذقية".

وتلك الجهات، فالتقاء من عساكر مصر شريفة نحو خمسمائة نسمة، وكان في مقدّمتهم الأسد الوثأب الأمير خليل ابن الأمير بشير شهاب،^{٣٧} وبمعينته ستمائة بطل من عسكر الجبل.

ولما وقعت العين على العين، اشتعلت نيران الحرب بين العسكرين، والتقت الفرسان بالفرسان، والأقران بالأقران واختلف الضراب والطعان، وسالت الدماء^(١) على أديم الصنحخان، وأخذ حده السيف والسنان، ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى تضعضعت من عثمان الأركان، فولى الأذبار، واستنجد بالفرار، ورجع بمن بقي معه من الأنفار إلى قلعة الحصن وبلاد عكار، وهو في حالة الذل والانكسار. ١٠

وحينما بلغ إبراهيم باشا هذا الخبر ومجيء محمد باشا إلى حمص بذلك العسكر - وهو إذ ذاك محاصر^{٣٨} عكاء الحصينة، وقد كاد أن يفتحها ويهدم أسوارها المتينة - تجهّز من يومه وسار في أربعة آلاف فارس كرّار، قاصداً تلك الديار، وترك عكاء تحت الحصار^(٢)، ثم عجل في السير وسابق بمسيره الطير، فأدرك عثمان ١٥

(١) كذا بالأصل.

(٢) سبق أن استخدم إبراهيم باشا ذات التكتيك في قطع الطريق على أعدائه قبل أن ينجحوا في محاصرته هو نفسه بين الجيوش القادمة وبين من كان يحاصرهم قبل وصول النجادات إليهم، ففي حرب المورة وقع إبراهيم باشا في موقف مشابه عندما نجح في إحكام طوق حصاره على نفارين "Navarin"، ثم ما لبث أن سار جيش من الثوار للجدة المدينة ورفع الحصار عنها، وخطط المهاجمون لجعل إبراهيم باشا وقواته بين المطرقة والسندان فأثر إبراهيم باشا عدم انتظار حدوث مثل هذا الموقف الحرج وبادر بتترك تشكيلات الجيش الرئيسية المزودة بالأسلحة الثقيلة تبأشر مهامها في حصار المدينة وسحب الوحدات خفيفة الحركة لمباغطة المهاجمين، انظر :-

السيد فرج : حروب محمد علي ص ٩٣؛ أحمد فهمي بيومي: حرب كريت والمورة، بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري لإبراهيم باشا، ص ٢٤٥.

باشا في أرض القصير، وكان محمد باشا قد أمده بالمُهَمَّاتِ والذُخائر، وأضاف إليه فرقة من العساكر، فناوشة الحرب، وبادره بالطعن والضرب، فقهره وكسره، وفرق جيشه وعسكره، وفر عثمان باشا من ساحة المعركة، وترك الذُخائر والمُهَمَّاتِ والأمتعة، ولجأ إلى حِمَصِ بمن سلم من جنده معه بعدما قتل من عسكره نحو ألف قتيل، ومن المصريين /^{٣٨} نفر قليل، ثم رجع إبراهيم باشا على الأثر بعدما غلب وقهر، وفاز وانتصر، وغنم وأسر، وبلغ القصد والوطر، وأتى دير القمر، وترك فيها ألف وخمسمائة نفر، وعاد إلى عكا بعد ذلك الانتصار، وشدد عليها الحصار.

وكانت لإبراهيم باشا في حصار عكا مواقف غريبة، ومشاهد مذهشة عجيبة، تدل على شدة بأسه وشجاعته، وحسن^(١) تدريبه في أبواب الحرب وبراعته، فمن ذلك ما حدثني به بعض الأعيان من أهالي عربستان ممن كان في خدمته، ومقدما بين رجال دولته، قال :-

"خرج إبراهيم باشا ذات يوم في جماعة من قواده منفرداً عن عسكره وأجناده، /^{٣٩} وقصد مكاناً يبعد عن المدينة نحو نصف ساعة، وكنت أنا من جملة الجماعة، ولما انتهينا إلى ذلك المكان نزل عن ظهر الحصان، وجلس على الرمل متكئاً على ركبتيه، فنزلنا نحن أيضاً وتمثلنا وقوفاً بين يديه، فانتزع النظارة وكشف المدينة وشاهد أسوارها المتينة، وأبراجها وقلاعها الحصينة.

(١) بالأصل "وتدريه" ثم شطبها المؤلف وعدل عنها إلى "وحسن تدريبه".

قال صاحبي : "فما كان إلا كلمة بصر حتى تبدّل صَفونا
بالكَدر من وقوع الكَلل الكبار التي كانت تسقط حولنا من الأبراج
والأسوار، فخفت من عواقب الأمور ولمت نفسي على الحضور،
وعلمت بأن الأعداء أبصرونا ووجَّهوا مدافعهم نحونا ليهلكونا، فقلت
له -وقد ضاع فكري وجرت في أمري- أدام الله /^{٣٩} إِيَّامك ونصر
أعلامك، ومكُن من رقاب الأعداء حُسامك، إن مجيئنا إلى هنا كان
غَلطاً، وجُلوسنا في هذه الأرض خطرٌ عظيم وخطأ، فقم بنا لنذهب
قبل أن يمسنّا العطب، فتبسّم ضاحكاً من مقالِي، ولم يُجبني على
سؤالي.

١٠. وكان قد طلب كبشاً مشويّاً فجيء به إلى دولته، وشوي أمام
حَضرتَه، ومازلت أكرّر عليه الكلام، وأطلب منه الإذن في ترك
المُقام إلى أن جاء الغلام بسفرة الطَّعام، فعند ذلك ألقى من يده
النظارة وهو مظهر الشُّجاعة والجسارة، وشمر على^(١) ساعده كالليث
الغشْمشَم، وأشار إليّ أن أتقدم، فتقدمت على عجل، وأنا في خوفٍ
ووجل من أصوات /^{٤٠} المدافع، ووقوع الكَلل، وإذا بكُلّة سقطت
أمامي كانت تسقيني جِمامي، فخفق قلبي وزاد خوفي ورُعبي،
فنهضت من مكاني مُرتعشاً حائراً مندهشاً، كل ذلك وهو جالس كأنه
صخرة واد، أو طود من الأطواد، غير مُبالٍ بهذه الحال، ولا خطر
له خوف ببال من جميع هذه الأحوال، وبعد أن أكل وشرب، دعا
بجواده فركب، وركبنا نحن أيضاً وتبعناه، وأنا لا أصدّق بالنَّجاة،
- ٢٠.

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "عن".

حتى ابتعدنا عن العدو، وصرنا في ساحة الأمان والهدوء، فعجبت من جسارته على الأهوال والنوائب، وعدم اكترائه بالأخطار والمصائب.

ولما بلغ إبراهيم باشا قدوم عساكر السلطان إلى حدود عربستان ؛ أرسل / ع^{١٠٠} عباس باشا إلى بعلبك في اليوم الخامس عشر من نيسان، وأصحابه بالآيين من المشاة والفرسان؛ ليقم محافظاً في ذلك المكان.

في فتح المدينة وهدم أبراجها الحصينة

وكانت الحرب على عكاء قائمة، والمدافع على أبراجها متصلة دائمة، حتى هدم أكثر حصونها وأسوارها، وسقط روائق مجدها وفخارها من وقوع الكلل والقنابل، وهجوم الأبطال والجحافل.

وكانت ^(١) سكان البلد من الشيخ إلى الولد في خوف واحتساب، وقلق واضطراب من سقوط الكلل وأصوات البارود، فكانوا يستترّون تحت العقود، واستمر / ع^{١٠١} القتال على هذا المنوال مدة سبعة شهور بلا انقطاع ولا فتور، وكان المصريون في أثناء الحصار يحفرون حفراً تحت أساسات الأسوار، ويضعون فيها البارود ويضرمونها بالنار، فتهدم ما فوقها من البنيان، وتسحق المدافع وتقتل الفرسان ^(٢).

(١) كذا بالأصل.

(٢) كان هذا التكتيك معروفاً للجيش الشرقية منذ في مهاجمة الأسوار والقلاع، لا سيما بعد أن نجح السلطان سليمان القانوني في استخدامه ببراعة في نفس أسوار رودس أثناء حصارها انظر :-
العباسي : ملح رب البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق فيصل الكندري،
حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثامنة عشرة، الكويت ١٩٩٨،
ص ١٠٧.

ولما كان يوم الجمعة الواقع في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ هجرية صمَّ إبراهيم باشا النية لقيام هجمة قويّة، لينتهي بها الحال وتكون واقعة الانفصال، فجمع أركان حربيه إليه، وأخبرهم بما قد عولَّ عليه، وأعطاهم الأوامر والإرشادات اللازمة، المتعلقة بكل واحد منهم في تلك المهاجمة، وعيّن لها اليوم الثاني من ذلك النهار، وهو السابع والعشرين /^{١١} من ذي الحجة والثامن والعشرين من آيار.

ولكن لما كان هذا الدستور الأكرم يحب توفير استباب سفك الدّم ؛ أرسل إلى عبد الله باشا سفيراً يطلب إليه - أخيراً - أن يُسلم المدينة طوعاً، ويقطع عن التشبُّث بما لا يُجديه نفعاً، قبل أن تفوته فرصة الأمان، ويقع في قبضة الأسر والهوان، وأنه غير مُنفك عن هذا الشأن ولو تحزّبت عليه جبابرة الأرض ومردة الجان، فلم يلتفت عبد الله باشا إلى هذا التحذير والتّذير، وعذّه من باب الخوف والتّقصير، وقال للسفير المذكور :- "إن مدة الحصار لم تتجاوز بعد سبعة شهور، والمدينة - من حمد الواحد الأحد - مشحونة بالسّلاح والعدد، /^{١٢} وفيها من الجيخانات والذخائر والعُلوّفات ما يكفيها خمس سنّوات، فمتى جاء الوقت المعهود، وفرغ الزّاد والبارود، وانقطع عنا الإمداد والإسعاف ننظر حينئذ في إنهاء هذا الخلاف".

فلما عاد الرسول إلى مَولاه، وبلغه جواب عبد الله تعجّب من وقاحته، وأمر من ساعته بإطلاق المدافع والقنابل على الحصون والمعاقل، فأطلقت طول ذلك الليل، وانصبت على البلد كعارض السّيل، ولما كان الصباح تأهّب العسكر للهجوم والكفاح، فقرّعت

الطُّبُول، ولمعت النُّصُول، وخفقت الرِّايات وتُفخ النُّفِير، وانقَسَمَت
الآلَايَات إلى فِرَقٍ وطَّوَابِير، وسارت العساكر كالأسود /^{٢٧}
الكواسر، بحسب صدور الأوامر التي كان أعطاها سيِّدها ومولاها
إلى القُواد، وزُعما^(١) الأجنَاد الذين عليهم الاعتماد، طالبة القلاع
والأنراج، بدون خوفٍ ولا أنزعاج، وفي مقدمتها هاتف السُّعد
والإقبال، ينشد قول من قال :-

هَيْـا بـنـا هَيْـا بـنـا	للحرب نلقى ضـ
نحنُ الأسود الكاسرة	نحن السُّيوف الباترة
هَيْـا بـنـا هَيْـا بـنـا	للحرب نلقى ضـ
بارودنا شـ	يشوي الوجـوه نـاره
وسـ	من العـدى تمكنا
هَيْـا بـنـا هَيْـا بـنـا	للحرب نلقى ضـ
/ ^{٢٨} نحن الجهاديون لا	نخشى غباراً إذ عـلا
ولم ندق في البلا صدرأ	إذا المـوت دنـا

ولم تكن إلا ساعة من النهار حتى أشرفوا على الأسوار،
واندفقوا عليها كالبحار، وكان أول من هجم بأمر إبراهيم طابوراً من
الآلای العاشر على برج كريم الكائن في الجهة الغربية من الأسوار
الشمالية، ثم أتبعه على الأثر ثلاثة طوابير أخر، تحت قيادة الشُّجاع

(١) كذا بالأصل.

الشهير إبراهيم باشا الصغير، وانعطفوا بحملاتهم أسرع من البرق على الأبراج الكائنة تجاه الشرق، وكانت أكثر هذه المواضع متقوية بكل المدافع.

وأما أسد الآساد وسيفُ الجهاد، وقائد القواد فكان سائراً على أثر العساكر، وبمعينته /^{٤٣} طابوران من الآلاي الخامس والعاشر، وكان يجول على ظهر جواده بين صفوف فرسانه وأجناده، وهو ينخيه بالكلام، وينشطهم على الهجوم والافتحام، ويعددهم بالمكافأة والإنعام، فله درهم من فرسان وأبطال، ما أشدهم في الحرب والقتال، وأثبتهم في ميدان النزال على المخاطر والأهوال!^{٤٢}.

وكان الرصاص يتناثر عليهم كالبرد من الأبراج ومتاريس البلد، وهم ثابتون ثبات الجبابة أو الأسود الكاسرة، غير مباليين بالخطر طمعاً بالنصر والظفر، وبلوغ القصد والوطر، بل كانوا يهجمون على الأسوار والحصون، بهمم وعزائم أمضى من الصوارم، وينصبون عليها السلاالم، ويتسلقون فوقها كالضراغم.

هذا /^{٤٤} ولم ينتصف النهار، حتى تمكنوا بالقوة والاقتدار على أكثر الحصون والأسوار، ونشروا عليها بيارق الانتصار، فاستولى جيش الطابور الثاني على المراكز والمباني التي في الناحية الشرقية المتصلة بأطراف الأسوار الشمالية، واستولى الطابور السادس من الآلاي الخامس على جميع الصوايح التي في جهة النبي صالح، وهكذا استولى الآلاي الثاني الاحتياطي على المتاريس الواقعة بقرب الشاطئ.

فلما رأى عبد الله باشا ذلك الهول العظيم والخطبُ الجسيم ؛
ندم على عدم الطاعة والتسليم، وعلم أن نجمه قد سقط، وعقد عزه
انحل وانفطرط، وأنه عما قريب يؤخذ أسيراً، /^{١١} ويقاد أمام عدوه
ذليلاً حقيراً بعد أن كان والياً ومُشيراً، ولكنه أظهر الصبر والجلد،
وسار بالعسكر إلى خارج البلد بقصد المدافعة والممانعة، وصد
الهجمات المتتابعة، فخاض ساحة المعركة، وجرت بينهم وقعة مهلكة
قُتل فيها من قواد المصريين وشجعانها الموصوفين الفاضل النبيل،
والسيدّ الجليل الأميرالاي إسماعيل، وبموت هذا الليث الأذرع ارتبك
جيش المصريين وتزعزع، فارتد وتأخر، وضعفت عزيمته وتقهقر.

فلما رأى إبراهيم باشا أن العسكر قد أمسى في ارتباك
وخطر، خشي من الهزيمة والانكسار بعد ذلك الفوز والاستظهار،
فتقدم نحو جنوده /^{١٥} بحرسه وهو راكب على ظهر فرسه، وجعل
يُحرّضهم على الثبات والجهاد، ويحثهم على الصبر والجلاد، ويقول
"هذا يوم الانتصار، هذا يوم الافتخار، هذا يوم بلوغ الأوطار"، فكانوا
تارة يتقدمون، وتارة يتأخرون، فعند ذلك سلّ سيقه من غمده،
وانعطف بالحملة أمام جنده واقتحم مَوَاقِب الأعداء كأنه أسد البِيداء،
فشق الصفوف والتقى بصدره الأسنة والسيوف، وأظهر بشجاعته
العجب، وفعل فعلاً تعجز عنها جبابرة العرب^(١).

(١) يقول المؤلف المجهول : "... فسحب إبراهيم باشا سيفه ورمى حاله [أي هجم]
من الصور [يقصد سور المدينة] قدام العساكر، وصاروا العساكر يرموا حالهم
وراه، وكانت ساعة مهولة واشتغل ضرب السيف حتى أفنوا جميع العساكر
الذين في عكا " مجهول : مذكرات تاريخية، ص ٤٠.

فتشجعت عزيمة العساكر بهيبة هذا الهمام الظافر، والخُسام
الباتر، وداخلتهم الحماسة والفتوة، وارتدوا على أعدائهم بنشاط وقوة،
وسدوا عليهم الطرق /^{٥٥} والطرائق، والهيوهم بضرب السيوف
والبنادق فأزاحوهم إلى ما وراء الخنادق، ثم قويت عزيمة
المحصنين، وانعطفوا بالخملة على المحاصرين، وحينئذ اختلطت
الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال، والتحم القتال واتسع المجال،
وجرى الدّم وسال، واشتد الخطب وعظمت الأهوال، وتمكنت
الصوارم في الرقاب والجماجم، والحرايب والخناجر في الصدور
والخواصر، وكان يوماً من أعظم الأيام، وساعة يشيب من هولها
رأس الغلام، لأنّ الدماء كانت تسيل كالْمَطَر، والجثث تتساقط على
الأرض كأوراق الشجر، والسهول تهتز من ضجيج الرجال،
وأصوات المدافع، حتى خيل للناظر والسامع /^{٥٦} أن الساعة
اقتربت، والسما^(١) غابت واحتجبت، والأرض ارتجّت واضطربت،
والمدينة احترقت وانقلبت، ولقد أحسن المقال وصدق فيمن وصف
عكا في ذلك اليوم وقال :-

قد قيل أن جهنماً تحت الثرى ما لي أراها فوق عكة تُضرمُ
لو لم تكن دار الشقاوة عكة ما أضرمتها بالشرار جهنمُ

واستمرت تلك المعركة والمهاجمة المتدركة من الصباح
إلى بعد العصر حتى هبت ريح النصر، وكانت قد كلّت جموع عبد
الله باشا، وانحلّ عزم نشاطها وتلاشى، وعجزت عن حماية البلد،

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "الشمس".

ولم يعد لها أدنى ثبات ولا جلد خوفاً من حُلُول البوار، ونزول الدمار، فألقوا سلاحهم /^{٤٦} وسلّموا أرواحهم، وطلبوا لأنفسهم الأمان، واختاروا الأسر والهوان.

وانصبّت العساكر المصرية كالسّباع، واندفعوا على البلد أشدّ اندفاع بقلوب لا تخشى الموت ولا ترتاع، وتسلموا باقي الأبراج والقلاع، واستولوا على مدينة عكا عتوة وقهراً بعد حصار سبعة أشهر براً وبحراً، وتسلم إبراهيم باشا زمام تدبيرها، وقبض على عبد الله باشا وزيرها وألقاه تحت الحفظ والترسيم، بعدما وبّخه على فعله الذمّيم، وسلّوكه الغير المستقيم.

وفي اليوم الثاني الواقع يوم الأحد نزل في قصر البهجة خارج البلد - وهو أحد القصور المذكورة، والمتنزهات /^{٤٧} المشهورة، ولما استقرّ في ذلك المكان خرج إليه الأكابر والأعيان وطلبوا منه الأمان ؛ فأجابهم إلى ذلك الشّان، ثم أمر بكتابة الأوامر والمراسيم إلى ولاية المّدن والأقاليم يُعلمهم بذلك الفتح والنّصر، وأنّه استولى على عكا بالقوة والقهر، فكتبت في الحين، وأرسلت إلى الولاية والمتسلمين، وهذه صُورتها :-

" بعد السّلام عليكم، المنهيّ إليكم انه لما أمس، قبل غروب الشّمس زحفت عساكرنا المصريّة الظّافرة بالقوّة والسّطوة القاهرة، واندفعوا على مدينة عكا الدفاع الأسود الكّاسرة، وبادروها بالمهاجمة، واقتحموها بالمصادمة والمقارمة، إلى /^{٤٧} أن فتحوها بقوة الحرب والثار الدّائمة، وصعدوا أسوارها

الرّفيعة، ووطئوا أبراجها المنيعّة، وغدت عساكر الأعداء
مقهورة أمام عساكرنا المنصورة".

ولما تفضّضت منهم الأركان، ورأوا ما جرى وكان رفعوا
الرّايات وطلبوا الأمان فاجبناهم إلى سؤلهم، وبلغناهم غاية
آمالهم، وعاملناهم بالرّفق والإحسان، شفقة على الأهالي
والسّكان، ورأفة بالبنات والنّسوان، والأطفال والصّبيان^(١)،
وأخرجنا عبد الله باشا وكتّخذاه وقواد عسكره وزعماءه،
واستولينا على عكّاء قهراً بأذن^(٢) الله، ولأجل إعلان هذه
البشرى حرّزناكم هذا المنشور من ديوان عسكرنا المنصور
/٤٨٠ لتعلنوا مضمونه بالشّك^(٣) والسّرور، وتواظبوا
[على]^(٤) تأدية الدّعوات الخيريّة إلى حضرة باري البرية بدوام
بقاء سعادة ولي النّعم جناب والدنا المعظم".

حرّر في ٢٨ ذى الحجة سنة ١٢٤٧

(سلاّم على إبراهيم)

(١) أباح إبراهيم باشا عكا لجنوده اثنا عشر ساعة، فلم يبق الجنود المصريون
لأهل عكا سوى ما يستترون به فحسب، أو على حد قول المؤلف المجهول
"فشلحوهم بالزلوط" مذكرات، ص ٤٨.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) عادة الشّك هي إطلاق الرصاص في الهواء إلى الأعلى ابتهاجاً واحتفالاً.

(٤) زيادة اقتضاها السياق.

وبعد ذلك استُدعي بعبد الله باشا فحضر بين يديه، وسلم عليه واعتذر إليه، وتصوّر الموت نصب عينيه، فلاطفه وطيب قلبه، وسكن رَوْعَهُ ورُعبه، وأجلسه بالقرب من خُضرتَه، وقابله بما يليق بحشمتَه، ثم أرسله إلى أبيه أسيراً ذليلاً حقيراً، وعند دخوله عليه وقع على قَدَمَيهِ مُلتَمِساً منه الرِّضَى^(١) والعفو عما مضى، فلما رأى حاله صفح عنه ورثى له /^٨،^٩ وأنزله في أحسن السرايات، وأجرى عليه ما يلزمه من العلائف والنَّفقات، فتبأشرت الناس بزوال أيامه وسُرتْ بانقراض أحكامه.

في مسير إبراهيم باشا البطل الهمام وبهجة الليالي والأيام بفرسان الكفاح وليوث الأجام لافتتاح مدينة دمشق الشام

وكان إبراهيم باشا صاحب الهمة العلية، والصولة الحديريّة قد بقى في نفسه شيء من حرب القُصير على مرّ ذكره^(٢)، فأثر ذلك عنده تأثيرات مازال يختلج بها صدره، لأنّ ما جرى عليه من دولة آل عثمان لم يكن إلا محض افتراء وعدوان، /^٩ إذ لم يكن في قصده الاعتداء على حقوق السلطان، ولا الاستيلاء على عربستان، وإنما كان جُلُّ قُدومِهِ إلى الديار الشامية بالعساكر المصريّة للانتقام من عبد الله باشا المذكور لما كان بينه وبين الحضرة الخديويّة من

(١) كذا بالأصل، والصواب "الرضا".

(٢) الإمامة إلى هجوم محمد باشا والي حلب ومحاولة حصر إبراهيم بين جنوده وبين المحاصرين بعكا، راجع ص ٨٠ - ٨١، ويلاحظ أن المؤلف يتبنّى دفاع محمد علي عن موقفه في أنه ما قصد إلا تأديب عبد الله باشا وأن التوسع في الشام جاء كتداعيات لموقف الدولة المعادي ولم يكن مقصوداً في حد ذاته.

الخلاف والنفور، فما لبثت الدولة أن بادتهته^(١) بالشر والقتال على ما سؤل لها سوء الظن به واختلاف الأقوال، فاضطر إلى المدافعة عن نفسه، ودفع الرجال بالرجال، ثم لما تماذى الأمر على الشقاق، وأصرّت الدولة على عدم الوفاق، لم يجد بدأ من طرح زمامها، والثبات على حربها وصدامها.

فلما فرغ من حرب عكّاء تجهّز لأخذ دمشق الشام، ونهض^{٩٩} في سبعة آلاف بطل هُمام، وسار معه الأمير بشير حاكم لبنان في ألف وخمسمائة عنان، فوصل إليها في اليوم الخامس عشر من شهر خَزيران سنة ١٢٤٨ هجرية، الموافقة لسنة ١٨٣٢ مسيحية، وكان الوالي يومئذ على البلد رجل يقال له علي باشا الأسعد، فلما بلغه قدوم هذا الأسد اضطرب فؤاده وارْتعد، فاستعدّ للقائه، وخرج بالعساكر لمُلتقاه، فالتقاه المصريون بقلوب قوية، ونفوس مُعترّزة، وثارَت بينهم الحرب بالقرب من داريا والمزة، فاقتتلوا في تلك الأرض والتحموا بعضهم مع بعض، ولم تكن إلا جولة حتى انكسر عسكر الدولة^(٢)، فولّى وطلب الهرب^{١٠٠} وتفرّق جمعه وأنقلب، واغتنم على باشا الهزيمة فنجأ بنفسه إلى حمص في حالة ذميمة، ولم تتفعه همّة ولا عزيمة.

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "بدأته".

(٢) يعطي المؤلف المجهول وصفاً طريفاً لما حدث صبيحة المعركة بين عسكر دمشق وبين عسكر إبراهيم باشا منها أن حامية دمشق لما أشرفت على جند مصر وعلى عددهم وآلاياتهم تقطعت قلوبهم من الخوف، وأن إبراهيم باشا أدرك هذا بفطنته فأعطى الأوامر لجنده بأن "يقصّوا بالعالي" (أي يطلقوا النيران إلى أعلى) لئلا يصيبوا أحداً من أهل المدينة الذين سارعوا بالفرار على الفور، مذكرات ص ٤٩.

وبلغ إبراهيم باشا ببأسه الشديد ما كان يشتهي ويريد، ودخل إلى البلد بالنصر والتأييد، فامتلكها ونزل في دار السرايا، وانقادت لأمره جميع الرعايا، فعامل الناس بلطفه المعهود، واستمال نفوسهم إليه بالعدل والجود، فاستتارت بقدومه المدينة، وتزينت أسواقها بأحسن الزينة، وصفت طرباً أنهارها السبعة، وأصبحت جبهتها بتشريفه مباركة الطلعة.

حاكت غلاه بدور الأفق وابتته — جت به الأهالي وقد قرئت به نظرا
وازداد حسن دمشق الشام واكتسب — بت فخراً بمقدمه إذ جاء منتصرا
٥٠/ وصفت طرباً أنهارها وغدا داعي الثعاني بها يعتز مقتخرا

في وصول حسين باشا إلى عربستان وانهزامه في موقعي جنص وبيسلان

وكانت العساكر العثمانية التي خرجت من القسطنطينية تحت قيادة السردار الأكرم حسين باشا الأفخم - الذي سبق ذكره فيما تقدم - قد أقبلت في تلك الأيام إلى أطراف بر الشام، وكانت ستين ألف مقاتل، بين فارس وراجل، منها خمسة وأربعون ألفاً من العساكر المنتظمة، وخمسة عشر ألفاً من الأتباع والخدمة، ومعها من المدافع نحو مائة وستين، وبمعيتها جماعة من ضباط الأوربيين، هذا عدا عن العساكر / ٥١ الاحتياطية، التي حضرت بالعمارة الحربية من أزميز^(١) إلى شطوط قرمان، حتى إذا دعت الحاجة تأتي إلى عربستان.

(١) أزميز "Azmir" إحدى أكبر المدن التركية تقع على الشاطئ الشرقي لبحر إيجه إلى الجنوب من منيسا "Manisa".

وكان حُسين باشا المرقوم قبل وصوله إلى أنطاكية وتلك
التَّخُوم [قد]^(١) أرسل أمامه طليعة من العساكر إلى حمص بالمهمَّات
والذُّخائر تحت قيادة البطل المغوار مُحَمَّد باشا البيرقدار، وعند
وصوله إليها عسكر بجنده حواليتها، واجتمع بمن هُناك من باشاوات
الأتراك الذين كانوا بالانتظار لذلك الجيش الجرَّار، وأعلمهم بقُدوم
السُّردار إلى تلك الديار بالعساكر الظَّافرة، والجُيُوش المُتكَاثرة،
فانشَرحت صدُورهم وتشدَّدت ظُهُورهم ؛ لأنَّهُم كانوا في خوف / ٥١٥
عظيم من حرب إبراهيم.

ولما بلغ إيزاهيم باشا - القائد العام - قُدُوم هذا الجيش
اللِّهَام^(٢) - وهو في دمشق الشَّام - استعدَّ لاستِقْباله وحربه وقتاله،
وتفريق جمُوعه وأبطاله ؛ فجهَّز المهمَّات والمدافع، ورتب الكتائب
والطلَّانغ، وكتب إلى عبَّاس باشا في الحال يأمره أن يقدِّم من بعلبَك
بالعساكر والأبطال، ويجدُّ في السَّير ويُوافيه إلى قرية القصير.

وكتب أيضاً إلى طرابُلُس الشَّام يأمر حسن بك المنسترلي
بسرعة القيام، وأن يُلَاقيه بباقي الجنُود إلى المكان المعهود، ثم سار
هو على الأثر بمن معه من العسكر قاصداً تلك الكورة، فوصل إليها
في سابع تمُوز من السنة / ١٢٠٢ المذكورة، فالتقى بهما في ذلك المكان
وبمعيتِّهما الرجال والفرسان، فأخذوا يتفاوضون ويتذكرون على ما
هم عليه عازمون، وهل ينتظرون الأعداء في تلك البيداء أم يبادرون

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) كذا بالأصل.

إليهم قبل أن يُشرفوا عليهم؟، فاستقرَّ الرأي على السَّير قبل وصول العدو إلى القصير، وكان بينهم وبين جِمنص نصف مرحلة، فباتوا في تلك المنزلة، ولما أصبح الصُّباح، وسَطَعَ نُوره ولاح، اصنطفت المواكب وترتَّبت الكتائب، وانتشرت البَّيارق ونُفِخ النُّفِير، وجَدَّت العساكر بالمسير قاطعة تلك السُّهول الدَّعص^(١)، قاصدة مدينة حمص.

وكان مُحَمَّد باشا والي حلب ومن معه من الباشوات ذوي المناصب والرتب لما بلغهم قدوم إبراهيم باشا /^{٥٢} إليهم، وأنه عمَّا قريب يُشرف عليهم، تاهبوا للحرب واستعدوا للطعن والضرب، ولما اقترب المصريون من المدينة، ولاحت عن بُعد قلاعها الحصينة، أبصروا جيوش الأعداء تَمُوج في تلك السُّهول والمروج، فأصدر إبراهيم باشا الأوامر بترتيب صفوف العساكر، فاصطفت وترتَّبت، واستعدَّت وتأهَّبت.

وتقدَّمت فرقة من عرب الهَنادي طالبةً عسكر الأعداء، فاقتتلَّت مع طليعة الأتراك، وأخذت معها في الصُّدام والعِراك، فاستظهرت عليها غاية الاستِظْهَار، وقتلت منها جُملة أنفار، ثم انكشفت الأعلام والبُود، وظهرت العساكر والجنود وهي مَقبلة للقتال على قدم الاستعجال، وكانت طوابيرها مُنقسمة إلى أربعة صفوف مُنتظمة /^{٥٣} ومرتبّة على هيئة حسنة بين قلب وميسرة وميمنة، أمَّا

(١) الدعص هي التلال والغرود الرملية.

القلب فكان مُواجهاً من أمام لطريق دمشق الشام، وأما الميمنة فكانت مُنتشرة في ذلك البرِّ الأفقر ومُحاذية لنهر العاصي من الجانب الأيسر، وأما الميسرة فكانت مُستندة لمزرعة على مسافة قريبة من النهر المذكور لئلا تمنع الأعداء من الهجوم والعبور، وهي مؤلفة من ثلاث آيات من ذوي الشجاعة والثبات، أحدها من الرجال، واثنان من الخيالة، وأكثرها من الباش بزق^(١) والأخلاق المتجمعة، ومن ورائها فرقان لحفظ الذخائر والأمتعة، وكلها عشرون ألفاً من عساكر نظامية وأرناوط^(٢) وهوارا^(٣) ودالاتية^(٤)، ومعها أربعون مدفعاً بين كبير وصغير، وكان ضباطها من الوزراء المشاهير الذين اشتهروا بين الناس بالشجاعة وقوة البأس كمحمد باشا البيرقدار، وباكرا باشا الخزندار، ومحمد باشا والي حلب، وغيرهم من الباشوات أصحاب المناصب والرتب.

(١) الباش بزق هم الجنود الأخلاط أو المرتزقة، وأصل كلمة بزق بالتركية تعني الرجل اللقيم، أو الرجل المنقاد ولا إرادة له، انظر أثير الدين الاندلسي: الإدراك للسان الأتراك، ص ٣٠، ولا تزال الكلمة عينا تستخدم في عامية أهل الشام بمعنى "طرطور".

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل.

(٤) للدالاتية أو الأدلاء فرق من الفرسان كانت تعمل في مقدمة الجيوش العثمانية كطلانغ واستكشاف، وكانوا يختارون بعناية من الجند الذين يتميزون بالجسارة والإقدام وربما لهذا السبب تحرف اسمهم من الأدلاء بالتركية إلى للدالاتية وهي لفظة تركية تعني المجانين، انظر :-

احمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة

١٩٧٩، ص ص ١٠٤ - ١٠٦.

وأما العساكر المصرية فكانت مؤلفة من سبعة عشر ألفاً، وأربعة وأربعين مدفعاً من أجزاء مختلفة، ومُنقَسمة إلى ثلاثة أقسام على أحسن ترتيب وأكمل نظام، وكان القسم الأول في مقدمة الجُحفل وهو مؤلف من الآلاي الثاني عشر والثالث عشر والثامن عشر من الرِجالة، ومُستند من اليمين واليسار بالآلاي الثاني والخامس من الخيالة، وأما القسم الثاني فكان مؤلفاً من ثلاث آليات وهم آلاي الحرس والآلاي الخامس والحادي عشر من المشاة، ومُستنداً من اليمين واليسار على نحو مائة / ٥٠ خطوة بالآلاي الرابع والسابع من السباهية^(١) ذوي البسالة والسُطوة، وأما القسم الثالث فكان جيش الاختياط وهو مؤلف من الآلاي الثامن من المشاة ومُستنداً من اليمين واليسار بالآلاي الثالث والسادس من الخيالة ذوي الثبات والنشاط، وعلى جناحي هذا القسم من اليمين والشمال كانت عساكر الجبل والبدو مُتهيئة للقتال.

ولما تدانى العسكران، وتقابل الجيشان، أمر إبراهيم باشا فارس الميدان الآلاي الثاني والثالث والرابع من الفرسان أن يبرزوا إلى ساحة الهيجاء، ويهاجموا الجانب الأيسر من عسكر الأغذاء، بحيث تُصلى نيران الحرب من اليسار واليمين والقلب، فأجابوا أمره

(١) السباهية هم إحدى فرق الفرسان بالجيش العثمانية، كان يتم إقطاع السباهية الأراضي زمن المسلم مقابل تقديم خدمات ذات طابع عسكري للدولة في حالة الحرب، وكان يتم التنظيم فيما بينهم بحيث كان ينوب عن كل عشرة سباهية إقطاعيين في حالة الحرب سباهي واحد، للتفصيل انظر :-
عراقي يوسف: الوجود العثماني في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر دراسة وثائقية، القاهرة ١٩٩٦، ص ص ١٤ - ١٩.

بالامتنال، وفي عاجل الحال قصدوا تلك الناحية /^{٥٥} كالأسود الضارية، وانتشروا في تلك الأماكن الواقعة بين المزرعة المذكورة والجنابين، وهجموا على الأعادي هجوم الصناديد، وصدموهم بقلوب أقوى من الحديد، وأفسى من الجلاميد، وأطلقوا عليهم البواريد، ثم اقتحموا صفوفهم واخترطوا سيوفهم وحكموها في أبدانهم، فزحزحوهم عن مكانهم.

فلما رأت عساكر الأتراك المقيمة بالقرب من هناك ما أصاب أصحابها من البليّة بادرت بهمة وحمية لمهاجمة العساكر المصريّة، فالتقاهم المصريون للحال، وصدموها صدمة ترزعزع الجبال، واشتعلت بينهم نار الحرب واختلف الطعن والضرب، واشتد البلاء والكرب وهان كل أمرٍ صعب.

وعندما شاهد إبراهيم باشا /^{٥٥} تلك الحركة، وهو بالقرب من ساحة المعركة أمر أحد قوَّاد العسكر أن يسير بألف فارس على الأثر، ويقصد ذلك المكان المعهود ليعضد من له فيه من الجنود، وأسندته من اليمين بصف من الطوبخانة، ومن اليسار بالآلاي الثاني عشر من المشاة، وبفريقيّتين من الششخانة^(١)، فامتثل وسار كالسهم الطيَّار، وعند وصوله إلى هناك أنعطف على صفوف الأتراك، وأخذ

(١) المراد بالششخانة أو "الشيشخانة" هنا الفرق المسلحة بالبنادق الفرنسية مُزدوجة القوة، تجد وصفاً طريفاً لهذا الطراز من البنادق في مذكرات سرركيس نارزكيان "Sarkis Narzakian"، انظر :-

Memoirs of Sarkis Narzakian, translated by Garine Narzakian,
publishrd by Gomidas istitute, U.S.A, 1995, P 11.

معها في الشُّباك والعِراك، ففرَّقها وهزَمها، وبَدَّد شَمَلها وحطَّمها، ثم
تقدَّم باقي الجيُوش المصريَّة حتى اقتربُوا من العساكر العُثمانيَّة،
وانفصل الآلاي الحادي عشر من مُشاة العسكر وانضمَّ إلى الآلاي
السَّادس والسَّابع من الفُرسان، وقصدُوا /^{٥٥} مِمنَّة العدو من غير
هدو ولا تَوان، فعبروا النُّهر عند العَصْر، وانتشروا على شاطئه
الأيسر غير مُبالين بالخطر، أملاً بالنُّصر والظُّفر، وبلوغ القصد
والوطر، ولما رأى مُحَمَّد باشا تلك الهِجْمَة مُتَّجِهَة نحو جناحه الأيمن
عزم على دفعها، ومُلاقاة الأمر بالنَّتي هي أحسن، فأمر أحد القوَّاد أن
يتقدم بطابُورين من الأجنَّاد ويُهَاجِم عسكر المصريين من جانب
اليَمين، فبادر بالعجل وأنعطف نحوهم وحَمَل، فالتقته المصريُّون من
الجهة اليسرى، وأقاموا عليه القيامة الكُبرى.

وكان قائد هذه الموقعة وموقد نار تلك المَغْمَعَة - البطل
الهَمام والصَّارم الصَّنُصَّام، وليث الوغى في الصِّدام، من تتبَدَّد به
جيُوش العدا وتتلأشى - إبراهيم باشا، /^{٥٦} فبزل بشدَّة عزمه
المجهُود، وقوَّى بهجَماتة قُلُوب الجنُود ؛ لعلمه بأن أمر النُّصر
متوقَّف عليه، وتدبير الحَرْب راجع إليه، فله درُّه من أسدٍ كَرَّار،
وبطل قَهَّار، فإنه سَطَا سَطُوة جبار، وألقى بنفسه في مواقف الأخطار
، وفعل فعلاً تُدهش الأنصار، وتُحير العقول والأفكار، فلو رآه
الاستكندر أو رَمسيس الأكبر في ذلك اليوم المُنكَر وهو يخوض
معركة القتال، ويبري بحُسامه جَمَاجِم الأبطال [إلـ]^(١) — تعلمُ منه
فنون الحَرْب، ومواقع الطُّعن والضُّرب، أو زيد الخيل وعامر بن

(١) زيادة اقتضاها السياق.

الطفيل لاندَهْلا اندَهْاشاً، وخافا وارْتَعْشا، وقَبْلا رجله في الرُّكَّاب،
وذلاً بعد ما خَضَعَتْ لهُما الرُّؤوس والرُّقاب.

شعر :-

٥٦/ قَرَمَ تَذِيبِ العِدَى رُعباً مَهَابَةً إذا انتَضَى يوم حَرْبٍ صَارِماً ذَكَراً
قَادَ المَنَابِيا لَه جَيْشاً وَكراً عَلَى جَيْشِ الأَعَادِي بَطْعِنِ يسْبِقُ القَدْرَا

وما زالوا في قتال واشتباك حتى تَرَعَزَتْ فرقة الأتراك
من هول الصَّدَام وشِدَّة العِرَاك، فنكصَت إلى الوراء، وطلبت جوانب
الصُّحراء، فلما رأى مُحَمَّدُ باشا تلك العِبر، وأن ذلك القائد قد انكسر ؛
خاف من الهزيمة التي عاقبتها ذميمة، فأمر محمد باشا الكريتلي -
وكان من الشُّجعان - أن يتقدم بالآلئين من الفُرسان، ويقتحم مواكب
الأعداء من الجانب الأيسر، بينما يهجم هو عليهم بقلب العسكر من
الطُّرف الآخر، فيأخذوهم من الجانبين، ويحصرُوهم بين النَّارين،
فامتثل ما أمر، وحمل هو بباقي / ٥٧ الزُّمر، فأذرك إبراهيم باشا
بفراسته وذكائه حركة جيش أعدائه ؛ لأنه كان سريع الإدراك،
صادق النظر، يُبرم الرأي بسرعة تحاكي لمنح البصر، ولما علم ذلك
حول هيئة المعركة على الصورة الموافقة لدفع تلك الحركة، فأرسل
فرقة مع حسن بك المنسترلي لمقابلة مُحَمَّدُ باشا الكريتلي، وأنعطف
هو بباقي العسكر على جيش مُحَمَّدُ باشا السر عسكر.

وفي الحال التحم القتال، واتسع بين الفريقين المجال،
وارتجت الأرض من ضجيج الأبطال، وأصوات البارود التي كادت

تُرْعِزُ الجبال، فكانت ساعة تَقْشَعُرُ منها الجُود، وتشيب من هولها
الأطفال في المهود، وزلزلت الأرض فيها زلزالها، /^{٥٧} وظَهَرَت
القيامة أهوالها، وأبصرت الأبطال ما راعها وهالها، فما كُنت تَرى
إلا فُرساناً مُشْتَبِكَةً، وصُفُوفاً مُحْتَبِكَةً، ودماءً مُنْسَفَكَةً، وخيولاً غائرة،
وأعضاء مُتَنَاثرة، ورؤوساً طائرة، وما زالت المُكافحة بينهم قائمة،
ونار البارود مُتصلة دائمة نحو ثلاث ساعات من النهار، وهم في
قتال أشد من لهيب النار.

وكانت قد كَلَّتْ جُمُوعُ مُحَمَّدٍ باشا، وذهب عزمُها وتَلَاشَى،
وزادها الخوف رُعباً وارتعاشاً، فَتَقَهَّقَرَتْ فُرساها، وتزعزعت
واختل عِقْدُ نظامها، وتضعضعت وينست من بلوغ الأرب، وأيقنت
بالهلاك والعطب، ونَعَى فوق رؤوسها ناعي الويل والحرب، فلم يُعد
يُمكنها الاضطبار، /^{٥٨} ولم تجد سبيلاً لها إلا الفرار، فألقت راياتها
وبيارقها، ونكست أعلامها وسَناجقها، وانهزمت على أعقابها،
وتركت جميع أسلابها، وتفرقت في عرض الفلاة وهي لا تُصدّق
بالنَّجاة خوفاً ممّا دهاها، وقد تخضبت الأرض بدمائها، وامتلأت
بجَنَّت قَتلاها.

وتبعها المصريون على الأثر، وكلّهم تَتَساقط في أَقْفِيَّتْها
كالمطر، وكان قد قُتِلَ منها على ما قيل أوفى من ألفين قتيل، ومن
المصريين نحو مائة وخمسين، وألوى مُحَمَّدُ باشا هارباً، وللنَّجاة
طالباً قاصداً مدينة حلب الشهباء، وتبعه أَكْثَرُ القَواد والوزراء، ما عدا

مُحمَّد باشا البيرقدار، فإنه ولَّى الأذَّبار وفر طالباً حُسين باشا
السُّردار، /^{٥٨} لِيُعَلِّمه بتلك الكسرة، ويلتمس منه النجدة والنصرة،
وهو لا يُصدِّق بالنجاة خوفاً مما دهاه، ومن شدَّة ما حصل عنده من
الخوف العظيم كان كثيراً ما يقول "هي كدي أسلان إبراهيم"،
واستخوز إبراهيم باشا على مهمَّاته وذخائره، وفرَّق غنائمه على
ضباطه وعساكره، واستولى على حصن وحماة، وأقام فيها الحُكَّام
والوُلاة، وكان قد وقع في يده ألفان من الأسارى بين عسكر نظاميَّة
وأرناؤط وهوار^(١)، فأعطاهم الأمان، وعاملهم بالرفق والإحسان،
وأدخلهم بين جنوده المصريَّة، وعيَّن لكل واحد منهم جَمِكيَّة، وكتب
إلى أبيه بمصر يُخبره بهذا النصر. ١٠

وكان حُسين باشا السُّردار الأكرم /^{٥٩} قد خرج من أنطاكية
بالجيش العرمرم، طالباً حمص وحماة، وهو يُجدُّ في قطع الفلاة، وفي
أثناء الطريق بلغته تلك الأخبار، وما حلَّ بعسكره من الوبل والذُّمار،
فزاد به الغيظ والحنق، واضطرب قُواده وخفق، وتأسَّف على ما
جرى، وارتدَّ راجعاً إلى الورا ليجمع شمل العساكر القادمة، ويأخذ
لنفسه الاحتياطات اللازمة. ١٥

وما زالت العساكر في انكسارها ساعية وراء وزيرها
وسرِّدارها، وفي مقدِّمتها مُحمَّد باشا البيرقدار، وهو لا يعرف الليل

(١) كذا بالأصل.

من النهار، حتى التقى بحُسين باشا المُشار إليه فتقدّم وسلّم عليه، وتمثّل بين يديه، وحُدّثه بذكر الخبر وما حَكَم به القضا^(١) والقدر /^{٥٩} قد من انكسار جنوده، وتتكيس أعلامه وبنوده، فظهرت على وجهه علامات الغضب، وارْتَبَكَ في أمره واضْطَرَب، ومن شدّة ما اغْتَرَاه رَقَسَه برجله فألقاه على قفاه بعد أن شَتَمه وأهانَه، ونزع عنه سيّقه ونيشانَه، ثم طَرَدَه من أمامه ووَكَّل به بعض خُدّامه، فخرَج من بين يديه وهو ينفُض غبار المَوْت عن منكبيه، وحَسِبَ تلك الإهانة سعادةً له وافتخاراً، لأنّه كان قد شاهد المنيّة جهاراً.

وكان حُسين باشا لما وصل إلى الجسر الحَديد خيّم في تلك المَهامة والبيد، وهو مكان واسع الجنّبات يبعد عن أنطاكية أربع ساعات، /^{٦٠} وهناك شَمَّر ساعد العزيمة، وجمع ما تشبّث من جنوده بعد تلك الهزيمة، ثم تجهّز وارتحل وسار على عجل قاصداً مدينة حلب، وفي قلبه حر اللهب من شدّة الغيظ والغضب، فالتقى بواليتها قرب المدينة وهو في حالة حزيمة، فأعلمه مُحمّد باشا بواقعة الحال، وما أصاب عسكره من النكال، فازداد حنقاً على حنق وقلقاً على قلق، وعند وصوله إلى حلب الشهباء عقد مجلساً حربياً مع الأعيان والعلماء، وبعد جلسة طويلة ومفاوضة مُستطيلة طلب منهم أن يمدّوه بالدُّخائر والعدد، ويقدّموا له عسكراً من أبناء البلد، فلم يُوافقوه على ذلك أحد من المشايخ وأكابر /^{٦١} العُمد لأنّ نفوسهم كانت غير مائلة إليه، ولا مؤمّلة على حصول النّصر على يديه، بل كانوا يُحاولون

(١) كذا بالأصل.

الخروج من قبضة الدولة العلية، والدخول تحت طاعة الحكومة الخديوية.

فلما ينس من النجدة والمعونة عزم على المسير إلى الإسكندرونة^(١) ليقيم فيها الحواجز والقلاع، ويجعلها حصن الوقاية والدفاع، نظراً لحسن مراكزها الطبيعية، ولكونها من الأساكن البحرية، لأنه كان ينتظر ورود المدد إلى ذلك البلد، ومما يستحق الاعتبار أن هذا السردار كان قد اجتمع في ذلك النهار مع موسيو دوريكلو قنصل^(٢) فرنسًا، وكان من أشهر الناس لطفًا وأنسًا، فأخذ يُحادثه /^{٦١} بالكلام، ويسأله عن حواصل برّ الشام، وعن أسغار الحرير والحنطة والشعير، وغير ذلك من المسائل التي ليس تحتها طائل، وفي أثناء خطابه دخل عليه أحد حُجّابه وأخبره أن جواده الأشهب لم يكن يريد أن يشرب، فنظر إليه بعين الاختيار وأجابه بالفاظ دالة على الكبرياء والفخر، وقال : "دغة إنه لا يشرب إلا من ماء النيل، ولا يرتوي إلا من ذاك السلسيل"، ثم وثب قائماً على قدميه وخرج من عند القنصل^(٣) المؤمناً إليه وبات تلك الليلة في المعسكر وهو في خوف وحذر.

(١) الاسكندرونة "Iskenderun" ميناء ومدينة ساحلية تقع على شاطئ البحر المتوسط وتطل على رأس الخليج الذي يعرف باسمها، اسمها الاسكندر المقدوني ومنه اتخذت اسمها، وهي الآن على خط الحدود التركية السورية تحت السيادة التركية وإن كانت سورية لا تزال تطالب بضمها إليها.

(٢) كذا بالأصل، والصواب "قنصل".

(٣) كذا بالأصل.

وفي الغد بلغته الأخبار بقرب وصول ذلك الجبار، والليث
الباسل القهار إلى /^{١١} تلك الديار بالعساكر المصرية، والفرسان
الجهادية، فحقق قلبه وزاد خوفه ورعبه، ولم يعد يُمكنه إلا
الانصراف والرحيل من تلك الأطراف، فقسّم جيشه إلى قسمين،
وأرسله إلى الإسكندرونة على طريقين الأول سار على طريق
كلس^(١) وبيلان^(٢)، وسار هو في الثاني بباقي الجيش والفرسان قاصداً
تلك الناحية على طريق أنطاكية، وتبعه والي حلب ووالي الشام،
وجميع الباشاوات الفخام، وعند وصوله إلى الإسكندرونة وجدها
مشحونة بالذخائر والمؤونة التي كان قد أرسلها إلى ذلك المكان خليل
باشا باش قبطان في جملة سفن وسقيّة مغفرة /^{١٢} ببعض البوارج
الحربية، فأقام بجيشه فيها، وخيّم في نواحيها.

هذا ما كان من أمر السردار الأكرم، وأما إبراهيم باشا الأسد
الغشمشم؛ فإنه بعد أن انتصر وغلب، وبلغ من عدوه القصد والأرب
سار طالباً مدينة حلب على طريق تل السلطان ومعرة النعمان، وكان
وصوله إليها بالعسكر في اليوم الثامن عشر من شهر صفر سنة
١٢٤٨ هجرية، الموافقة لسبعة عشر تموز سنة ١٨٣٢ مسيحية،
وذلك بعد خروج حسين من المدينة بيومين، فاستقبله أهلها بالتفخيم
ودخلها بموكب عظيم، وكان أول من ورد إليه للتهنئة والسلام

(١) كلس "Kilis" إحدى المدن التركية، تقع على الحدود السورية التركية اليوم إلى
الشرق من جبل الكرد وجنوب عينتاب.

(٢) بيلان منطقة مرتفعات وعرة تمثل المدخل الطبيعي للأناضول، تقع إلى الجنوب
من الاسكندرونة، وبها الممر المعروف باسمها والذي سيسهب المؤلف في
وصفه لاحقاً.

قَنَاسِل^(١) الدَّوْل العِظَام، ثم /^{٦٢} جَاءَ الْقَاضِي وَالْمُقْتِي وَأَعْيَانُ الْبَلَدِ،
وَبَاقِي الْوُجُوهُ وَالْعُمَدُ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ الْمُعْتَمَدُ، فَدَخَلُوا وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَالتَّقَوَّا
أَزِمَّةَ أُمُورِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَعْطَاهُم الْأَمَانَ وَعَامَلَهُمْ بِالْحِلْمِ وَالرَّفْقِ،
وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ كَمَا أَحْسَنَ إِلَى أَهْلِ دِمَشْقَ، وَفِي أَيَّامِ قَلَائِلَ وَرَدَتْ إِلَيْهِ
الْكَتُبُ وَالرَّسَائِلُ مِنْ وِلَاةِ الْأَقْطَارِ وَحُكَّامِ الْمَدَنِ وَالْأُمَصَارِ الَّتِي فِي
تِلْكَ الْجَوَارِ يَهْنُونَ بِذَلِكَ الْإِنْتِصَارَ، وَيَلْتَمِسُونَ مِنْ حَضْرَتِهِ الدَّخُولَ
فِي حِمَى دَوْلَتِهِ.

وَبَعْدَ أَنْ نَظَّمَ أَحْكَامَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَحْسَنِ الْأَسَاسَاتِ الْمَتِينَةِ،
وَأَذْنَعَتْ لَطَاعَتَهُ جَمِيعَ الْوِلَايَاتِ الْكَائِنَةِ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ كَدْيَارِ بَكْرٍ
وَنَوَاحِيهَا وَأُورْفَا^(٢) وَمَا يَلِيهَا ؛ نَصَّبَ بِهَا الْوِلَاةَ وَالْمُتَسَلِّمِينَ مِنْ
خَوَاصِ قَوَّادِهِ الْمَشْهُورِينَ /^{٦٣} لَتَقُومَ بِأَشْغَالِهَا وَتُدِيرَ أَعْمَالَهَا، ثُمَّ
تَجَهَّزَ لِلارْتِحَالِ وَنَهَضَ بِالرِّجَالِ وَالْأَبْطَالِ لِلِقَاءِ حُسَيْنِ بَاشَا وَقِتَالِهِ،
مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ عَلَى حَرْبِهِ وَنَزَالِهِ، قَاصِدًا الْإِسْكَندَرُونَةَ مِنْ غَيْرِ تَوَانٍ
عَلَى طَرِيقِ قَرْيَةِ بَيْلَانَ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ آخَرٌ إِلَّا مِنْ ذَلِكَ
الْمَكَانِ، وَكَانَ خُرُوجُهُ مِنْ حَلَبَ بِالْعَسْكَرِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ
مِنْ صَقَرٍ، فَوَصَلَ إِلَى حَضِيضِ بَيْلَانَ بِالْجَحْتَلِ، فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ
رَبِيعِ الْأَوَّلِ، وَهِيَ قَرْيَةٌ جَمِيلَةٌ الْبُنْيَانِ، رَفِيعَةُ الْجُدُرَانِ، مَبْنِيَّةٌ عَلَى
ذُرْوَةِ جَبَلٍ شَامَخٍ، تَبْعَدُ عَنِ الْإِسْكَندَرُونَةِ نَحْوَ ثَلَاثَةِ فَرَاسَخٍ، فَتَجَمَّعَتْ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ.

(٢) أُورْفَا "Edessa" أَوْ "أُرْهَائِي" بِالْأَرْمَنِیَّةِ وَمِنْهُ اشْتَقَّ اسْمُهَا الْعَرَبِيَّ "الرَّهَا" لِاحْدَى
أَكْبَرِ مَدَنِ الْجَزِيرَةِ وَقَصْبَةِ إِمَارَةٍ عُرِفَتْ بِالْأَسْمِ نَفْسَهُ زَمَنَ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ،
وَهِيَ الْآنَ مَدِينَةٌ تُرْكِيَّةٌ تَقَعُ فِي الْوَسْطِ بَيْنَ مَارْدِیْنِ وَعَیْنَتَابَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ
خَطِّ الْحُدُودِ التُّرْكِيَّةِ السُّورِيَّةِ.

العساكر في تلك الناحية، وانتشرت في السهل الواقع شمالي طريقي
كلس وأنطاكية، وهذان /^{٦٣} الطريقان يلتقيان عند حضيض بيلان،
ومن هناك يُصبح الطريق واحد للطارق والوافد، وهو ضيق المجال
على الخيل والرجال.

وكان حسين باشا عند مروره ببيلان [قد]^(١) أقام فيها سبعة
عشر ألفاً من الرجالة والفرسان ؛ ليقطع على إبراهيم باشا منافذ
طريقها بإقامة الحواجز عند باب مضيقها، بحيث كان يستطيع بألف
مقاتل أن يدفع عشرين ألف بطل باسل بالنسبة إلى مركزها الشاهق،
ومجال ممتلكها المتضايق.

فلما أقبل إبراهيم باشا إليها وأشرف بجيشه عليها وجدها
مشحونة بالعساكر والمؤونة، فبادر إلى الحرب واستعد للطعن
والضرب، فقسم جيشه إلى عدة أقسام، /^{٦٤} وأقام كل قسم في مقام،
ورتب صفوف طوابيه مُحكمة على جيوش أعاديه، وكان قلب جيش
الأتراك ضابطاً رأس المضيق على تلٍ هناك وهو مُمتد ومُنْتَشِر على
شكل خطٍ منكسر، وموزع على ثلاثة باشاوات، ومؤلف من عدة
طوابير وآليات مُمتدة من أسفل الطريق إلى رأس المضيق، ومن
جانبه الأيمن والأيسر كانت الطوبجية وباقي العسكر.

ولمّا اختبر إبراهيم باشا مراكز الجيوش العثمانية، وعرف
حركاتهم الحربية، أمر الآلاي الثامن والثامن عشر من الرجالة،

(١) زيادة اقتضاها السياق.

وآلاي الحرس - ذوي السطوة والبسالة - أن يسيروا عن^(١) طريق
كلّس بالعجل، ويصعدوا إلى ذروة الجبل، ويهجموا على ميسرة العدو
من /^{٦١} غير توانٍ ولا هُدوء، فامتثلوا أمره السامي المطاع، وساروا
على قدم الإسراع، قاصدين أعدائهم كضواري السباع.

ثم تقدّم بعدهم على الأثر بأمر القائد الأكبر الآلاي الثالث
عشر من مشاة الحسكر تحت قيادة الشجاع المشهور، والفارس
المذكور، صاحب القدر العليّ حسن بك المنسترلي، فسار كالبرق
مُسرعاً وبمعيّته اثنا عشر مدفعاً قاصداً ساحة الهنّاء والهجوم على
مميّنة الأعداء من الجهة الثانية المعروفة بطريق أنطاكية.

- ١٠ وكان إبراهيم باشا - ليث الطراد وسيفُ الجهاد - قد أقام
عن يمين ويسار فم الواد فرقاً من خيالة الأجنّاد لتعضد العساكر إذا
ظفروا، وتردّ /^{٦٥} العدو عنهم إذا انكسروا، واستوى هو بنفسه لهم
قائداً، ومراقباً حركاتهم ومُساعداً، فلما رأت العساكر السلطانية تقدّم
الجيوش المصرية وهي صاعدة إليها، ومُشرفة عليها من اليمين
والشمال - كأنها أسود الدّحال - أطلقت عليها المدافع من الجانبين،
١٥ المُحكمة على الطريقتين المذكورين، فعند ذلك أمر إبراهيم باشا -
فارس الوقائع - بهجوم العساكر وإطلاق المدافع، فأطلقت المدافع
والبواريد، وتسابقت العساكر إلى الحَرْب بقلوب أقوى من الحديد،
فاشتبك من الجانبين القتال، واصنطدمت الرّجال بالرّجال، وارتفع
العُجاج وعظمت الأهوال، وسالت الدّماء في ميّذان النّزال، /^{٦٥}

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "على".

وماجّت الخيل بركابها كما يمّوج البّحر إذا لعبت به ريحُ الشّمال، وكانت لهم ساعة من ساعات القيامة قد امتلأت من الأهوال، وخلت من السّلامة لأن أصوات المدافع وضجيج الأبطال كان يطبق الأودية والجبال، وضرب السيوف وطعن النّصال كان يذهل العقول ويُشيب الأطفال، ومازالوا في الكفاح والجهاد والنّزال والطّراد حتّى أمسى المكان كأنه مُحاط بمائة بُركان تتقدّف منها النيران والدُخان.

وكانت من ابتداء^(١) المَوْقف نيران الفريقين غير مُنقطعة، غير أن المصريين كانوا في الحرب أكثر انتظاماً وأخف حركة، وأشدّ التحاماً، فكانت سرّعتهم في إطلاق البنادق والمدافع /^{١٦٦} تسبق وميض البرق اللّامع، وكان كل فرد منهم على التّقريب والتّعديل يقاتل أربعة من الأتراك على القليل، ومع ذلك لا يبالون بالبلاء ولا يهابون كثرة الأعداء، بل فضلوا أن يموتوا أمام قائدهم البطل على أن يرجعوا بالخيبة والفشل، واستمرّ القتال على هذا المنوال من العصر إلى بعد غروب الشّمس، وكانت قد كلّت جيوش الأتراك وقُتل منها أوفى من ألفين وخمسمائة نفس، فعند ذلك اختلّ نظامها، وترعّزعت عن المقام أقدامها، فتمزّقت صفوفها كل مُمزّق، وتشتّت شملها وتفرّق، وولّت على أدبارها نفوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ولم يُفقد من المصريين غير مائة وعشرين، /^{١٦٦} واستولى المصريون على مُهمّاتها ومدافعها وذخائرها وجبّاناتها، وباتوا في تلك الأرض ظافرين غانمين، شاكرين لله ربّ العالمين على هذا النّصر المُبين، والنّهج المُستبين.

(١) كذا بالأصل.

وعند طلوع الصُّباح أرسل إبراهيم باشا - ليثُ الكفاح - عباس باشا إلى الإسكندرونة بالعجل، في ستة آلاف بطل من خيالة النظام وعرب الهنّادي ليقتفي أثر الأعادي، ومن الأمور العجيبة والحوادث الغريبة أن حسين باشا قبل أن تصل إليه أخبار الهزيمة كان موجوداً في دار موسيو مارتيلي قنصل^(١) دولة فرانسسا^(٢) الفخيمة، فبينما هو في شرب مُدام، وسماع أصوات وأنغام إذ بلغه هذا الخبر، وما حلّ بعسكره من العبر، فاستعظم /^{٦٧} المصّاب، وخرج عن دائرة الصّواب، فألقى من يده كأس الشراب، ونهض في عاجل الحال بباقي الرّجال والأبطال، طالباً الهزيمة والفرار، خوفاً من الهلاك والدمار. ١٠

وعند وصول عباس باشا إلى البلد وجده مشحوناً بالذخائر والعدد، فبادر إليها وحجز عليها، ثم لحق من هناك بجيوش الأتراك حتى وصل إلى أدنة^(٣) وتلك الأطراف، فأسر منهم نحو ثلاثة آلاف، وعاد غانماً موفوراً، وظافراً منصوراً، وكان حسين باشا قد أسرع في الهزيمة إلى أن وصل إلى قونية بعد مشقة عظيمة، ومخاوف جسيمة، وهو في حالة الذل والخيبة بعد تلك العظمة والهيبة. ١٥

وأما إبراهيم باشا - أسد الأساد، وسيف الجهاد - فبعد أن بلغ من /^{٦٧} عدوه الأرب عاد راجعاً إلى حلب ليدبر أحوال الولاية،

(١) كذا بالأصل.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) أدنة "Adana" أو "أضنة" وترسم أيضاً "أذنة"، مدينة تقع جنوب تركيا اليوم بالقرب من رأس خليج الاسكندرونة وإلى الشرق من طرسوس.

شاكراً لله على هذه العناية، الذي قضى له بالنصر في مقدوره،
وبالعزّ والسّعد في تصاريّف أموره، وأنشد بعض شعراء العصر في
ذلك النّصر :-

من مبلّغ الأتراك أن جيوشهم كُبرت وإن خُسِنَتْهم ولّى إلى
هل يَغلب الأسد المُجرب ثعلب مهما استعان بمكره وتحيّلاً (١) ١٢

وبعد أن انتصر إبراهيم باشا في بيلان، وشاع خبر ذلك
الانتصار في عربستان، التقت العمارة المصرية بعمارة السلطان بين
رُودس وجزيرة قبرص، فصار عثمان بك نور الدين - قائد العمارة
المصرية - يطارد خليل باشا قائد العمارة العثمانية من دون أن
يُحاربه أو يُهاجمه ويضاربه، مع أنه كان / ٢٨ مأذوناً من الحضرة
الخدوية أن يضرب العمارة السلطانية، ولكنه اكتفى بحصر خليل
باشا باش قبطان في خليج مرمريس بشواطئ القرمآن. ١٠

حرب قونية (٢)

فلما بلغ الدولة العلية تقدم العساكر المصرية، وانكسار
الجيوش السلطانية اضطربت قلقاً واستشاطت غيظاً وحنقاً، فعزلت
حُسين باشا السردار الأكرم، وعيّنت رشيد باشا الصدر الأعظم ليسيّر

(١) الأبيات للشيخ أمين الجندي وسيورد المؤلف لاحقاً شطراً كبيراً من قصيدته في
مدح إبراهيم باشا، انظر ص ١٥٣.

(٢) قونية "Konia" كبرى مدن آسيا الصغرى، تقع إلى الجنوب من أنقرة، اشتق
اسمها العربي من اسمها خلال العصر الروماني والبيزنطي "Iconium" وهي
تضم قبر مولانا جلال الدين الرومي الذي تنسب إليه الطريقة المولوية.

إلى ذلك الطرف، ويستترك ما سلف قبل أن يعظم الأمر ويشد،
وينفتح عليها باب لا يسد.

وكان هذا الوزير من الأفراد المشاهير، موصوفاً بحسن
الرأي والتدبير، وموثوقاً به في التقديم /^{٦٨} والتأخير، فأخذ من يومه
في الاستعداد، وكتب إلى قواد البلاد يأمرهم بتجهيز العساكر
والأجناد، فتبادرت الجيوش إليه، وتتابع من كل جانب عليه.

هذا ما كان من أمر الدولة وأما إبراهيم باشا - صاحب
الشوكة والصولة - فإنه بعد هذا الانتصار مازال ساهراً آناء الليل
وأطراف النهار لجهة تثبيت فتوحاته في تلك الديار التي نالها بسيفه
البتار، وبينما كانت الدولة العلية منهمكة في الاستعدادات الحربية
كان هو أيضاً آخذاً في التقدم نحو القسطنطينية، وفي ١٥ ربيع الأول
و ١١ آب من السنة المذكورة، سار من حلب إلى أدنة بالعساكر
المنصورة، وكانت قد سلّمت له مع كل /^{٦٩} قضائها، فخيّم بجيشه
حول أرنجانها مُنظراً الأوامر الخديوية، وما صمّت عليه الدولة
العثمانية، إما للسلم والمصالحة، وإما للحرب والمكافحة.

وكان جناب الخديوي الأعظم بعد أن انتصرت أعلامه في
المعركتين الأخيرتين - كما تقدّم - لم يستول عليه التعاضم
والافتخار، ولم تأخذه عزّة الفوز والانتصار الذي من دأبه أن يطمح
بأصحابه إلى التّيه والكبر، والتجبر والفخر، بل كان بعكس الأمر يودّ
بتّ الخلاف، وحسم الفتن وتلافيها بالتّي هي أحسن، والافتتاع بما
فتحه سيفه البتار وساعدته عليه يد الأقدار، مع أنّه كان قادراً بعد أن

كسر جيشاً وافراً، وبدد شمله /^{٦٩} وهزمه ومزقه وحطمه أن يتقدم
مُغْتَمّاً فُرْصَةً انْتِصَارَهُ، وضعف قوة عدوه وانكساره بعد مَوْقِعَتَيْنِ
هائلتين، وهزيمتين متواليتين على افْتِتَاحِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ، والاستيلاء
على تخت السُلْطَةِ العُثْمَانِيَّةِ، ولكنه كما تقدّم الكلام كان يُؤثر الصِّلَح
والسَّلام على النِّزاع والخصام والحرب والصِّدام.

وأتفق في تلك الأيام أن الجريدة السلطانية في الأستانة العلية
قد نشرت مقالة رسمية في حقّ الحضرة الخديوية ولدها إبراهيم
باشا - صاحب المآثر السنية - مشحونة بالقذف والافتراء الكاذب،
ونسبت إليهما من الكبائر والمعائب ما تمجّد نفس السامع، وتستنكف
/^{٧٠} منه المسامع، وليس لتلك اليد البيضاء الطاهرة - التي حرّرت
ديار مصر من أيدي المماليك الفاجرة، وأعادت إليها شبابها القديم بعد
أن كانت عجوزاً عقيم - أن تصبر على ذلك التشنيع والتّذيف، وما
رُشِّقَتْ به من سهام اللّوم والتّعنيف بعد أن كانت أعلامها منشرة
ظافرة، وراياتها في قلب بلاد الدولة بأجحة النّجاح طائرة، ولم تجد
بُداً من أن تتدرّع بدرع العدالة والاستقامة، وتستترّ بخوذة الحقّ لتدفع
ما صوّب نحوها من سهام الملامة، فنشرت جريدتها المصرية في
١٧ ربيع الأوّل سنة ١٢٤٨ هجرية، الموافقة ١٣ آب سنة ١٨٣٢
مسيحية ما يأتي :-

/^{٧٠} "إننا نتعجب من تلك اليد التي سوّدت تلك الأسطر
المشحونة بالافتراء الكاذب على الحكومة المصرية الخديوية،
ذات المقاصد الخيرية لنحو الاعتقاب السلطانية، التي ظنّ
صاحبها أن كثرة الكلام ترخص البضاعة لسقط سهمه دون

الغرض، فمثلاً قال :- "أن تجريدتنا على عكّا لم تكن إلا نتيجة أحقادٍ خصوصيّة بين الحكومة الخديويّة وعبد الله باشا، وأنه بعد أن أخذنا عكّا وأسرتنا صاحبها عبد الله باشا المذكور نكون قد وصلنا إلى ما طالما صَبَّوْنَا إليه، ولكن الآن قد ظهر جلياً أن ذلك لم يكن غَايَتنا فقط".

٥

ولكن نحن نقول كما قد قلنا أنه قد أخطأ سَهَم ذلك المُفتري لأله أمرٌ معلوم، وواضح كالشمس في رابعة / ٧١^٥ التّهار ألنا قبل أن نُجرّد تجريدتنا على عكّا طلبنا أكثر من مرّة إلى الباب العالي لتلمس منه أن يخلع عبد الله باشا الذي جَحد جميل صَنيعتنا عن منصبه، وأن يُسمّي والياً آخر مكانه، وبينّا مقصدنا من هذا القَبيل بآله إن لم يُجب الباب العالي طلبنا نضطر إلى إشهار السّلاح ضد المذكور، ولكن عوضاً عن أن يُلبّي استدعائنا فما كان منه إلا أنه جعل يُحرّض عبد الله باشا مُصرّاً على الأفتراء والاستهزاء بنا تحت دعاوى عريضة سُخرية، وكل مشرّوعاتنا ومساعدتنا لدى الباب العالي ذهبت بدون أن تاتينا بنتيجة، ولم نجد من ذلك إلا أجوبة مُبهمّة، وأخيراً نقول أن الباب العالي نفسه هو الذي - بتصرفه الغير / ٧١^٥ الشرعي - حَمَلنا على أن نُجرّد جيشنا على سورِيّة، وهو الذي حَمَلنا أيضاً على أن نتقدّم أكثر فأكثر في بلاده عندما بَلَّغنا أنه أخذ في تجريد جيش قدره سِتُون ألفاً تحت قيادة حُسَيْن باشا، وبتسيير عمارة بحريّة عظيمة لكي يُوقع بنا برّاً وبحراً، فإذا نَسأل ما هو قَصْد تلك الجريدة التي لَشِرت

١٠

١٥

٢٠

تلك الجملة المشحونة بالقذف والافتراء إلا أن تفش
الجمهور بأقاويلها الكاذبة ١٢، ولكننا نقول ما أتعد ذلك عن
أن يُخيف الحكومة الخديوية المصرية.

والآن فقد اتسع الحرق على الرّاقع، ولم تعد مُداواة الجرح
من الأمور السهلة ؛ لأن صدى انتصار أسلحتنا لم يزل
يدويّ بعد في كل شعب وواد، ومن يا ترى يشكّ / ٧٢ أن
الذين أرادوا أن يضروا بالحكومة الخديوية إنما جلبوا على
هامتهم ما ذُبروه لغيرهم، وقد سقطوا في نفس الفخّ الذي
نصبوه لنا، وما أحسن قول الشاعر :-

ومن يحضر بنراً يُوقع غيره سيوقع يوماً في الذي هو حافره
قضى الله أن البغي يصرغ أهله وأن على البّاغى تدور الدوائر

هذا ولنرجع إلى موضوع كلامنا فنقول أن الحضرة الخديوية
مع ما نشرته في جريدتها الرسمية لم تتو إلا بت الخلاف والشقاق،
وعقد الصلح والوفاق، وكانت تؤمل أن فوز أسلحتها وانتصار أبطالها
يحمل الدولة [على] (١) أن تكفّ عن حربها وقتالها، ولكن الدولة بعد
موقعتي حمص وبيبلان لم تطلب عقد الصلح، أو فتح المُخابرة بهذا
الشأن، بل كانت آخذة في الاستعدادات، / ٧٢ وتجهيز العساكر
والمُهمات، طلباً لأخذ الثّار، وطمعاً في الفوز والانتصار، وأمّا
الخديويّ المُشار إليه فلمّا علم بتجهيزات الدولة، وما صمّمت عليه لم
يجد بُدّاً من مداومة القتال، وتفويض الأمر إلى حكم حدود النّصال.

(١) زيادة اقتضاها السياق.

وكانت الحكومة الخديوية قد استحصلت سنة ١٢٤٠ هجرية الموافقة لسنة ١٨٢٤ مسيحية بموجب إرادة سنية أن تضرب لها معاملة في الديار المصرية، ففي خلال هذا الاختلال والنزاع والجدال صدرت الأوامر الخديوية بإبطال المعاملة بالمصكوكات العثمانية في الديار المصرية، ولما بلغ الدولة هذا الخبر زادها كدراً على كدر.

وبينما كان الصدر الأعظم وباقي رؤساء الدوائر يناظرون تدبير /٧٣ الجيوش وتجهيز العساكر وإرسالها إلى قونية بالمهمات والذخائر كان إبراهيم باشا عالماً بتجهيزاتهم، وعارفاً بحقيقة حركاتهم، وكانت مدينة أدنة وتلك المنازل والأمكنة التي أقام فيها وعسكر في نواحيها لكي يحمي بلاد سورية من مهاجمة العساكر العثمانية لا تصلح لقيام حركة حربية بالنسبة لمراكزها الطبيعية، فأصبح مضطراً إما أن يتقهقر بالجيش والعسكر، ويستند إلى مكان آخر، أو أن يتوغل إلى قدام ويواظب على الحرب والصدام، أما رجوعه القهقري وارتداده إلى الورا لم يكن لائقاً برفيع مقامه، بعد ذلك النصر الذي ناله بحسامه، وأما توغله في تلك البيداء واقتحامه /٧٣ مواكب الأعداء وهو في عدد يسير وهم في جم غفير [ف] (١) كان أمراً مخطرأ (٢)، ولئن كان إذ ذاك منتصراً.

وإذ كان لا يسعه أن يرجع ويعود، ولا أن يقيم في تلك الحدود صمم على التقدم نحو العاصمة، وملاقاة الجيوش القادمة،

(١) زيادة اقتضاها السياق.
(٢) كذا بالأصل، ولعله أراد "خطيراً".

واستخار الله ربَّ العباد على صدق الجهاد، وكانت الحضرة الخديويَّة لما بلغها تجهيزات الدولة العليَّة الجارية في القُسطنطينيَّة، وبُقرب خروج الصُدْر الأعظم بذلك الجيش العَرَمَزَم، لم تجد بُدّاً من مداومة القتال لينتهي الحال ويرتفع النزاع والجدال، إما بالانتصار التَّام أو بالانكسار والانهِزام، فأرسلت الأوامر والمراسيم إلى ولدها إبراهيم أن يرحل من تلك البلاد، ويتقدم نحو /^{٧٤} قُونيَّة بالعساكر والأجناد، ويباشر الحرب والجلاد.

وكان جناب المُشار إليه قبل ورود هذه الأوامر عليه مُستعدّاً للحرب والقيام، والنقْدُ إلى أمام كما تقدّم الكلام، وإذا كان لا يُمكنه تخلية البلد خوفاً من سَطْوَة العدو إذا وفد ؛ أقام عبَّاس باشا فيه للمُحافظة والمُراقبة والمُلاحظة، وبعد ذلك تجهَّز وارتحل في السَّابع عشر جماد الأول قاصداً قُونيَّة على عَجَل، بعد أن أرسل جيش الباش بَزَق وبعض الفُرسان عن طريق منارة خان، وسار هو بباقي الجيوش النظاميَّة، والمُهمَّات الحربيَّة عن طريق طَرَسُوس^(١) وجبل طُورُوس^(٢).

(١) طرسوس "Tarse" أو "Tarssos" مدينة كبيرة تقع على نهر "قرة صو" وكانت قديماً تابعة لولاية قليقية "Cilicie" وخلال العصر العثماني ضمت إدارياً لأعمال ولاية اطنة "اذنة"، وينسب إليها "بولس الرسول" كما دفن فيها الخليفة المأمون عام ٢١٨هـ/٨٣٣م.

(٢) جبل طوروس سلسلة جبال عظمى تتوسط هضبة الأناضول يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها ٣٦٧٥ متراً تقريباً.

ولما بلغ طرسوس النقي بعثمان بك قائد العمارة المصرية الذي كان بعد أن طارد /^{٧٤}ظ العمارة العثمانية وحصرها في خليج مرمريس أياماً تخلّصت، ولم يبلغ منها مراماً سوى فرقاطتين وكوثر وإبريقين - فقال له ألا تعلم أن تضيق فرصة الانتصار هي عندي من أعظم الذنوب الكبار، وأنت قد قصرت في خدمتك، وتوانيت في تنفيذ أوامر ولي نعمتك، الذي منه قد تكذّرت أكثر مما لو حاربت أنت وانكسرت، وإنني لولا اعتبار حرمة ولي النعم - جناب والدي المعظم - لقطعت رأسك وأخمدت أنفاسك.

ثم أنه بعد هذا الكلام والتوبيخ والملام سار بالعساكر والجنود حتى وصل إلى قرية نمرود، فخيّم في تلك الحدود، وكان قد أرسل سرية من الجيوش النظامية فاستولت /^{٧٥}ظ على بُوغاز كولك، وهو معبرٌ عسير المسلك، وبافتتاح هذا المضيق تسهّل للمرجين الطريق، ولم يبق عليهم سوى وادٍ آخر أصعب من الأول وأغسر، فبعث إبراهيم باشا طابورين من العسكر لافتتاح ذلك المعبر تحت قيادة سليم بك حجازي، وإبراهيم أغا الجوخدار - وكانا من ذوي الشجاعة والافتدّار - ولما اقتربوا من فم الوادي النقتهم عساكر الأعادي، وكانوا نحو ثلاثة آلاف قد كمنوا في تلك الأطراف ليمنعوا المصريين عن العبور من ذلك المكان المذكور، فبادر المصريون إليهم ونزلوا نزول القضا^(١) المبرم عليهم، والهبّوهم بضرب الرصاص، وسدّوا عليهم طرق الخلاص، ولم تكن غير ساعة من الزمان /^{٧٥}ظ حتى أبلوهم بالويل والهوان، وشتّتوهم في الجبال والوديان، واستولوا على ذلك المكان.

(١) كذا بالأصل.

وبينما كان المصريون مُنتصرين في هذه الناحية كانت فرقة أخرى منهم قد انتصرت في جهة ثانية يقال لها أوغلو قشلة^(١)، انفصل فيها العدو أعظم فشلة، ولما بلغ إبراهيم باشا هذا الخبر نهض على الأثر، وسار على عجل حتى قطع ذلك الجبل فعسكر في سهل هناك كانت قد أخلته جيوش الأتراك، فاستقبله أهل تلك الديار، وولاة هاتيك الأقطار وهنؤه بذلك الفوز والانتصار، فأعطاهم الأمان، وعاملهم بالرفق والإحسان.

وفي ١٠ جمادى الآخرة و٣ تشرين الثاني توجه من قبل الدولة بالجيش العثماني دستورها / ٧٦ الأكرم محمد رشيد باشا الصدر الأعظم، فنزل المرحلة الأولى في إسكودار^(٢)، وفي الغد وجهه عساكره نحو قونية وسار، وبعد خروجه بخمسة أيام صدرت من إبراهيم باشا الأوامر والأعلام أمراً عساكره بالاستعداد والمسير إلى قونية لإقامة الحرب والطراد، فجعل عساكره قسمين، وسيرهما في طريقين مختلفين، فلما اقترب من تلك الديار اتصلت إليه الأخبار بأن أمين رءوف باشا - معاون حرب الصدر الأعظم وزعيم الجيوش التي كانت في قونية وقائدها المكرم - قد أخلى مدينة قونية، وجد في المسير قاصدا التحصن في أكشهير^(٣).

(١) أوغلو قشلة أو "أولو قشلة" إحدى المدن الصغيرة التي كانت تقع شرقي إيالة قرمان.

(٢) إسكودار "Üsküdar" الضاحية الشرقية من استانبول.

(٣) أكشهير أو أسكي شهر "Eskischir" مدينة كبيرة تقع إلى الغرب من أنقرة.

فلما علم إبراهيم باشا بهذا الخبر سبق عسكره وجدّ على الأثر فوصل إليها ليلاً في ٢٤ / و ١٧ من الشهرين المذكورين ودخلها دون حرب دخول المحارب المنصور.

وفي الغد أمر الآلأي الرابع من الفرسان وقسماً من العرب الهنادي أن يتوجّهوا مُسرّعين لمطاردة الأعادي، فجذّوا في المسير، واتبعوا الأعداء على طريق أكشهير، وفي قرب الكوين أدركوا ساقّة الأعداء، وأنزلوا بهم الويل والبلاء، فدمروهم تدميراً، وأسروا منهم نفرًا يسيراً.

وكان إبراهيم باشا حال وصوله إلى قونية نزل في دار الولاية، وأخذ بإجراء ما تقتضيه الحكمة والذراية، فأمر بتخصيص المدينة وتخويلها بالحواجر المتينة، إذ لم يكن قد أخلاها الأتراك إلا لكونها لا تصلح لإقامة الحرب والعراك، ولما وصل الصدر الأعظم إلى أكشهير وردت إليه / ٧٧^١ أوامر الدولة أن يأخذ بأحسن الحزم والتدبير، وينتهاز تلك الفرصة المناسبة لإقامة المكافحة والمحاربة، وكان إبراهيم باشا - فارس الميدان، وليث الحرب والطعان - قد وجه محمد بك بفرقة من المشاة والفرسان ليأخذ له مراكز في قيصرية، ويراقب حركة الجيوش العثمانية.

وكتب إلى إبراهيم باشا الصغير - الشجاع الشهير - أن يلبي الطلب ويخرج من حلب بفرقة من الأبطال ومشاة الرجال، ويمر بعين تاب، وينزل في شمالي مَرعش^(١) وتلك الرُحاب ؛ حيثما يكون

(١) مرعش إحدى المدن التركية الصغيرة تشكل رأس مثلث قاعدته عينتاب وأضنة ويعتقد الأتريون أنها مبنية على أطلال مدينة جرمانيسيا "Germanicia" القديمة.

أكثر موافقة للسطوة والإرهاب، وهكذا بهذه الحركة الحربيّة، وقى جناحيّ عسكره، وحفظ أيضاً قطر سوريّة، ولكن أضخى جيشه العامل عدداً يسيراً /^{٥٧٧} أمام عدوه الذي كان جمّاً غفيراً، فكان أمامه حينئذ جيش عظيم مُستند إلى العاصمة، ووراءه سوريّة مفتوحة جديداً، وليس فيها قوّة تكفي لحفظها من المهاجمة، وعلى يمينه عثمان باشا والي طرابزون^(١) في سيوا بجمهور وافر، وعلى يساره سليمان باشا^(٢) في أضاليا^(٣) مع عشرة آلاف من العساكر.

(١) طرابزون "Trabzon" مدينة ساحلية على البحر الأسود، وتمثل أكبر موانئ تركيا حالياً على البحر الأسود.

(٢) الكولنيل سيف المعروف بسليمان باشا الفرنسي، ولد عام ١٧٨٨ بمدينة ليون، التحق بالخدمة بالأسطول الفرنسي منذ صباه إلى أن تقاعد بعد خسارة فرنسا أمام الحلفاء في ووترلو برتبة كولنيل، حاول الاشتغال بالتجارة لكنه لم يفلح في ذلك وما لبث أن أصابه للسأم من رتبة وخمول الحياة المدنية، فما أن سمع عن مشروعات محمد علي حتى سعى لدى الكونت دي سيجورا ليزكيه لديه في مصر، وأكرم الباشا وفادته وأناط به مهمة تكوين الأورطة الأولى من الضباط على "النظام الجديد" بجيشه فنجح في مهمته بعد جهد وعناء شديدين، وما لبث أن قربه نجاحه الكبير في تلك المهمة من الباشا فكافأه على ذلك بترقيته إلى رتبة اللواء، ثم رقي مرة أخرى بعد بلائه في حروب الشام والأناضول إلى رتبة رئيس أركان حرب الجيش مير ميران (تعادل "الفريق" أو "مارشال" في الرتب العسكرية المعمول بها حالياً) وفي عهد إبراهيم باشا عهد إليه بقيادة الجيش المصري وظل في منصبه في عهد سلفيه عباس وسعيد إلى أن توفي في ١١ مارس عام ١٨٦٠. انظر :-

عمر طوسون : الجيش المصري في عهد محمد علي، ص ص ١٠ - ١٥.

(٣) أضاليا أو أنتاليا "Antalya" مدينة ساحلية تقع على ساحل البحر المتوسط على رأس الخليج الذي يسمى باسمها.

وفي ١٨ كانون الأول و ٢٦ رجب استعدَّ الصدر الأعظم للحرب وتأهَّب، فأمر وافي باشا أن يسير من غير تَوَان ولا هُدُوء، وينزل على قرية سلح بثمانية آلاف من الأرناؤط، ويقا تل العدو، فأجاب وامتثل، ونَهَض على عجل، وكان إبراهيم باشا قد جعل فيها نحو ألفي نفر لتحميها من الأغذاء وتقِيها، وسار الصدر الأعظم في طريق /٧٨ آخر بباقي الجيش والعسكر.

وأما إبراهيم باشا - لَيْث المَعَارِك - فحَالَمَا علم بذلك سار بفرقة من المشاة والأبْطَال، قاصدا قرية سلح على قدم الاسْتِعْجَال لِيُعْضِدَّ من كان لَهُ فيها من الرُّجَال، وعند وصوله إلى هناك التقى بجيش الأتراك، وكان ذلك النهار كثير الغيوم والتُّوج والأمطار، ولَمَّا وقعت العين على العين اشْتَبَكَت الحرب بين الفريقين، فما لبث الأرناؤط ساعة حتَّى ولُّوا الأَنْبَار، وأرْكَنُوا إلى الهزيمة والفرار، وتشتَّتُوا في تلك الاقْطَار بين الرُّوَابِي والقِفَار، فغنم منهم المصْرِيُّون خمسة مَدَافِع، ومن الخيل عدداً كثيراً، وثمانية بَيَارِق، وخُمْسمائة وعشرين أسيراً. ١٥

وفي اليوم الثاني بلغ إبراهيم باشا أن قسماً من /٧٨ الجيش العُثماني يَنْفِي عن عَشْرَةِ آلاف عَنَان نازل في طُقُوز لُوْخَان، وهو مكان واسع الجنبات يبعد عن قُونية ثلاث ساعات، فتأهَّب للحرب والطَّعَان، وقصدهم من غير تَوَان ومعه جيش الحرس، وثلاث آليات من الفُرسَان، وعند وصوله إليهم أطلق المدافع عليهم، فما لبثوا أن وقعوا في الشُّتَات، وتفرقوا في البَرَارِي والفلوات. ٢٠

ورجع إبراهيم باشا ظافراً مُنتصراً بعد أن أسر منهم مائة وخمسين نفرأ، فدخل المدينة بموكب عظيم^(١)، وعند دخوله سلّم له نحو ستمائة من أرباؤط تلك الأقاليم، وطلبوا أن يشمتهم بنظره، ويستخدمهم بين جُنده وعسكره، فتحقّق بصدق نظره منهم سلامة الطّوية، وأرسلهم لينضمّوا إلى فرقة مُحمّد بك في قيصريّة^(٢).

٧٩/ وفي الغد بلغ إبراهيم باشا أن الصّدر الأعظم قد سار قاصداً من لاديك^(٣) بالجيش العرمرم - وهي بلدة في تلك الجهات، تبعد عن قونيّة ثمانى ساعات - فوزّع في الحال الأوامر على القوّاد بأن يكونوا في اليوم الثّاني مُستعدين للحرب والجلاد، وفي صباح الغد ورد إليه الخبر أن الصّدر الأعظم قد وصل الى طقوزلوخان^(٤) بالعسكر، وعند الظّهر اقترب الصّدر المذكور من قونيّة مركز العساكر المصريّة، فاتّصل ذلك بإبراهيم باشا، فأخذ في الاستعدادات الحربيّة، وفي الحال أمر عسكره بحمل السّلاح، والتأهب للطّراد والكفاح، فاستعد العسكر كما أمر، ووطّن نفسه على الموت أو الظّفر، وكان ذلك يوم الجمعة / ٧٩٥هـ الواقع في ٢٩ رجب من سنة ١٢٤٨ هجريّة، الموافقة ٢١ كانون الأوّل سنة ١٨٣٢ مسيحيّة، فكان يوماً كثير الغيوم والضباب بحيث كانت كثافة السحاب تمنع أحد الجيشين من أن يرى الآخر وهم في غاية الاقتراب، غير أن المصريين بما قد مارسوه قبلا من تواتر العراق كانوا بمواقع الحرب

(١) قوله "فدخل المدينة بموكب عظيم" استدراك أثبتّه المؤلف أعلى السطر.

(٢) قيصريّة "Césarée" إحدى كبريات مدن الأناضول تقع جنوب شرق أنقرة.

(٣) لاديك مدينة كبيرة تقع على الطريق بين قونية واستانبول.

(٤) تقع على طريق قونية لاديك على بعد ثلاث ساعات من قونية.

وأبوابها يَفْضِلُونَ على الأتراك، إذ كانوا قد واطبؤوا ميدان الحرب ودرسوه، واكتسبوا منه علماً بما مارسوه، وأما الأتراك فكانوا يفضلون على المصريين بكثرة العدد، وما كانوا حاصلين عليه من الذخائر والمدد.

٥ فقسّم إبراهيم باشا عسكره إلى عدة أقسام، وأقام كل قسم في مقام، /^{٨٠} فجعل الآلاي الثالث عشر والثامن عشر - الذين لا يهابون الموت ولا يخافون من الخطر - على الخط الأول من يمين الجحفل تحت قيادة صاحب القدر العليّ سليم بك المنسترلي، وعلى نحو مسافة خمسمائة قدم من هذا الخط جعل سليمان بك الفرنسي البارع بحركات الحرب بالحزم والضبط ومعه الآلاي الثاني عشر والرابع عشر منظمين على هيئة ترجح لهم الفوز والظفر^(١).

وهكذا كانت العساكر المصرية مُرتبة بعضها على شكل خطوط مزدوجة مُرصّعة، وبعضها على شكل قلاع مُربّعة، حتّى كانوا من أي جهة أتاهم العدو يستطيعون أن يلتفوه بغاية الثبات والهدوء^(٢)، وجعل سليم /^{٨٠} بك في القلب ومعه صفوفه المزدوجة، متأهبة لإضرّام نار الحرب، وأقام للحرس عن يمينه وشماله على

(١) شطب بالأصل، ومن الواضح أن المؤلف أثبت كلمة "الوطر" ثم شطبها وعدل عنها إلى الكلمة المثبتة أعلاه.

(٢) اعتقد أن وصف المؤلف ينطبق على ذات التكتيك الذي واجه به ولجئون نابليون في ووترلو لتحديد سلاح فرسانه وحماية ظهر قواته من المشاة ذاتياً، وهو تشكيل دفاعي يصطف خلاله المشاة من رماة البنادق على هيئة مربع متساوي الأضلاع ذي خطوط مزدوجة من الجنود وبالتالي يضمن حماية ظهر المشاة من هجمات الفرسان المباغتة من أي جهة كما أنه يضمن في ذات الوقت كثافة نيرانية عالية.

نحو مائة وخمسين خطوة فرقتين من الخيالة ذوى البسالة والسطوة، وكل واحدة من الفرقتين مؤلفة من آلايين إحداهما تحت قيادة أحمَد بك المِنكَلِي، والأخرى تحت لواء أحمد بك الإسلامبولي، وجعل بين هاتين الفرقتين مزيد ارتباط، وربَّتهما مع جيش الحرس للاحتياط.

٥ وإلى يمين ويسار وأمام الخط الأول على نحو مائة وخمسين قدماً من مركز الحَجَل أَقام ثلاث طوابي من الطوبجية من ذوي النشاط والثبات، والدراية الحربية، وكذلك /^{٨١} قَدَم من الطوبجية طابيتين وجعلهما أمام الصَّف الثاني ثابتتين حيث كانتا مائلتين نحو القلب، قادرتين على المَحاماة والضرب، ووضع وراء قلب الحرس على رؤس^(١) صفوف الخيالة فرقة من الطوبجية ذوي الشجاعة والبسالة.

١٥ وفي طرف الجناح الأيمن وإلى الوراء اصطفت الذَّالِيتة والبدو متهيئة للالتقاء، وجعل في جبل قرية سلح طابورين من قواصة^(٢) الأتراك الذين كانوا [قد]^(٣) سلَّموا طوعاً، وانتظموا حديثاً للقتال والعراك، وكان الجيش مُستنداً إلى قونيَّة من وراءه^(٤)، وعن يمينه إلى الأمام أراضٍ مُستنقعة بالمياه، وعن يساره إلى الوراء قرية سلح ومُرتفعاتها العوال، /^{٨١} وهي من هناك على مسافة ثلاثة أميال، وكان من قدامه تلك الجبال التي تتصل بالسهل من جهة

(١) كذا بالأصل.

(٢) المقصود قناصة الأتراك.

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

(٤) كذا بالأصل.

الشمال، وعند حضيض تلك الجبال جيوش الأتراك مغطاة بالضباب الكثيف مُستعدة للشباك والعراك.

وأما جيش العدو فكان مُرتباً على أربعة صفوف بحسب ما هو بترتيب حركات الحرب معروف، فكان الأول منها مُنتشراً، والثلاثة الأخر مُتجمعة، وكانت فرقاً فرقا على عدة باشاوات مُوزعة، وكانت الطوبخانة مُقسمة من مدفعين على كل طائور، ومن أربعة على كل آلي بالعد المحصور.

وكان خير الدين باشا على الجناح الأيمن قد تصدّر، وسعد الله باشا على القلب قد / تأمر، والصنّدر الأعظم أخذ لنفسه قيادة الجناح الأيسر، وكانت هذه الجيوش مُستتدة من ال وراء إلى الجبال، وجانبها الأيمن إلى قرية سلح وتلك التلال، وإلى جانبه^(١) الأيسر الأرض والسهل ذات الردغات والوخل، وإلى أمامه^(٢) قونية والعساكر المصرية، وطريق العاصمة بين الفريقين على السوية.

وكانت عساكر الأتراك مؤلفة من ثلاثة وخمسين ألفاً وثلاثة وتسعين مدفعاً من أجزاء مختلفة، وكان الجيش المصري خمسة عشر ألفاً غير زائد ومعه ستة وثلاثون مدفعاً من جرم وقياس واحد، ولم يكن قُدّامهم سوى أمرين؛ إما الإقدام /^{٨٢} والانتصار، وإما الانهزام والبوار.

(١) كذا، والصواب جانبها.

(٢) كذا، والصواب أمامها.

وكان الصُّدْر الأعْظَمُ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَذْهَبَ قَتِيلًا أَوْ يَرْجِعَ غَالِبًا، وَأَقَامَ أَحْمَدَ فَوْزِي بِأَشَا عَنْهُ نَائِبًا حَتَّى إِذَا اقْتَضَى الْحَالُ لَا يَقَعُ فِي الْعَسْكَرِ اخْتِلَالٌ، غَيْرَ أَنَّهُ لَتَرَاكُمُ الضُّبَابُ وَتَكَاثَفَ السَّحَابُ قَدْ أَقَامَ الْفَرِيقَانِ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ مِنْهَا الْفَرِيقَ الْآخَرَ، وَلَا يَفْعَلُ أَذْنَى حَرَكَةٍ بَانَ يَتَقَدَّمُ أَوْ يَتَأَخَّرُ.

وَعِنْدَمَا ظَهَرَ النُّورُ قَلِيلًا، وَأُزِيلَ مِنَ الضُّبَابِ مَا كَانَ حِجَابًا تَقِيلًا انْطَلَقَتْ أَعْيُنُ الرِّجَالِ وَالْأَبْطَالِ، وَرَأَى الْجَيْشَ الْمِصْرِيَّ عَدُوَّهُ مُنْتَظِمًا عَلَى مَسَافَةِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ ؛ فَأَمَرَ إِبْرَاهِيمَ / ٨٣ بِأَشَا الْجَنَاحِ الْأَيْسَرَ أَنْ يَلْوِي قَلِيلًا إِلَى الْوَرَاءِ وَلَكِنْ بِكُلِّ انْتِظَامٍ بِحَيْثُ لَا تَسْتَمَكُّنَ مِنْهُمْ الْأَعْدَاءُ ؛ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ مُعْظَمَ حَرَكَتِهِمْ مُتَّجِهَةٌ إِلَى نَحْوِ تِلْكَ الْجِهَةِ، فَانْدَفَعَتْ عَسَاكِرُ الْأَتْرَاكِ إِلَى الْحَرْبِ أَيُّ انْدِفَاعٍ، وَظَلَّتْ سَائِرَةٌ حَتَّى بَقِيَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ نَحْوُ أَلْفِ ذِرَاعٍ، فَبَدَأَتْ الْحَرْبُ بِقُلُوبٍ غَيْرِ جَازِعَةٍ، وَأُطْلِقَتْ مَدَافِعُهَا طَلَقَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ، إِلَّا أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لَمْ يَقَاتِلُوا^(١) تِلْكَ الْحَرَكَةَ كَمَنْ تَأَثَّرَ، بَلْ لَبِثُوا يَنْتَظِرُونَ تَقَدُّمَ الْعَدُوِّ أَكْثَرَ فَاكْثَرَ.

وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ إِبْرَاهِيمَ بِأَشَا يَفْتَقِدُ^(٢) الصُّقُوفَ، وَيَجُولُ بَيْنَ الْعَسَاكِرِ وَيَطُوفُ، وَيَشْجَعُهُمُ بِالْكَلَامِ، وَيَحْرُضُهُمْ عَلَى / ٨٣ الثُّبَاتِ وَالِاقْتِحَامِ، ثُمَّ سَارَ إِلَى جِهَةِ الْيَمِينِ نَحْوَ بَنَرٍ هُنَاكَ قَدِيمَةِ السِّنِينَ، لِيَقِفَ بِأَكْثَرِ جَلَاءٍ عَلَى حَرَكَةِ جَيْشِ الْأَعَادِي، وَمَعَهُ أَلْفٌ وَخُمْسُمِائَةٍ مِنْ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ "يَقَابِلُوا".

(٢) كَذَا بِالْأَصْلِ، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ "يَتَقَدَّدُ".

العرب الهنادي، وجماعة من أغوان حربه، وكثير من الذوات الذين كانوا يفوزون بقرية.

ولما وصل إلى تلك البئر المذكورة بقواده وأبطاله المشهورة اتفق أن شقت حجب الضباب، وزال قتام السحاب، فأمكنه حينئذ أن يرى جميع الجيوش السلطانية ويتأمل حركاتهم الحربية، وكان جيش فرسان الأتراك قد انفصل عن المشاة وتقدم للعراك ليفوز بالفخر والسطوة، وأصبح /^{٨٤} بينه وبين جانب الجيش الأيسر نحو ألف خطوة، فعزم إبراهيم باشا من غير تباطي^(١) أن يدخل بينهما بالجيش الاحتياطي، وأمر البدو أن يتقدموا على الأثر ليقفوا بأكثر وضوح على حالة ذلك العسكر، فساروا قليلاً ولم يلبثوا طويلاً حتى رجعوا منكسرين، ومن كلال الأعداء متشتتين.

فأمر حينئذ جيش الفرسان وجيش الاحتياط والمشاة من الشجعان أن يتقدموا نحو العسكر، ويهجموا على جناحي العدو الأيمن والأيسر، فاندفعوا جميعاً كالسيل العرم، ونزلوا^(٢) على الأعداء نزول القضاء المبرم، وقد هانت عليهم /^{٨٤} الآجال في جنب بلوغ الآمال، فصدمتهم الأغذاء صدمتهم^(٣) تزعزع الجبال، وترد أسود الدحال عن حماية الأشبال، فتراكم من الجانبين الهياج، وتلاطم الجحافل كالأمواج في البحر العجاج، وهاج كل وماج، وخاض في

(١) كذا بالأصل.

(٢) كذا بالأصل : ونزول، وشطبها المؤلف وعدل عنها إلى المثبت بأعلاه.

(٣) كذا بالأصل، والصواب "صدمة".

البلاء وعاج، وتفاقت الأهوال وارتفع العُجاج، ودار بهم ملك الموت من سائر الجوانب والفِجاج، وما زالوا على تلك الحال وهم في أشد قتال، حتى تَفَطَّرَتْ مُهْج الرُّجال ، وتَكَبَّكَتْ رُؤس^(١) الأبطال، وجرى الدَّم وسال.

وكانت من الجانبين صيحات الجنود تُذعر قلوب الأسُود، وفعل في ذلك اليوم المصريون ما لم يُفعل /^{٨٥} مثله في ماضي القرون، ولا رأت مثله العيون من أيام الإسكندر ورمسيس الأكبر، [وما]^(٢) لا يستوفي وصفه الكلام، وتعجز دون بيانه ألسنة الأقلام، وكان بظلمهم إبراهيم - وسيدهم العظيم - يجري بينهم بأسرع من النسيم، وهو يهون عليهم الأهوال، ويُحرضهم على الثبات والقتال، ويفتحهم بنفسه أحياناً أشدَّ المخاطر، ويفعل تارات ما لا يفعله أحد العساكر بهجومه على الكتائب والمواكب، وعدم اكتراثه بالأهوال والنوائب، حتى خيل لجنوده أنه لم ينظر العدى، أو لم يعرف الموت والردى.

وكانت طلقات البنادق /^{٨٥} والمدافع تصعق الفلك كالرُّعود، وترج الأرض كالزَّعازع حتى كادت تلك الجبال القريبة تتزلزل من قواعدها لهول تلك الحرب العجيبة، وكانت تلك الطلقات دائمة القصف والارتجاج كالبراكين الهائجة أشدَّ الهياج، ومُهاجمات الرجال والفُرسان، وحَرَ الضُّراب والطَّعان يحرق الأرض فتطير حصارها شراراً، ويصعد غبارها دُخاناً وناراً.

(١) كذا بالأصل.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

وكان جيش الأتراك يحاول مع شدة العراك أن يخرق صفوف المصريين، ويشتتتهم ذات الشمال وذات اليمين، ولكنهم ثبتوا بثبوت القلاع، وامتنعوا عليه أشد امتناع، فكان العدو /^{٨٦} لا يستطيع أن يحارب كمحاربتهم، ولا يأمن على السلامة من مقاربتهم، فلذلك لم يستطيع الأتراك أن يدنوا منهم وإن كانوا يزيدون أضعافاً عنهم، فقصّر عدوهم عما كان يريد، وسلمت صفوفهم من الاختراق والتشريد، بل كانوا يهجمون عليه هجوم الصناديد، ويأسرون القريب من عساكره ويذعرّون البعيد.

ويمكننا أن نقول أن كلا من الفريقين قد فعل في صفه ما يعجز القلم عن القيام بحق وصفه، فكان الرجال يهجمون على الأبطال، والأبطال على الرجال، وكثيراً ما يلتحمون اختلاطاً في ضيق المجال، فيراهم الناظر كخيالات /^{٨٦} سوداء يقطر الدم منها، وقد تدرّعت من العجاج بعد أن تمزقت أثوابها عنها، وكان صوت البارود يزيد أصواتهم إرعاداً، ودخانهم يزيد ألوانهم سواداً، حتى تجسم الليل للأبصار واشتدت ظلمة الليل في وسط النهار.

ومما كان يزيد فظاعة ذلك المنظر المخيف دوي الحرب العنيف، وتراكم ذلك الضباب الكثيف الذي كان لم يزل يحجب بعضهم عن البعض، فيلتطم الجحّال بالجحّال، وينصرعون جميعاً إلى الأرض، ^(١) وقد تقطرت أكباد تلك السهول، وتمزقت أحشاء تلك الجبال والتلول من صرخات المتوجّعين، /^{٨٧} وتهودات المتألمين، وأنات الكراديس المقتولين.

(١) بالأصل: إلى، وشطبها المؤلف وعدل عنها إلى الكلمة المثبتة أعلاه.

وبينما كان القتال هكذا شديداً - تقشعر منه الأبدان ولو كانت حديداً - أظهر المصريون الشجاعة الزائدة في المكافحة والمجادة، وهجموا على الأعداء من ثلاث جهات في دفعة واحدة، وانقضوا عليهم كالعقبان وحكموا حرابهم في الصدور والأبدان، وفعلوا فعلاً تعجز عنها مرءة الجان، وأما الأتراك فلما نظروا إلى جلد المصريين وثباتهم، وشدة هجماتهم ووثباتهم قطعوا الآمال من الظفر، ووقعوا في الارتباك والحير، وأيقنوا بالموت الأحمر، فأركن بعضهم إلى الإخجام، /^{٨٧} وفر بعضهم دون ترتيب ولا انتظام، فكانوا يتقلبون في ذلك القفر كما يتغلب تيار الموج في لجة البحر.

وبينما هم في ذلك الشتات القاطع، صدمتهم فرقة الآلاي الرابع تحت قيادة صاحب البطش القوي أحمد بك المنكلي فأراهم العجائب، وفعل بهم الغرائب، فتحيروا من عظم البلاء، وارتدوا مذعورين إلى الوراء حتى وقعوا على باقي أصحابهم وهم يرون الموت قد أحاط بهم، فاخبط جيشهم طولاً بالعرض، وأمسى لشدة الارتباك بعضه يصدم بعض، وحينئذ اشتد الويل وازدحمت الرجال بالخيال حتى /^{٨٨} كانت لهم ساعة تحزن الناظر، وتوجع القلوب والضمائر، لا يستطيع القلم أن يصفها، ولا من لم يشاهدها أن يعرفها، فأعمل المصريون بهم أسنة الحديد، وكلل المدافع ورصاص البواريد، وحكموا القنابل والسيوف في تفريق الكتائب وحصد الصفوف.

وأما الصدر الأعظم فإنه لما رأى ذلك الخطب العرمزم اقتحم معركة الصدام عازماً على إرجاع النظام، وإعادة صفوف جيوشه

إلى الترتيب والانتظام، وتجديد الحرب والافتحام بعد ذلك الانهزام، وكان قد قُتل تحته في ذلك اليوم ثلاثة أخصنة، /^{٨٨} وتجرح الرابع في عدة أمكنة، فسار - كالبرق إذا صدر - إلى نحو الآلاي السابيع عشر الذين كانوا من المشاة، وأمسوا في حالة بعيدة عن النجاة، بل كانوا في أسواء الأسواء^(١)، وعلى همة تسليم سلاحهم للأعداء، وفيما هو يجول من خلف وأمام، وينشطهم على الهجوم والافتحام لمحمة قائد من قواد المصريين وشجعانها الموصوفين، فعلم من ملبوسه الثمين أنه من ذوي الدرجات العالية والرتب الرفيعة السامية، فأمر بعض البدو أن يلحقوه فلحقوا به وضايقوه، وأخذوا عليه بعض الخنادق وهموا أن يطلقوا /^{٨٩} عليه البنادق، فأشار إليهم أن لا يفعلوا، وأوقفهم عما عولوا، ثم قال : "أنا الصدر الأعظم، ودستور الدولة الأكرم"، فحينئذ تركوا بنادقهم وتقدموا إليه، وأخذوا سيقة وسلاحه، وكل ثمين عليه حتى أخذوا طوق برفسه المزركش بالطراز البديع، ولم ينظروا إلى ما يجب من الوقار إلى شخصه ومقامه الرفيع.

وفي الحال جاء سليم بك قائد الطوبجية وأحمد أفندي ياور إبراهيم باشا في الأمور الحربية، وأخذوه من أيدي البدو بكل احترام واعتبار إلى مولاهم إبراهيم باشا الباسل القهار، وكان قد مضى لهم ساعتان في الحرب وشدة /^{٩٠} الكفاح والطعن والضرب من حينما أسروه إلى أن أتوا به إلى مولاهم وأوصلوه ؛ فالتقاء إبراهيم باشا بالوقار ومزيد الاعتبار، وبالغ في إكرامه وشيعة بخفر يلىق بشخصه

(١) كذا بالأصل.

ومقامه، وأوصى خفره أن يوصلوه إلى قُوْنِيَّة بالتَّجِيل والتَّكْرِيم،
وينزلوه في الدَّار التي هُوَ فيها مُقيم.

هذا وأن نار الجلاذ لم تزل بمزيد ازدياد إذ الأتراك كانوا
لشدَّة بلاهم لم يعلموا بأسرِ مَوَلاهم، ومع ما كان [قد]^(١) انهزم من
الصُّقوف تمكَّن قوَّادهم من إرجاع الباقيين إلى النُّظام المألوف، فثبَّتوا
بالعزم القوي وهجمُوا على المصريِّين على هيئة الخطِّ الملتوي
ليحيطوا بهم من ثلاث /^{١٠} جهات، ويقطعوا خط اتِّصالهم بقُوْنِيَّة،
ويرمُوهم بالشَّتات، على أنَّهم لو تمكَّنوا من ذلك لرمُّوا المِصريِّين
بأفْظَع المهالك، وكسرُوهم كسرةً هائلة، وخسروهم أتعابهم سنةً كاملة
بحيث لا يعود يُمكنهم الرجوع إلى الثَّبات، ولا تعويض ما فات.

وشرع الأتراك على هذا العزم يتقدَّمون، وكادُوا بحركتهم
هذه ينجحون، إلا أن بعض قوَّاد المصريِّين النبلاء قد لاحظ وعرف
ما صمَّم عليه الأعداء، فسار بأسرع من البرق اللأمع، وأعلَم قوَّاد
الجِوش بالواقع، فثبَّت جناح الجِيش المصري ثباتاً يقضي بالعجب،
ويستحق أن يُدوَّن بأحرفٍ من ذهبٍ إذ /^{١٠} على ذلك الثَّبات والصَّبْر
يتوقف النُّصر والكسْر.

وبعد قليل لما رأى الأتراك ثبات المصريِّين على الهُجوم
والعراك، واستبعدوا الفوز والفلاح، وقطعوا الأمل من النُّجاح ؛ فولُّوا
الأذبار، وأرْكنوا إلى الفرار، وتبدَّدوا مُتشتِّتين في تلك القفار، فأمر

(١) زيادة اقتضاها السياق.

إبراهيم باشا جيشُ الفُرسان أن يُطاردهم ففعل وأدركهم مُنهزمين عن عجل، فأنزل بهم من الأهوال ما يقصُر عنه المقال، وأخذ منهم نحواً من ثمانية آلاف أسير وستة وخمسين مدفعاً بين صغير وكبير، وكسبوا أعلامهم وراياتهم وجميع ذخائرهم ومهماتهم، بل كسبوا منهم ما لا يُحصى وغنموا ذخائر وصفها /^{١١} لا يُستقصى.

وقد قتل من الأتراك في ذلك اليوم المهول ثلاثة آلاف رجل، وفقدوا مثلها من الخيول، وتركوا ضعتها مجاريح منطرحه في تلك السهول، وأما خسارة المصريين فكانت نحواً من ثلاثمائة وستين، ومن المجاريح خمسمائة وثلاثين، وما برح الدالاتية وعرب الهنادي يطاردون جموع الأعداء بدون تقصير ولا تأخير حتى أوصلوهم إلى أبواب مدينة أكشهير، فأسرؤا منهم كثيراً، وقتلوا جمّاً غفيراً، وكان ابتداء^(١) هذا القتال بين العسكرين من بعد الظهر إلى ما بعد المغرب بساعتين، فاستمر نحو /^{١٢} سبع ساعات ونصف على ما سبق من التفصيل والوصف، وبعد ذلك رجع الجيش المصري إلى قونية ظافراً منصوراً، وغانماً موفوراً ؛ فدخلها على ثلاث ساعات ونصف من المساء وهو سكران بخمرة النصر على الأعداء.

ولما عاد إبراهيم باشا إلى منزله في سراية قونية أراد أن يرى أسيره مرة ثانية، فأتى الغرفة التي كان [قد]^(٢) أنزله بها ذلك اليوم فوجده راقداً مُستغرقاً في النوم، فأيقظه بكل لطافة ووقار،

(١) كذا بالأصل.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

وسأله بكل إجلالٍ واعتبار أن يحضر - إن شاء - إلى ديوانه، ويستأنس به وبأعوانه، فنهض وتبعه في الحال، وهو تلوح عليه علائم العظمة /^{٩٢} والجلال، ولما بلغا المكان ودخلا الديوان أعطاه إبراهيم باشا المحل الأول ليجلس به وجلس هو بقربه، وكان يُعامله معاملةً حسنة، ويعتبره كأول رجل من وزراء السلطنة، ويحتفله^(١) احتفالاً زائداً، أعجب به كل من كان شاهداً.

ثم أمر إبراهيم باشا بالقهوة أن تحضر، ولما أحضرت أبى أن يشربها محمد رشيد واعتذر، وقد ازداد قلقاً وغماً، وخاف أن تكون ممزوجة سماً، وطلب عوضها شربة من الماء، لأنه كان في غاية الظمأ، فأمر إبراهيم باشا أن يأتوه بكأس شربات، فقال : "إنني أفضل الماء على جميع المشروبات"، فانتهر إبراهيم باشا /^{٩٢} رئيس السقاة وقال :- "أحضر كأس شربات بدون إمهال"، فإذا ذلك لم يعد محمد رشيد يجد بُدأً من القبول بعد ذلك التشديد، ولما ملأ السقائي الكأس وأتى بها كان محمد رشيد يتمهل عن أخذها وشربها، فمد إبراهيم باشا يده بسرعة، وشرب منها قسماً كبيراً من أول جرعة، ثم قال له :- "خذ ولا تسئ بنا ظناً" فأخذها وشربها مطمئناً.

وفي ذلك الليل أمر إبراهيم باشا سليماني بك الفرنسي أن يتبع الجيش أثر العدو في تلك البراري والمهاوي، هذا وإن هذه الكسرة القويّة قد وصلت أخبارها إلى القسطنطينيّة بسرعة كلّية، فاضطربت الأهالي الصغار والكبار، وجزعت رجال الدولة /^{٩٣} من

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "ويحتفل به".

تلك الأخبار حتى أن السلطان أمنسى مشغول البال مُضطرب اللب كثير البلبال، وكانت لم تزل السّعاة تتقاطر، وتصل الواحد بعد الآخر حاملة أخبار الويلات، وذلك الكسر والشّنات، حتى أن انتصار الدولة المصريّة قد زعزع أركان السّلطنة العثمانيّة، ولهج الرّجال والأولاد بأن المصريّين قتلوا وأسروا جميع الجيوش والقوادر.

ولما بلغ السلطان محمود [خبر]^(١) أسر الصّدّر الأعظم، وانكسار الجنود انزعج واضطرب، واستولى عليه الغيظ والغضب، ولم يعد يُمكنه بعد تلك الحال وفقد المهمّات والرّجال إلا التّسليم للقضاء، والنّصيب الذي يَغلب الرضى^(٢)، ففكّر رجال الدولة فيما /٩٣هـ يُجبر الخلل، فلم يجدوا أوفّق من الصّلح في نجاح العمل، ولكن كانوا يريّذون حسم الدّاء، وتسكين تلك الدّاهية الدّهماء على طريقة مُناسبة مُرضية، بحيث لا تنهتك بها حرمة الدولة العليّة بعد العظمة والاقتدار، والصّولة والفخار.

فطلبوا إذ ذاك من روسيا أن تُساعدهم ومن فرانسّا^(٣) أن تتوسّط القضية، وأفهموها مقاصدهم، وفصل بلوى هذا الخلاف توجه خليل باشا مع الجنرال مُورافيايف قاصدين الأسكندرية ليسعيّا في نهاية هذه القضية مع الحَضرة الخديويّة، فأقاما هناك المُخابرة بكلّ المجهود، ولكن سعيهما لم يأت بتمام المقصود، حتى أن الجنرال

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل.

مُورافياف المذكور /^{٩٤} لمّا لم يجد باباً لحسم تلك الأمور تهدّد الخديوي الأعظم، والدّأوري الأكرم الأفخم، بأنّه إذا لم يأمر ولده إبراهيم باشا بالرجوع والانكفاف عن الحرب والهجوع؛ فإن دولته المسكوبية^(١) مُستعدة لإرسال عمارة حربية لتضرب الأسكندرية، إلا أن تلك التّهديدات لم تُزعزع الخديوي صاحب الانتصار والثبات.

ولما طلب الباب العالي من فرانس^(٢) توسّط الحال ورفع الحرب والقتال فإن وكيل سفارة فرانس^(٣) البارون دي فارين - الذي كان من رجال السياسة المُعتبرين - بعث بالرسالة الآتية إلى إبراهيم باشا صاحب الهمم السّامية :-

١٠ /^{٩٤} حضرة صاحب القدر الشّامخ، والمقام الباذخ، إنه لمن واجباتي أن أخبركم بأن الباب العالي لما كان يُحب أن يضع حدّاً للحرب القائمة التي تجلب الدّمار على رعاياه - التي أقامته العناية وكيلاً أميناً عليها - فقد بعث بخليل باشا إلى الأسكندرية، وفوّض إليه أمر إيجاد علاج للخلاف الحاصل وتسوية نهائية مع حضرة صاحب السّموّ محمّد علي باشا والدكم المُعظم.

(١) النسبة هنا إلى عاصمة الدولة موسكو، وكان قنصل روسيا بمصر يدعى

بقنصل المسكوبية أو المسكوا، انظر :-

الخشاب : خلاصة ما يُراد من أخبار الأمير مراد، تحقيق حمزة عبد العزيز

بدر، دانيال كريستليوس، القاهرة ١٩٩٢، ص ٢٩.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل.

وإذ كان هذا المشروع ناشئاً عما كُلفت تبليغه من جانب
الباب العالي إلى حضرة صاحب السمو والدكم المآجد رايت
أنه من القرض الواجب علي أن أعلمكم به، وأنا بصفة
كوفي وكيل دولة - هي ولئن لم تكن تمنني على الدوام إلا
نجاح ولكم [٩٥ب] السلطنة^(١) / العثمانيّة - لها أيضاً
أمانة كلية في الحضرة الخديويّة، ولذا تفوض إلي أيضاً أن
اتخّبر مع سموكم، فأنا حسبي يا صاحب السمو أن أطلعكم
على أحوال الأمور، راجياً بعد أن تكونوا وقّفت عليها لا
ترون مكاناً لمداومة أسباب النزاع والعداوة التي غالتها
اللوم والقار، والمستويّة على مُسيبيها، ورؤيما منها تتولّد
الصعوبات التي تحول دون المقصود، فتمنع إنهاء الخلاف
المباشر فيه.

٥

١٠

فإذا تقرّر ذلك فلا غرو ألكم محلّون تقريري هذا محلّ
الصدق والصواب، وتلبّثون عن التقدّم إلى أمام، وتصدرون
أوامركم إلى قوّاد جيشكم بالتوقّف، وإني لمعتقد اعتقاداً
جازماً بأن سموكم وافر التعقل، حسن / الإدارة^{٩٥}
بالقاء^(٢) السلامة والتأمين، فلا يرضى بما يناقض ذلك.

١٥

وأنا مرسل كتابي هذا لسموكم صُحبة ساع، فأرجو مستي
وقفتم عليه أن تكونوا على يقين مما تضمّنه من مقاصدنا

(١) كلمة السلطنة ليست بالنص، لكن المؤلف أثبتّها في تعقيبه الورقة ٩٥ و.

(٢) كذا بالأصل.

السَّليمة، راجياً أخذ الجواب الذي ستشرُفوني به صُحبة
ناقله، وإنني اغتنم هذه الفرصة يا صاحب السُّمو والفخر
لأقدِّم لديكم غُلوص حاسياني^(١) واعتباري التَّام.

وكيل سفارة فرنسا^(٢) لدى الباب العالي

(الإمضاء^(٣)) البارون دي فارين

من تريبيا في ٩ خلت من شهر كانون الثاني سنة ١٨٣٣.

فلما وقف إبراهيم باشا على هذا الكتاب وقراه، واطَّلَعَ على
فَحْواه أجابه بما معناه أنه لما لم يَكُنْ إلا /^{١٦} قائداً للعساكر
المصريَّة، فلا يُمكنه إلا أن يَسْتَلْكَ بحسب الأوامر الخديويَّة، وبناءً
عليه ليس بوسعه أن يتوقَّف ويُضَيِّع الفرصة، ثم حمَّل الصَّدْر الأعظم
أن يُعلم الدَّولة بتقدُّمه نحو برِّصة^(٤)، وذلك ليس على نِيَّة حربٍ ولا
جلاد، وإنما جل القصد والمُرَاد في خروجه من قُوْنِيَّة وتلك البلاد هو
لداعي هُجُوم الشَّتَا^(٥) ودخول فصل البَرْد، وعدم وجود ما يَسُدُّ به
احتياج الجُنْد، ثم ارتحل من ذلك المكان بالرُّجال والفرسان في التَّاسع
والعشرين من شَعْبَان، وعند وصوله إلى كُوتاهية^(٦) أرسل له البارون
دي فارين رسالة ثانية، يطلب إليه ويُشدِّد عليه أن يتوقَّف في مكانه

(١) كذا بالأصل، ولم أدر ما الوجه فيها.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل.

(٤) برِّصة "Bursa" مدينة ساحلية تقع على بحر مرمرية قبالة استانبول.

(٥) كذا بالأصل.

(٦) كُوتاهية "Kütahya" مدينة كبيرة تقع جنوب غربي اسكي شهر.

برجاله /^{٩٦}ظ وفُرسانه، ولا يعود يتقدّم ولا خطوة قدّم إلى أن ينتهى الحال ويرتفع النزاع والجدال، على طريقة مُرضية للحكومة المصرية والدولة العثمانية.

وكتب أيضاً إلى الحضرة الخديوية يعلمها بهذه القضية،
 ٥ مُشدّداً على جنابها الشريف أن تأمر ولدها بالتأخير والتوقيف، فلما وقف إبراهيم باشا على هذه الرسالة، واطّلع على ما تضمنته من المقالة، أجابه بهذا التحرير، وكان أبوه قد أمره أن يتوقّف عن المسير:-

"حضرة صاحب المقام السامي حليف الشرف والفخار، ذي
 ١٠ الهيبة والوقار، مُحبنا وصديقنا البارون دي فارين، /^{٩٧} لقد حظيت برسالتكم الودادية التي بعثتموها لي بتاريخ ١٠ رمضان سنة ١٢٤٨ (٢٩ كانون الثاني سنة ١٨٣٣) ووقفت على ما تضمنته من المحبة والخلوص^(١)، ثم أئني قبل أن أسير من قُوّة قد عرّفت الباب العالي بواسطة الصدر الأعظم أنّ الذي حملني على الخروج من قُوّة والتقدّم إلى
 ١٥ برصة لم يكن إلا داعي عدم وجود ما يسد احتياجات الجيش ويقوم بأوده في فصل الشتاء البارد ولقْصان الحَطب.

(١) كذا بالأصل.

وإذا لم يكن لي أدنى قصد في حركتي إلا السبب الذي ذكرته، فإذا تقدمي كان من هذا القبيل - وإذا قد وصلت الآن إلى كوثاهية، ووجدت /^{١٧} فيها ما يكفي ويقوم بأود الجيش - فقد صممت على الوقوف هنا امتثالاً لأوامر والدي وولي نعمتي إلى أن ترد لي منه إفادة جديدة في هذا الشأن، وإنني سأعلم الباب العالي بذلك أيضاً راجياً أن أكون قد وفيت بمرغوبات سعادتكم الودادية، التي يسرني جداً أن أقوم بالإيفاء لها.

والتي انتهز هذه الفرصة لا ستفحص عن عزيز سلامتكم.

(الإمضا^(١)) إبراهيم

من كوثاهية في ١٥ رمضان سنة ١٢٤٨.

وكان إبراهيم باشا قد أطلق سبيل الصدر الأعظم فعاد إلى الأستانة، وكانت الدولة /^{١٨} قد [قد]^(٢) سمّت أمين راوف^(٣) باشا صدراً أعظم مكانه، وفي ١٧ شباط سنة ١٨٣٣ مسيحية قدم البارون رؤسين سفير فرنسا^(٤) إلى القسطنطينية فتمثل أمام حضرة السلطان وتخابر معه بهذا الشأن، ووعده بأنهاء الخلاف على أي وجه كان، وأرسل إلى الحضرة الخديوية برسالة ودادية يطلب منها ترجيع الجيوش المصرية إلى بلاد سورية، وهذه صورتها :-

(١) كذا بالأصل.

(٢) زيادة اقتضاها السياق.

(٣) كذا بالأصل.

(٤) كذا بالأصل.

" حضرة صاحب السمو والمقام العالي، لا يخفى عليكم المركز العسير الذي بات فيه الباب العالي من جرى^(١) نجاح ولدكم إبراهيم باشا، حتى أنه اضطرراً أخيراً أن يقبل مساعدة دولة /^{١٨٩} روسيا المادية^(٢) التي كانت قد عرضتها عليه ورفضها غير مرة.

ولما بلغه أخيراً حسن نواياكم وميلكم إلى فصل الخلاف طلب توقيف تلك المساعدة، ولكن لسوء الحظ تأخرت الإفادة فوصلت العمارة إلى البوسفور قبل وصول إفادته.

والآن قصدي أن أحملكم على قبول ما عرضه عليكم خليل باشا معتمد الباب العالي لكي توفروا أسباب نزع السلام، ليس في الشرق فقط بل في الغرب أيضاً، لأن ذلك أصبح يضر بميزانية أروزيها وبصوالحنا أيضاً، فإذا أرجو سموكم - ليس فقط من أجل صوالحكم الخصوصية بل من أجل سلامتكم وامنكم الذاتي أيضاً - أن لا تتصلبوا /^{١٩٠} في غزمكم، وأن ترضوا بما سمح لكم به الباب العالي من باشوية عكاء ونواحيها وبعض أطراف سورية، وإلا فبمزيد الأسف أقول لسموكم أنكم إذا كنتم لم تزالوا مصممين على عدم التوقف، وإخراج عساكركم من الأناضول يحملون دولتي على أن نمدنكم ذراع العدوان، الأمر الذي لا نرضاه.

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "جراً".

(٢) كذا بالأصل، ولعله أراد "المعادية".

وأنا قد تعهدت للبَابِ العَالِي بِذلك إِذَا اقتضتْ ظروفُ الحال،
ودولتي لَا يمكنها إِلَّا أَنْ تنقذَ مَا قد تعهدَ بِهِ وَكَيْلُهَا المَطلَق،
ورسّالتي هذه تصلكم صُحبةً بِاشْ ياورِي فأرجو أَنْ يُصادفَ
لدى سُمُوكُم المَعاملةُ اللائقةُ التَّصَفُّفِ بِمَا شَخَصَكُم السَّامِي،
وَأَنْ تَكُونُوا عَلَى /^{١٩} يَقِينٌ ثَمَّا تَضُمُّنْتَ مِنْ مَقاصِدِنَا،
وسُمُوكُم تَعْلَمُونَ مَا بَيْنَ دولتي وَبَيْنَكُم مِنَ السَّوَادِ وَمُراعاةِ
الْخَاطِرِ، فَلَا تَحْمَلُونَا إِذَا عَلَى أَنْ نُخالفَ ظَنَّنَا بِمَقاصِدِكُم
السَّامِيَةِ، وَمَنْ طَيَّهَ تَجِدُونَ صُورةَ الرُّسالةِ الَّتِي بعثتُ بِهَا إِلَى
جَنابِ وَلَدِكُم الْأَمْجَدِ.

٥

هذا وَإِنِّي اغْتَنِمَ هذهَ الفُرصةَ الثَّمِينَةَ يا صاحِبَ القَدْرِ والفَخْرِ
لأؤكدَ لِسُمُوكُم اعتبارِي الثَّامِ.

١٠

ألفيس أميرال سفير لورالسا^(١) لدى البَابِ العَالِي.

(الإمضاء^(٢)) البارون رُوسين

من تَرايَا في ٢٢ شِباط سنة ١٨٣٣.

فأجابه الخديوي الأعظم والداوري الأكرم الأفخم بما
مُلخَصُهُ :-

١٥

١٠٠٠/٠ وصَلَتِي شِقَّتِكُم الرِّسْمِيَّةُ بِتاريخِ ٢٢ شِباط سنة ١٨٣٣
وفهمتُ مضمُونَهَا، أما قولُكُم أَنَّ لِي حقٌّ أَنْ أَطْلُبَ أَكْثَرَ مِنْ

(١) كذا بالأصل.

(٢) كذا بالأصل.

باشوئيه عكّا ونواحيها وبعض أطراف سورّيه، وبناء عليه يجب أن
أخرج عساكري من الأناضول بدون اذن عاقه^(١)، ثم تهتدني إن
لم أفل ذلك، فمهلاً يا جناب السفير المحب، بأي حقّ تطلبون
منّي ذلك، ألم أغلب ١٢، أو لم أكن قادراً أن أغلب بعد ١٢ فكيف
تكلفوني ترك حقّ كهذا ؟ إني أرجو أن مقاصدنا ونوايا ذولكم
المعظمة وخدينتها الدولة الإنكليزيّة لا تريدان منّي ذلك ولا
تُحوجّاني إليه، بل تُعاملاني بالمعدلة والإلصاف، وإني أقول ثانياً
أنّي قد غلبت وقد يحقّ/^{١٠٠} للغالب أن يضع الشروط وليس
للمغلوب، وآلتي لا أتنازل عمّا قد طلبته من مُعتمد الباب العالي،
وإذا اقتضت الحال فإني مُستعدّ أن لا أعيد السيف إلى غمده قبل
أن أزال المقصود، أو أموت شريفاً بين جيشي وأمتي.

٥

١٠

وإني يا جناب السفير اعتقد اعتقاداً جازماً بعد التكم وجودة
تدبيركم، ولذا أرجو أن تصادقوا على تصرّفي، وأن تُسندوا لدى
الباب العالي مطالبتي التي بلغتني إلى خليل باشا، والسلام أحسن
ختام.

١٥

(التهى مُلخصاً)

(الإمضا^(٢)) مُحَمَّد عَلِي

من الأسكندرية في ٨ خلت من آذار^(٣) سنة ١٨٣٣.

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "إعاقه".

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل، ولعله أراد "آذار".

/١٠١/ ولما بلغت هذه الرسالة السقيير المشار إليه، وأطلعت الدولة على ما احتوت عليه ؛ لم تجد بُدّاً من مَلَاة الأمر، وإخماد ذلك الجمر على طريقة مناسبة، خوفاً من العاقبة، ففوضت البارون روسين بفض هذه القضية، وأنها تتنازل للحضرة الخديوية عن جزيرة كريت وسورية، وتسلم مقاليدهما للحكومة المصرية.

فأرسل البارون روسين البارون دي فارين في التاسع والعشرين من آذار^(١) إلى كوثاهية وتلك الديار للمخابرة مع إبراهيم باشا بهذا الصدد، وعند وصوله إلى ذلك البلد التقاه إبراهيم بالترحيب والتكريم، واحتفل له الاحتفال العظيم، ويعد إقامة فروض /١٠١/ الواجبات دارت بينهما المخابرات، فطلب إبراهيم باشا علاوة على كريت وسورية ولاية أدنة، ولما كان البارون المشار إليه مفوضاً إليه التفويض التام من طرف السلطنة سلم له بهذا الطلب حسماً للنزاع والتعب، وتحررت شروط العهدة في ٨ نيسان و ١٦ ذي القعدة، فأمنضيت من الطرفين، وصادق عليها كل من الدولتين.

وهكذا انتهى الحال وارتفع النزاع والجدال، وخمدت نار الفتنة بعد الاشتعال، ورجع إبراهيم باشا إلى قطر الشام بالعز والإقبال بعد ما بلغ المرام، وأطاعه الخاص والعام، ووقعت هيئته في قلوب الأنام، فدارت بقدومه /١٠٢/ البشائر، وقامت الأفراح وابتهجت العشائر، وقصدته شعراء الزمان من كل جهة ومكان، وقدموا له المدائح والتهاني، فمن ذلك ما قال الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني،

(١) كذا بالأصل.

علامة زمانه وشاعر عصره وأوانه يمدحه بهذه القصيدة ويهنيّه بتلك
الفتوحات السعيدة مُستفتحاً بذكر المرحوم الخديوي الأعظم، الذي
برز من عرينه هذا الأسد الغشمتشم :-

يا فاتح القطرين أنتَ مُحْمَدُ	هل دُونَ فَتْحِكَ في البلاد مُسَدَّدُ ؟!
العربُ تشهد والحضارة قبلها	والزئج تشهد والجزائر تشهدُ
ما كان أنسر ما فعلت وفوقه	لو كان مثلك في البرية يوجدُ
أنت العليّ كما يقال ونسله	منك المعالي لم تزل تتولدُ
/١٠٢ ^ط سدت البلاد بهمة نبوية	فالأرض دارك والخلق أعبُدُ
وأتيقنا باسم النبي وصهره	وغزوت غزوهما على ما نعهدُ
جبل بمصر إلى الحجاز وظله	لحق الشام وظل منه الأبعدُ
لو كنت تنهر أرضهن ترلزلت	ولو ازنجرت النيل أو شك يجمدُ
يا سيّداً عرف اسمه بالرفع	لا بالخفض والتتوين أنت المقرّدُ
بك يستعين الجيش حيث رميته	بدداء وإياك الصّوارم تعبدُ
لما بعثت من الكنانة سهمها	خلفت عليه أنه لا يصردُ
ما زالت النار التي وقّدت له	برداً عليه ونار لا تبردُ
من مثل إبراهيم إلا سيقه	يوم الكريهة والقنا المتأودُ
كالسيف إلا أنه لا يتقي	خذراً ويحسب أنه لمخلدُ
ملك يخاف الله ليس بحاسدٍ	وتخاف سطوته الملوك وتحسدُ

يعتاد سَهِد العين وهي قَرِيرَةٌ
 / ١٠٣ يا أَيُّهَا الْقَمَرُ الَّذِي مِنْ حَوْلِهِ
 أمطارٌ راحتك الدِّماء من العِدَى
 أرايت ما أَجَزَى عِدَاتِكَ نِعْمَةً
 وليُّ العدو يكاد يسبق مُهره
 أخذ الصُّحابة بعضها وتخلّفت
 لو كُنْتَ تُصغِي لاسْتَمَعْتَ نَوادِباً
 أرسلت قبل الجيش جيشَ مهابة
 فاثبت مكانك وابعث اسمك
 ولقد ضربت حصون عكا التي
 الله أَكْبَرُ ليس ذُنُوك قلعَةٌ
 خافت جبال الأرض منك وقد
 وتحصّنت منك الأسود فلا تُلم
 / ١٠٣ أسألت عبد الله أين قارعة؟
 أُنسى يُشدد قومه فغداً ومن
 لما مررت به أسيراً خاضعاً
 دون التبصّر في تقلُّب أمره
 من كل عين في جِماه ترقُّدُ
 شُهَب الصَّوَاعِقِ والسُّحَابِ الْأَسْوَدِ
 يوم الوغَى وعلى الصُّغَاة العَسَجَدُ
 سبقوا ولكن في الفرار وأجهدوا
 ويود لو أكل الطريق فينفدُ
 منها رجال في البقية سَجْدُ
 في التُّرك تتدب أهلها وتعدّد
 جيش العدو لهولِه يتبسّد
 بعدها وكفى القتال به وأنت مُوسدُ
 كانت لهيئتها الفرائض ترعدُ
 تخمى ولا حصن أشم مُمرّد
 رأت هذي الفِعال بمثلها تتردّد
 قوما بأعلاق الحصون استنجدوا
 ورجاله وفؤاده المتوقّد
 لفؤاده بفتى تراه يشدّد
 خشعت له أنصار من يتفقّد
 سبب الزهادة عند من يترهّد

ساعتَ ظنونِ القومِ فيه وظنّه والظنُّ أكثره يَخيبُ ويفسُدُ
لم يدر أن القتلَ أهونُ عند من دفعَ المنيّةَ عنه وهي تُعربدُ
لا حدُّ ذُنُوكَ في المكارمِ والعلَى وعسى البقاءُ عليك ليس يُحددُ
فالظلمُ إلا عن طبّاعك يتَقَيّ والعودُ إلا عن جنابك أحمَدُ
وقال أيضاً مؤرخاً فتح عكّاء :-

في فتح عكّا بردُ نارِ مُغَاطِبٍ^(١) دارُ الخليلِ والذّيار به البُكا
راس الثّمانِ وأربعين بطيّه مبتان مع ألف، فبارك ربُّكا

سنة ١٢٤٨

/١٠٠٠ وكان قد اقترحهما عليه الأمير بشير ليقدمهما إلى
مقامه الخطير، وهما يتضمّنان ثمانية وعشرين تاريخاً على وجه
غريب وأسلوب عجيب، وذلك يحصل من كل شطرٍ من أشطرها
على طريق حساب الجمل، ومن معجم كل بيت ومن مهمله، ومن
جمع ما في كل شطر من المعجم مع ما في غيره من المهمل جارياً
في ذلك على الطرد والعكس في الحروف والشطور بين تقديم المهمل
تارة وتأخيره أخرى، والمخالفة بين الأعجاز والصُدور وذلك من
الطرق المبتكرة في هذه الصناعة، والتأريخ الناطق لفظاً في مثل هذا
مما يدلُّ على تمام البراعة.

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "مغاضب".

وممن قدّم له التّهاني في نوال هذا النُصر ولهج بالبشائر
والمسرّات من شعراء العصر الأديب الفاضل والأريب /^{١٠٩} الطّ الكامل،
اللّوذيّ الذكي الشيخ أمين الجندي ؛ فإنه مدحه بموشّحات باهرة،
وقصائد نفيسة فاخرة، منها قصيدته اللّامية التي ذكر فيها فتوحاته
الشّامية، وهي من ارتقّ الشعر والطفه، وأجود النظم وأظرفه، كثيراً
ما تلهج الناس بإيرادها، وتعتني في غالب الأوقات بإنشادها ومطلعها
قوله :-

عرج أخا البأساء نحو بني العُلا	والثم ثرى اعتابهم متذّلاً
وابسط أكفّ رجاء كسرك عندهم	وأجرى الدموع على الخدود توسلاً
ودع التعجّب من شجاعة من مضى	من قبل وأترك غامراً ومُهلهلاً
وزن الرجال فإن في أفرادهم من	لا يُزان بألف ليث في الملا

ومنها :-

إن قيل إبراهيم جاء مُحارباً	سقطوا وإن كان الكلام تقوُّلاً
/ ^{١٠٠} هو سيّد الوزراء ذرّة عقدهم	وأجلّ من بالمكرّمات تسربلاً
في حكمه ترعى الضُّواري والظبّا	وبعدله أضنى الزمان مجبلاً
فاق الأوائل سُودداً وفخامة	وسما الأواخر رفعة وتفَضُّلاً
كم مكراتٍ قد أزال وجودها	عناً وكَم من باطل قد انبطلاً
لا عيبَ فيه سوى الثُّبّات	وأنه يلقى الكُتّيبَة وخذه والجَحَقْلاً
ذر همة علويّة لو صادمت في	الحرب طوداً شامخاً لتزلزلاً

قامت قيامة عكّة من بأسه
 بمدافع ما أن لها من دافع
 نسيك بدرأ والنضير وخيبراً
 لو شام حر لهيبها اسكندر
 ووزيرها المدعو بعبد الله
 /^{١٠٥} برزت جميع جنودها لقتاله
 حتى إذا طلبوا الأمان أجابهم
 وسرى إلى حمص ليقمع من
 وبها العساكر والدساكر قد حكّت
 زحفوا إليه كالجراد فادبروا
 ذهلوا بصاعقة المدافع فانتثوا
 فترى الكمأة مُمَدِّدِينَ عَلَى الثُّرى
 وإلى حَمَاةِ الشَّامِ سار وبعدها
 وغداً يجدُّ السير في آثارهم
 حتى أتى حلب فلم ير منهم
 أضحت طعاماً للطيور لحومهم
 وأحاط من كل الجهات بها البلا
 وقنابل تحكي القضاء المنزلاً
 وحرّوب مكّة والبسوس وكربلاً
 لأنذك مُحَكَمٌ سده وتفصلاً
 أمن الردى ولأرض مصر أرسلها
 فهناك جدٌ بفتحها واستعجلاً
 وأنال كلاً منهم ما أملاً
 غدا في مآلها وعقارها متخولاً
 قطع الظلام إذا بدا متضضلاً
 لما راوه كالسحر مرّ مقبلاً
 يترقبون إلى السلامة منزلاً
 والخيل من وقع القنابل جفلاً
 لمعرة النعمان يخرق الفلا
 بمواكب وكثائب لن تُصطلا
 إلا طريحاً أو جريحاً مُبْتَلَى
 ودمائهم للمنشرفية منهلاً

من مبلّغ الأتراك أن جيوشهم كُسرت وأن حسينهم ولّى إلى
 /١٠١ هل يَغلبُ الأسدُ المُجربُ ثعلبُ مهما استعان بمكره وتحيلًا ؟
 والعزُّ في العرب استتار مناره ببزوغ شمسٍ مراحم لن تأفلا
 فأقام في تلك الرّحاب ولم يزل بالعزُّ مرفوع الجناب مُجلاً

ومنهم العالم العلامة والأديب الكامل الفهامة المُعلّم بطرس
 كرامة، فإنه مدحه بهذه القصيدة الباهرة، والخريدة النفيسة الزاهرة
 مُعرضاً بها بمدح جناب أبيه المُعظم عزيز مصر القاهرة :-

فتح به الفتحُ القريب مُؤكّد وكواكب النصر المبين تُوقد
 والذهر بعد الغدر أصبح وافيّاً يُثني عليه بالجميل ويحمّد
 والعز أشرق في الديار مُبشراً رتب العلى والسعد جاء يغرّد
 ومحاسن الأيام ضياء جبينها بين الورى فكأنما هو فرقّد
 ما المجد إلا بالخسّام ولم يدم شرف الفتى ما لم يصنّه مُهنّد
 /١٠٢ وموارد اللذات حربٌ تضرّم الأعداء لا كأس تدور وأغيّد
 يا يوم عكة لم يدع ذكراً لما عبر الزمان به وما يتجدّد
 يوم به الحرب العوان تضرمت بقنابل مثل الصواعق ترعد
 رجمت بشهب كراتها الأنوار من لهب فذك الشامخ المتوطّد
 ورمت بصذور بروجها قلل القضا تلك المدافع فهي طوعاً تسجد

وَتَعَالَى الْقَبْرُ ذَاتَ بَيْنٍ حَصُونَهَا تَقْتَنَصُ كُلَّ مُنْعٍ وَتَمُهِدُ
فَتَخَالُ وَالْهَيْجَاءُ تَلْهَبُ حَوْلَهَا نَارَ الْجَحِيمِ بِجَوْهَا تَتَصَمَّدُ
سَبَقَتْ إِلَيْهَا الصُّبْحُ أَسَدَ عَرِينَهُ وَبَغِيرِ صُبْحٍ حَرَابِهِمْ لَمْ يَهْتَدُوا
مَنْ كُلُّ أَرْوَعٍ قَدْ تَعَوَّدَ فِي الْوَعَى أَخَذَ الْكُمَاةَ وَمَا يَقُولُ السَّيِّدُ
وَتَرَاهُ يَبْسُمُ لِلْكَفَاحِ كَأَنَّمَا وَرَدُ الْحِمَامَ لَدَيْهِ نِغَمَ الْمَسُورِ
وَتُبُّوا عَلَى الْأَسْوَارِ ثُمَّ تَسْنَمُوا الْأَبْرَاجِ وَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ مُجَرَّدُ
وَتَجَلَّدَ الْقَوْمَ الْعِدَاةَ وَإِنَّمَا لَمْ يُجِدْهُمْ عِنْدَ الْعِرَاكِ تَجَلَّدُ
/١٠٧/ نَشَرُوا جَمَاحَهُمْ وَلَمْ يَمْنَعَهُمْ مِنْ سَيْفِ أَجْنَادِ الْجِهَادِ مُشِيدُ
وَجَرَى النُّجَيْحِ عَلَى الطَّلُولِ فَخْضِبَتْ كَفَ الْمَعَالِمِ وَالصُّعَيْدِ مَسُورُ
أَمَسَتْ خِلَاءٌ قَدْ تَحْمِلُ أَهْلَهَا وَبِذَاكَ خَبَرَهَا الْغُرَابُ الْأَسْوَدُ
مَهْتُوكَةَ الْأَسْوَارِ تَشْقَى بَعْدَ أَنْ كَانَتْ هِيَ الْحِصْنَ الْمُنِيعَ الْمُسْعِدُ
عِزَّاءَ تَخْطِبُهَا الْمُلُوكُ وَلَمْ تَزَلْ بَكَرًا إِلَيْهَا قَبْلَ لَمْ تُتَمَذَّ بِسَدُ
حَتَّى أَتَى وَافْتَضَّ مَنَعَةَ غَرَهَا بِخُسَامِهِ أَسَدُ أَبَوِهِ مُحْمَدُ
مَوْلَى تَعَوَّدَ فَتَحَ كُلَّ مُحَصَّنٍ وَالْمَرْءَ مَشْغُوفًا بِمَا يَتَعَوَّدُ
سَلَّ أَهْلَ نَجْدٍ وَالْحِجَازِ وَسَلَّ بَنِي قَحْطَانَ عَنْهُ وَالْفَوَارِسَ تَشْهَدُ
يَوْمَ أَقَامَ الْحَرْبَ دَائِرَةً عَلَى الذَّرْعِيَّةِ الدَّرْعَاءِ وَهِيَ تَعْرِبُ
وَأَذَاقَهَا الطَّعْنَ الشَّدِيدَ فَأَخْرَجَتْ أَيْدِي الرِّمَاحِ فُؤَادَهَا يَتَتَبَّعُ
وَسَقَى غَيْبِ اللَّهِ بَعْدَ سَعُودِهِ كَأْسَ الْهَوَانِ وَلَمْ يُغْنِهِ الْمُنْجِدُ

وأغار في تلك الدُّعار خيلَه
 /^{١٠٧}هـ ولوى أعنتهم تكرر على بني حَام
 هلكت بنو السُّودان فوراً
 وإلى قتال المَورة المَوراء مُذ
 ولقد أتاها والغمرمَ مَزِيد
 وطى المعازل والحصُون وقادها
 سعدت به هذي الديار وأخضبت
 شهْم لو اسنم أبيه يتلى بالوغَا^(١)
 وإذا تعاطمت الأمور فلحظة منه
 لولاه ما سار الحَجيج ولم
 أمر الزُّمان بأن يُسالم أهله
 فاضت يده بالنُّوال سَحائباً
 ملك تتوَج بالمحامد والثنا
 /^{١٠٨}هـ ولقد غدا بين الملوك مُحمداً
 ولما أراد الله من شرف به
 ذو همة لا منتهى لمَرامها
 ويجل قدراً أن يقال غَضنفرُ
 حتى أراهم الظُّبا السُّدد
 فسل عما لفته الأعبُدد
 وانتثت يوم الوغى وسَوادها يتبدُّد
 رفع الشُّراع غدت تمُور وتخمُدد
 بعمرمَ من أسد لا يزيبُدد
 بمواقع تذكَّارهُنَّ مُخلُدد
 وبأهلها تشقى الدِّيار وتسعدُدد
 لتفرقت أعداؤه وتبُددوا
 تحل بها الأمور وتُعقدُدد
 يفز بزيارة البيت الحَرام مُحجُدد
 فاطَّاعه فيما يروم ويقصُدد
 هتاتها صَافي اللجين وغسجدُدد
 وبصارم النَّصر المَديد مقلدُدد
 وعلي شأن فضلة لا يُجحدُدد
 باسمين سُمي وهو نعم المقردُدد
 وعزائم ترقى السَّمَك^(٢) وتصدُدد
 عنه فكم ليث لديه مُخمُدد

(١) كذا بالأصل.

(٢) السماك، إحدى المجموعات النجمية في التقسيم الفلكي العربي الكلاسيكي، ابن طاروس : فرج المهموم بتاريخ علماء النجوم، النجف (د.ت) ص ١١٤.

أضحى به الملك السعيد مُشِيداً	والمجد من فرح يقوم ويقعد
وأبارت الأنصار شمسَ علائمه	فغدت تُسبِّحُ عدله وتوحد
لا تجزعى يا عكة من ذا البلاء	وتصبرى فالיום يعقبه غـد
وخُذي لك البُشرى فكفُ نواله	ستُعيد حيك للحياة وترفـد
ويفيض من مصر عليك جماله	فيجود ربك بالسُرور ويُعضد
أقسمت بالشرف الرفيع ومجده	وبجود كفيه وليست أُنـد
لو أن تُقام الزاخرات مدائحاً	منظومها بالزواهرات مُنضد
لم تُخص مدح أبي الخليل وإنما	بمدحه خلى النظام المُنشد
/١٠٨ظ لا زال مسعوداً يُصاحب جيشه	نصر من الله عليه مؤيد
وبفتح عكة سيف إبراهيم قد	قال المؤرخ ظافر ومؤيد

فأجزل جوائزهم وأحسن إليهم، وأفرغ خلع اللطف والإحسان عليهم.

قُلْتُ وقد تقدَّم البيتان اللذان اقترحهما الأمير بشير على الشيخ ناصيف ليقدِّمهما إلى مقامه السامي المتيف، فلما بلغاه تحرَّكت منه العواطف الأدبية، وأخذت بعطفه هزة الأريحية، لما كان مُنطبعاً عليه من حُبِّ الفصاحة والأدب، وذلك على جمعه بين السيف والقلم شاهد عجب.

فأرسل يطلب من الشيخ المذكور قصيدة على نسق قصيدة
السيد شاعر النحلاوي التي مدح بها الشيخ عبد الغني
النابلسي^(١)، ١٠٩/ فنظم القصيدة الآتية وقد أودع كل بيت منها
تاريخين، وافتتح صدورها بحروف إذا جمعت أغرّبت عن هذين
البيتين :-

أنت الخليل وفي الأطلال بردٌ لظي اطلالٌ عكا ورفض الرعب والحذر

كن بالغاً أوج سعد ما به ضررٌ ١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨
أو غالباً لم يزل في أوّل الظفرِ ١٢٤٨

١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨

وهما يتضمّنان ثمانية تواريخ في كل شطر تاريخان كأنها
فرقدانان^(٢) نيران، وأما القصيدة فهي قوله :-

الزهر تبسمُ نورا عن أقاحيها إذا بكى من سحاب الفجر باكيها

نور الأقاحي الذي ما بالحياة به من صحّة وصفاء عزّ مُشبهها

تلك الربوع لليلتي أين مربّعها ؟ عن قصده وسيوف العرب تحميها

أنماء تجني على الأكباد قاسطةً تبارك الله ما أحلى تجنيها

(١) عبد الغني النابلسي (١٠٥٠ - ١١٤٣ هـ / ١٦٤١ - ١٧٣١م) أصله عائلته من نابلس بالشام وإليها نسبته، شاعر وفقه وأديب متصوف مكثّر من التصنيف، ولد ونشأ في دمشق ورحل إلى بغداد ثم سافر إلى مصر والحجاز، ثم عاد واستقر في دمشق وتوفي بها، انظر الزركلي : الأعلام، بيروت (١٩٧٩) ٤ : ٣٢.

(٢) كذا بالأصل.

/^{١٠٩} لَيْلَى، وَلِي شَوْقٌ قَيْسَ فِي مُحَبِّبٍ
 خَالَ لَهَا عُمَةً وَرَدَّ بِدَا حَرَمًا
 اللَّهُ مُقَلَّتُهَا السُّودَاءَ صَائِدَةً قُلُوبَ
 يَقُولُ قَوْمِي رَوِيدًا قَدْ سَقِمْتَ هَوًى
 لَعَلُّ صَافِي نَسِيمٍ مِنْ خَمَائِلِهَا
 وَبِي رِقَاقٌ لَيْالٍ فِي النِّقَاءِ وَفَتٍ^(١)
 فِي جَنَّةٍ حُورَهَا تَزْهُو بِنَا وَبِهَا
 يَهْزُنِي ذِكْرُهَا وَجَدًّا فَأَعْلَمُهُ جُرْحًا
 أَسَاتُ كَتَمَ الْهَوَى وَالصَّبَّ كَيْفَ
 لَيْسَ الْهَوَى بِخَفِيٍّ عِنْدَ رَادِعَةٍ
 اسْتَوْدَعَ اللَّهُ صَبْرًا مَا أَمَارَسَهُ
 طَابَ الْهَوَى وَالضُّنَى وَاللَّوْمُ لِي
 /^{١١٠} لَيْلَى يَا لِحُظِّهَا الْجَانِي عَلَى كَبِدٍ
 أَنْ تَغْفُ طَوْعًا فَإِنْ الْعَفْوُ لِي أَرْبٌ
 لَيْتَ الصَّبَا عَادَ لِي بَعْدَ الْمَشِيبِ
 —————
 لَهَا فَشَغَرَهُ فَجَنُونَ شَابَةً فِي———
 فِي وَجَنَةِ حُمَيْتٍ عَمَّنْ يُدَانِيهَا
 عَشَّاقُهَا وَالْقِرْطُ رَاعِيهَا
 فَقُلْتُ مَهْلًا شِفَائِي فِي نَوَاحِيهَا
 أَتَى يَهْبُ عَلَى رُوحِي فَيَشْفِيهَا
 بِيضُ اللَّقَاءِ فَمَا أَهْنَى لِيَالِيهَا
 لَوْ كَانَ يَصْفُو خُلُودَ فِي رَوَابِيهَا
 وَرُوحِي تَرَاهُ مِنْ مَجَانِيهَا
 لَهُ سِتْرٌ وَأَدْمَعُهُ قَدْ هَلَ وَأَشْيَاهَا
 فَكَيْفَ نَاشِرُهُ يَطْوِيهِ تَمْوِيهَا؟!
 وَمُهْجَةٌ عَنْ جِسَانٍ لَسْتُ أَحْمِيهَا
 فَدَمِي أَسْرَفِي بِذَلِكَ فِي حَيِّ أَهْلِيهَا
 سَأَلْتُ أَسَى فِي الْهَوَى لَوْلَا تَأْسِيهَا
 أَوْ لَا فَرِيخَانِ رُوحِي فِي تَفَانِيهَا
 عَلَى شَرْطِ الْوَفَا وَهُوَ أَذْنَى مِنْ تَجْلِيهَا

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ، وَبَصَدَرَ الْبَيْتِ اضْطِرَابٌ وَاضِحٌ.

بكرٌ مُحِبَّةٌ لا تتجلى حياً^(١) حتى من النجم حتى ما يلاقىها
راق الدلال لها والذل لي أبداً ولم يرق كأس وردي من تدانيها
دمعي ومبسمها الدُر الثمين صدئ لمهجتني فبصبر القلب أرويهـ
لما رأت جدٌ وجدي في محبتها قامت بسيماء هزل عينها تيهـ
ظنُّ الجهول الهوى سهلاً لواجدٍ مهلاً فقد تاه جهلاً أو عمي تيهـ
يُهيجه غزلُ عينٍ جاء حائكه يُحيك برد الضئلي خلوا لهاويها
إن العيون التي بانَّت لطائفها لها خفاءٌ ومعانٍ ليسَ ندريةـ
طلسمٍ سحرها المرموز طالعةً أشكاله في سطور حار قاريهـ
لواظ لحن في زي الحِداد لكي يبرزن حزناً على قتلى رواميهـ
/^{١١٠} الناهبات البواكي المبكيات فقد كُفَّت عقول البرايا عن معانيهـ
لولا سواد لها ما ابيضُ فودي عن شيبني ولا اخمر دمعي من تهاديهـ
عسي الذي بصدودٍ جاء يأمرها يجيه غلظاً هدى فينهيهـ
كل الجراحات مُشفيها الدواء سوى جراحها أين حلتُ فهي مُشفيها
إلى العيون التي طرّفها حورٌ عهد الرعاية رقا من محبيها
ويلاه من زيفها داء تطيب به فلا شفيها بعثق من دياجيها

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "حي" أو "حياء".

رُوحِي وَعَيْنِي فَدَى عَيْنٍ مُطَهَّرَةٍ
 فِيهَا الْجَمِيلَةُ لَكِنْ بَيْنَ عَاشِقِهَا
 ضَاعَ الزَّمَانُ وَطَالَ الْوَجْدُ وَاشْتَابَنِي
 عَتَبُهَا قُرْباً فَازْهَدَها
 لِلشَّيْبِ أَنْفَعُ طِبٌّ فِي الْفَتَى نَبَأُ
 رَأْسٍ يَصْفِدُهُ نَامِي الصَّبَا عَثَا
 /^{١١١} عَيْشٌ قَصِيرٌ طَوِيلٌ الرَّعْبُ أَعْدُ
 بَرَقَ الْمُنَى خَلْبٌ إِلَّا أَقْلُ
 وَالنَّاسُ مِنْ يَشْتَهِي مَا الْمَطْلُ
 أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ بِلا عَمَلٍ
 لَوَامَةٌ أَوْقَفْتَنِي لَا أَطَاوَعُهَا
 حَلَّتْ لَهَا النَّارُ دُونَ الْعَارِ فِي دَوْلٍ
 ذَرْنِي وَمَا بِي، هَلْ لَوْمْ يَلُمُّ بِهَا
 رِمَاحَكُمْ يَا كِرَامَ الْحَيِّ لَا تَقْفُوا
 كُلَّ الْبَلَايَا مِنَ الدُّنْيَا مَتَى نَزَلَتْ بِنَا
 نَارٌ وَنُورٌ مَتَى قَالَ النَّزَالُ لَهُ
 وَمُهْجَةٌ لِلَّتِي بِالنَّفْسِ أَفْدِيهَا
 وَالصَّبْرُ جُودٌ قَبِيحٌ مِنْ تَجَافِيهَا
 أَسْقَى وَلَمْ يَقْصُرْ سَبَاقِي فِي تَصَابِيهَا
 وَعَيَّرْتَنِي بِشَيْءٍ جَاءَ مِنْ فِيهَا
 بِمَا يُوَافِي وَتَرْهِيئاً وَتَنْبِيها
 بِأَدْهِمِ الشُّعْرَةِ النَّدَابِ نَامِيها
 لَهُ مَا يَقْصُرُ النَّفْسُ قُرْباً نَحْوَ بَارِيها
 حَسْبِي تَقَرُّ عَيْنٌ بِهِ رَصْداً يُسَلِّيها
 حَاصِلُهُ وَمَنْ تَفِيهِ عِدَاةٌ نَامِ دَاعِيها
 وَمَنْ تَدَارِكُ نَفْسٍ كُلِّ رَاعِيها
 وَلَا يُحِبُّ ضَعْفِي أَنْ أَعَاصِيها
 مِنْ حَاسِدِيها بِأَرْضٍ سَالٍ وَادِيها
 وَقَدْ مَلَنْتُ وَمَلَتْ مِنْ أَعَادِيها ؟^{١٢}
 وَلَا تَرْعُكُمْ بَلَى جَدَّتْ ذَوَاهِيها
 فَنِيرَانُ إِبْرَاهِيمَ^(١) تُقْنِيها
 وَالْجُودُ هَاتِ يَدَا لَمْ يُلْقِ ثَانِيها

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ.

بَنَى مِنَ الْعِزِّ بَيْتًا دُونَ أَعْمَدَةٍ
 اللُّوْذَعِيُّ الْعَزِيزُ الْبَاسِلُ الْمَلِكُ
 /^(١) لِلسَّيْفِ وَالرُّمْحِ وَالْأَقْلَامِ قَدْ
 غَاظَرَ مَهْيَبَ حَسِيبٍ مَاجِدٍ نَجَبٍ
 أَقْوَالُهُ خُطْبٌ، أَعْمَالُهُ شُهْبٌ
 أَحْيَى^(٢) الْمَحَامِدِ مَفْدَاةً مُسْلَمَةً
 وَرَدَ مَا مَرَّ مِنْ عَدْلِ الصُّحَابَةِ لَا
 جِرَارَ خَيْلٍ يَحِلُّ الْبَاسُ جَانِبَهَا
 سَلَّ قَوْمٌ عِكَاءَ حَيْنٍ أَرِيدَ مَشْرِقَهَا
 عَبْدَ الْخَلِيلِ لِعَبْدِ اللَّهِ صَارَ بِهَا
 دَاسُ الْبِلَادِ بِإِذْنِ اللَّهِ يَكْسِرُهَا
 مَاجَتْ سَرَايَاهُ أَمْجَادًا بِسَاحَتِهَا
 أَحْبَبَ بِأَصِيدٍ تَحْكِي^(٣) الدُّهْرَ
 بَعِيدُ قَدَرٍ عَنِ الْأَمْثَالِ لَيْسَ لَهُ شَبِهُ

سِوَى قَنَاصَةٍ لَهُ عَزَّتْ مَبَانِيهَا
 الْغَازِي الْمَلَأَ بِيَدِهِ حَسَنِي أَيْدِيهَا
 وَلَدَتْ رَاحَاتُهُ وَلَسْوَالِ تَفَاجِيهَا
 صَافِي الصِّغَاتِ نَفِيسِ النَّفْسِ زَاكِيهَا
 أَرَاؤُهُ قَضَبٌ بِاللهِ حَامِيهَا
 أَلَيْسَ أَمْوَالُهُ تَفْنَى وَتُبْقِيهَا ؟
 يَلْهُو بِزَهْرٍ وَلَا خَمَرٍ يُعَاطِيهَا
 وَالْفَتْحُ وَالْحَتْفُ عَدْلًا بَيْنَ أَيْدِيهَا
 وَالشَّامُ وَالتُّرْكُ لَمَّا اسْوَدَّ نَادِيهَا
 اسْمَاءُ، وَشَبَّهَ اسْمَهُ رَاحَتِ اسْمَامِيهَا
 وَتَكَسَّرَ^(٢) السَّيْفُ نَزْعًا مِنْ نَوَاصِيهَا
 تَبْقَى وَفِيًّا وَتُبْلَى مِنْ يُعَادِيهَا
 هُمَّتُهُ لَكِنْ مَتَى نَابَ شَرٌّ مِنْ يُحَاكِيهَا؟
 فَمَا مَدَحُهُ مَا جَاءَ تَشْبِيهَا

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ.

(٢) كَذَا بِالْأَصْلِ، وَالصَّوَابُ "يَكْسِرُ".

(٣) كَذَا بِالْأَصْلِ، وَالصَّوَابُ "يَحْكِي".

به بعد الذُّهاب جُلَى الطُّرُق جَالِيهَا	١١٢/ هو الذي حجَّ آل البيت ^(١) جاء
أهداه إلا يَبْرُق البَيْض والِيهَا	ضل السُّعُودِي وهاب السُّوَاد فما
وفرض الجَدُّ بالجَدُوى يُوالِيهَا	رسُول حق نزال الحَرْب سُنَّتْهُ
فِيهَا القِتَالُ وأُمُّ الرُّومِ يرمِيهَا	دام الحِجَاز وسُود الزَّنَجِ ثم وفي
الأَيَّام فوق سُروج الخِيَل يُدْمِيهَا	الله أكبر، هذا حالُ من جلس
في ما يَقُوم ولم تحصر مَسَاعِيهَا	والْحَمْد لله لم تقصُر بواكره
نصرَ قَرِيب على لُطفٍ يُماشِيهَا	غِلاب نَادٍ، وأجناد يعاهدُ
الأسْنَى وآيات عدلٍ لست أخْصِيهَا	أخْصِي المُنَى والثَّنَا والحَزْم والكَرَم
هُمَّا فجود يديه جاء يُغْنِيهَا	لا أعقب الوَيْل مُصرّاً وهو تاركها
وصِمَصامة سُبحان باريهَا	بحرٌ ويدرٌ وليثٌ لا يُرد له أمر
سُلْطان سَاحات برِ العَرَب وأقِيهَا	أبو الفُتُوحات، أم الحَرْب طاهيها ؟
أَبَقَى التَّلَاد بما خَاطت أَقاصِيهَا	له البلاد بأشخاصِ العباد بما
طوارِق الرُّوع باسم منهُ يَأْتِيهَا	١١٢/ مُحَمَّديُّ عليٍّ شأنه كَسرت
إلا حَنايا ظُعمون وهو خَاديهَا	يا يوم عُثْمان لم يقظ بِيَاكره
فولت القَهْقَرى والجسم يُعْنِيهَا	زَلَّت به قدَمُ جَآءت به مرحاً

(١) كذا بالأصل، وبصدر البيت اضطراب واضح.

لسيف سلطان مصر هينةً لقي	البلاد حي بها يا سيف غازيها
فاق الثنا أنك الدنيا وقاهرها	سعداً وحاكمها حقاً وقاضيها
يا فاتح المنصب الطاري ندئ وردئ	على الصدى والعدى يُخلي طواريها
أتيت نحوك أحيي الليل عن عجل	واقئل الخيل جواباً أزجيها
والله يشهد كم ليل سهرت بكم	أجلو رقيقة ذرُ رد جاليها
لم يأتها قبل إلا شاكر عجباً	وجئت بعد فأفدتني قوافيها
أبقت صداعاً براس راح يسلبه	وحبذا سلب أدواء تداويها
لم ألق كفواً لها ممن رفعت	يدي قبلاً إليه فلم أهتم تنزيها
ظل البديع لها عبداً يلم بها	وكل خطب سليم عند راقبيها
/ ^{١١٢} فأنعم بها، وهي فلتنعم بمكرمها	جوداً ومُعظهما جاهاً ومعليها
راقت كأدنى معانيك الجسان	فما آيات حق كشط من مبانيتها

سنة ١٢٤٨

فلما وقف على هذه القصيدة الأنيقة، وتأمل ما فيها من الألفاظ الرقيقة، والمعاني النفيسة الدقيقة، مع ما انطوت عليه من سلامة التركيب وحسن الأنسجام وعدوبة الأساليب، وعلى ما فيها من الصناعة التاريخية، والالتزامات البديعية أعجب بها غاية الإعجاب، ووقعت عنده موقع الاستحسان والاستعذاب، فأنفذ إليه عشرة آلاف

غِرش، وخَاتَمًا من الياقوت الفاخِر على ما اعتاده من جميل المكارم،
وبديع المآثر.

١١٣/ واستقرت لإبراهيم باشا ولاية عربستان فنادى بالعدل
والأمان، وعامل الناس باللطف والإحسان، وضبط الأمور والأحكام
على أحسن ترتيب وأكمل نظام، وأقام سعادة شريف باشا حكاماً
على مدينة دمشق الشام بأمر الحضرة الخديوية - ذات المآثر السنية
- فعلا في البلاد شأنه، وارتفع مكانه، وساعدته الأقدار ودانت له
الأقطار، واستتار عموم الأهالي بصبح عدله المتلالي في ظلمات
الليالي.

١٠ ومن أعماله المرضية لثقافته إلى أخبار الرعية، والبحث عن
أحوال الأحكام، وتصرفات الولاة والحكام، بحيث لا يراغون في
الحق أميراً، ولا كبيراً ولا / ١١٤ صغيراً.

١٥ وكان إذا سافر إلى بلد لا يحب أن يدخلها بالاحتفال وكثرة
العدد، بل متخفياً حتى لا يعلم به أحد، ولم يكن يفرق في التأديب بين
القوي والضعيف، والحقير والشريف، ولا يراعي جانب أحد في
القصاص ولو كان من أحبائه الخواص، ولذلك لم يكن أحد من أجناده
وأكابر ضباطه وقواده يتجاسر أن يحيد عن طريق الصواب بشيء
من أنواع الظلم والارتكاب.

٢٠ وكان الناس يهابونه ويحترمونه ويخافونه لشدة بطشه
وصرامة أحكامه، ولذلك انتشر العدل والأمان في أيامه فإن بعض

التجّار - من أهل المتأصف والشحار - ذهبوا /^{١١٤} يشترون غنماً من نواحي حمص وحمّا^(١) فسطا عليهم قوم من العرب وسلّبوا ماكان معهم من الفضّة والذهب، فحضرُوا إليه وتمثّلوا بين يديه وشكّوا أمرهم لدولته، فأمر لهم بدفع المّال من خزينته، وأرسل واحداً منهم من ذلك اليوم دليلاً على أولئك القوم، فحصل منهم ما سلّبوه من الذّراهم، وأدّبهم بالقصاص الصّارم، فتأمّنت الطرقات وتمهّدت السبل في سائر الجهات، وانقطعت أسباب الفتن والحركات حتى لم يعد أحد يتعدّى على أحد، فكانت النّعمة ترعى مع الذّنب، والخروفاً يبيت في حُسن الأسد.

حادثة عجيبة ونادرة غريبة

/^{١١٥} وكان إبراهيم باشا مع شجاعته وحسن تدربه في أبواب الحرب وبراعته ذا سياسةٍ ونباهةٍ وفراصةٍ، وله في ذلك نوادر كثيرة وحكايات شهيرة، منها أن رجلاً من أهل رأس بيزوت مرّ ذات يوم على الرّمل^(٢)، وأوغل في ذلك السّهل فرأى في طريقه رجلاً مقتولاً في تلك القفار، فارتاع لمنظره، وأخذته الرّعدة والاقشعرار، فرجع على الأثر، وحدث المتسلّم بذلك الخبر.

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "وحماة".

(٢) كذا بالأصل.

وكان مُتَسَلِّم المدينة يومئذ رجلاً عليَّ الهمم، موصُوفاً بمكارم الأخلاق وحُسن الشَّيم، ممدوحاً عند الغائب والشَّاهد يقال له حُسَيْن افندي راشد، فبادر بإحضاره واستكشَّاف أخباره، /^{١١٥} وإذا هو رجل غريب، ليس له في المدينة خليل ولا قريب، فتألَّم المُتَسَلِّم قلقاً وكدرأ، وقبض من أهل رأس بيروٲ على نحو عشرين نفرأ، وسألهم عن ذلك المقتول فقالوا ليس عندنا علمٌ بشيء مما تقول، فتهددهم بالضرب الأليم، وألقاهم في السجن تحت الترسيم، وكان كثيراً ما يستحضرهم ويتهددهم ويسألهم ويتوعدهم.

- وانفق حضُور إبراهيم باشا في تلك الأيام من مدينة دمشق الشَّام، فأوقفه المُتَسَلِّم على واقعة الحال، وأخبره بما فعل من حبس أولئك الرِّجال، فقال له :- "إنك بما فعلت قد أخطأت الغرض، وركبت الشُّطط ؛ لأنه من المُستحيل أن يكون القاتل أكثر من /^{١١٦} رجل أو رجلين فقط، وها أنت قد سجنت نحو عشرين رجلاً من أهل البلد من حيث لم يقع لك شُبْهة منهم على أحد"، ثم أمر بإخراجهم من السجن وإحضارهم إلى ما بين يديه، فأخرجوهم وأحضرهم إليه ؛ فتأمل فيهم واستنطقهم، وبعد ذلك أطلقهم واستدعى بأحد الجاويشية وأصاحبه بخمسة أنفار من البلطجية، وقال له أريد منك أن تذهب إلى رأس بيروٲ في الحال من غير إهمال ولا إهمال، وتأتيني بأصحاب الدُّكاكين والخمَّارات الذين يبيعون المُسكرات، فامتثل ما أمر، وفعل كما ذكر.

ولم تكن إلا ساعة حتَّى جاءهُ برجلين من تلك الجماعة، فاخْتَلَى بأحدهما وقال له اصنِّدني /^{١١٦} بالكلام وإلا انتقم منك أشد

الانتقام، هل مرُّ عليك منذ يومين أو ثلاثة أيَّام بعض أنفار ومعهم رجل غريب الدِّيار؟، فقال لا والواحد الأحد إنه لم يمر علي أحد، ثم طلب الآخر وسأله ذلك السؤال وتهده بالمقال فقال نعم يا ولي النعم، قد حضر إلى دُكاني منذ يومين عند المساء ثلاثة أشخاص غرباء، فطلبوا منِّي طعاماً وفاكهة ومُدماً، فأتيتهم بالمطلوب من المأكول والمشروب، وأقاموا عندي ولعبوا بالقمار طول ذلك النهار، ثم انصرفوا بالسلامة والأمان، وفي الصُّباح رجع منهم اثنان، فقال له إبراهيم باشا لقد قلت الحق ونطقت بالصدق، وأنا أريد الآن إخضارهما /^{١١٧} منك حتى أطلق سبيلك وأصطحبك، ثم أمر الجاويش أن يذهب معه ويعاونه في التفتيش، فذهبا جميعا ولم تكن إلا ساعة حتى أتيا بهما إلى حضرته سريعا، فقال لهما ويلكما أصدقائي أين رفيقكما الذي كان معكما في اليوم الفلاني؟، فلما سمعا كلامه وعرفا مرامه رجف قلبهما، وازداد رعبهما، ولم يسعهما إلا الإنكار خوفاً من الهلاك والبوار ونزول الدمار.

فألقاهما تحت الضرب والعقاب، ولما طال عليهما العذاب أقرأ بأنهما قتلاه وأخذا ماله ودفناه، فالتفت إبراهيم باشا إلى المتسلم وأرباب الديوان ومن حضر في ذلك المكان من الأكابر والأعيان وقال لهم هذان هما المجرمان، ليس كما ظننتم أنتم، /^{١١٧} فتعجب الحاضرون من فطنته وقوة ذكائه ومعرفته، فأمر بقتلهما أمام الجمهور، وأن يلقوهما في ذلك المكان الذي قتل فيه ذلك الرجل المذكور، وكان ذلك الدكان الذي سكروا به، وقتل ذلك الرجل بسببه

يُقال له دكان الزَّيدانيَّة، فأمر بهدمه ونعطيله بالكُلَّة، وبقي مهدوماً معطلاً إلى أن خرجت الدولة المصريَّة من بلاد سُوريَّة^(١).

وفي تلك الأيام اعتزَّ الأمير بشير بإمداد إبراهيم باشا وتأييد، وطالت يده في ولايته وتشيِّد^(٢) حتى كان يُحسب أن ذلك الزَّمان كان أول حاكم على جبل لبنان مع أنه كان والياً في الجبل المذكور منذ خمس وأربعين سنة وكسُور، ولكن كانت /^{١١٨} يده مغلوله من مناصب البلاد، فلم يكن يستطيع أن ينفذ أحكامه على حسب المُراد، لأن مُشير الأحكام في تلك الأيام كان تارة لا يقدر أن يُعطيه قوَّة ليتقوى عليهم، وتارة [كانوا]^(٣) يستميلونه بالرشوة فينعطف إليهم.

فلما تولى إبراهيم باشا التي^(٤) كانت ترجف الجبال من سطوته، وترتعد فرائصُ الرجال من هيبتِه ؛ انبسطت يد الأمير بهيبة هذا الوزير، حتى صارت المناصب وأهل الجبل تخاف من خادمه أكثر ممَّا كانت تخاف من شخصه في الأيام الأولى.

(١) يقول المؤلف المجهول أن إبراهيم باشا هو الذي أمر بإنشاء الخمارات في بلاد الشام، ولم تكن تلك المواخير معروفة آنذاك بالشام وهذا واضح من استيلاء المؤلف المجهول الذي قال ما نصه "وتشوّف الاسلام بأسوأ حال لأنه شيء مثل هذا عمره ما صار ببلاد الشام" كما أن إبراهيم باشا طلب أن يكون ضمان الخمارات بالشام سبعمائة كيس سنوياً، انظر مذكرات تاريخية، ص ٦٦.

(٢) كذا بالأصل، ولعله أراد "وتشيّد".

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

(٤) كذا بالأصل.

في تمرد دروز خوران مع شبل العريان وانقيادهم إلى الطاعة بعد العصيان

فلما استخلص إبراهيم باشا قطر الشام وصفت له الليالي
والأيام^{١١٨} كما تقدم الكلام أرسل الأوامر والمناشير إلى الأمير
بشير يطلب منه أن يجمع من الدروز ألفاً ومائتي نفر ليدخلهم في
سلك العسكر، فامتثل أمره وبادر بالعجل، واستدعى إليه مناصب
دروز الجبل، وأخبرهم بما كان، وعيّن على كل مقاطعة كمّية من
الشبان، وأمر المناصب وأرباب الوظائف والمرااتب أن لا يأخذوا من
ليس له عوض، ولا من يكون به علة أو مرض، وأن ينتخبوهم من
ابن خمسة عشرة إلى ابن خمس وعشرين سنة، وحدّد لهم في ذلك
مدة معيّنة.

فلما شاع هذا الخبر ونما بين الدروز وانتشر أثر ذلك في
قلوبهم أعظم أثر فهاجّت منهم الشبان، وأظهروا الخلاف والعصيان،
فغضب^{١١٩} الأمير من أعمال الدروز وقال لهم إنكم تريدون أن
تعصّوا الحكومة وذلك لا يجوز، فيلزم أن تطيعوا الأوامر وإلا
أذهمكم بالعساكر، وأنهب أموالكم وأقتل أطفالكم، ثم جمع إلى بيت
الدين جميع المطلوبين وأرسلهم إلى عكا بالقوة الجبرية امتثالاً
للأوامر السنيّة، وهناك أدخلوهم في وجّاق العسكرية.

واتفق بعد ذلك بأيام أن إبراهيم باشا كتب إلى شريف باشا
والي دمشق الشام يأمره بأخذ نظام من دروز خوران ووادي التّيم
وإقليم البلان، فأجاب بالسّمع والطاعة، وشرع في ذلك الأمر من تلك

الساعة، فلما بلغ الدُرُوز هذا الخبر زاد عندهم القلق والضرَج، فأظهروا له التمرُّد والعناد، وعدم الطَّاعة والانقياد، فازداد /^{١١٩} شَرِيف باشا عليهم حقاً وكدرأ، وأرسل لمحاربتهم عسكراً فلم يظفر منهم بمُراد لأنَّهم كانوا قد اتَّحدوا مع عرب تلك البلاد، وأنضاف إليهم جماعة من دُرُوز لبنان وسكان وادي التيم وإقليم البلان، وغيرهم من أهل البَغْي والفساد تحت راية الشَّيْخ حسن جُنْبلاط، والشَّيخ ناصر الدِّين العماد حتى صاروا في عشرة آلاف مقاتل بين فارس وراجل، فكانوا يربطون مسالك الطُّرُق وينهبون القوافل بين بيروت ودمشق ويقتلون من استقردوه من عسكر النُّظام، ولم يحسبوا في كل ذلك لعواقب الأيَّام.

٥

١٠

فلما رأى شَرِيف باشا ما فعلوه أرسل إليهم عسكراً آخر فحاربوه وهزموه، وكانت دُرُوز /^{١٢٠} وادي التيم وإقليم البلان ينجذونهم بالرِّجال والفرسان، ولما بلغ إبراهيم باشا هذا الخبر استولى عليه الغيظُ والكدر، وكتب إلى أبيه بمصر يُعلمه بهذا الأمر، ويلتمس منه إرسال عسكر من الأرناؤط بالعجل لأنَّ عسكر النُّظام يتعسَّر عليه الحَرْب في الجبل، فجهَّز له أربعة آلاف مقاتل تحت لواء مُصطفى باشا كامل - وكان بطلاً هُماماً، وشجاعاً مقداماً - فوصل في أقرب زمان إلى عربستان، وحارب الدُرُوز في الوَعة سنة ألف ومائتين وإحدى وخمسين من الهجرة، وجرت بينه وبينهم عدة وقائع مُكررة في تلك الأماكن المُوعرة.

١٥

٢٠

وكانت دُرُوز البلاد ومن اشترك معهم في هذا الفساد تتجدهم أولاً /^{١٢٠} سرّاً ثم علناً وجهراً تحت راية شبل العريان، وكان من

فحول الفرسان، موصوفاً بالشجاعة وقوة الجنان، فغضب إبراهيم باشا بهذا السبب، وكتب إلى الأمير بشير من حلب يذكر له ذلك الخلل الواقع من دروز الجبل، ويأمره أن يبادر في الحال بإرسال حفيده الأمير مجيد^(١) قاسم في جماعة من الأبطال إلى وادي التيم وإقليم البلان لإرهاب دروز لبنان لنلاً ينجذوا دروز حوران، وأن يرسل حفيده الأمير محمود خليل إلى حاصبيا على الأثر في ألف وخمسمائة نفر ليقم في دار سرايا الأحكام مع عسكر النظام؛ فأجاب وامتثل، وأرسلهما على عجل.

ولما بلغ الأمير مجيد إقليم البلان أطلق /^{١٢١} الغارة على العصاة المتجمعين في ذلك المكان، فهزمهم^(٢) على أعقابهم، واستولى على أسلابهم بعدما قتل منهم مائة وخمسين رجلاً، وملاً قلوب من بقي خوفاً ووجلًا، وأما الأمير محمود فنزل في دار السرايا بمن معه من الجنود، وفي أثناء ذلك قدم إبراهيم باشا إلى حاصبيا^(٣) للانتقام من الدروز، وكان وصوله إليها في اليوم الخامس من شهر تموز، وكان قد بلغ الدروز في بعض الأيام أنه قادم ذحائر إلى عسكر النظام من مدينة دمشق الشام فطمع الشيخ حسن جنبلاط بتهبها وأرسل خمسمائة نفر لأخذها وسلبها، فالتقوا بها في بعض الطريق، وكانت عدة صناديق من البارود والدقيق، /^{١٢١} فلما أبصروها انقضوا عليها واستخلصوها.

(١) كلمة "مجيد" استدرأك أثبتته المؤلف أعلى السطر بين كلمتي الأمير - قاسم.

(٢) كذا بالأصل، ولعله أراد "فردهم".

(٣) حاصبيا مدينة صغيرة تقع على نهر الحاصباني إلى الشرق من مرج عيون.

وأنفق في ذلك الوقت قدوم مُصطفى باشا من الوَعرَة
بالعساكر فالتقاهم في الطُّريق واستخلص منهم المُون والدُّخَان، فلما
بلغ الشُّيخين هذا الخبر بادر الشيخ حُسين على الأثر وقصد ذلك
المكان بسُبعِمائة نفر، وتبعه الشيخ ناصر الدين بِسِتْمائة وخَمسين،
ولما أشرفوا على المكان المعهود أطلقوا على مُصطفى باشا نيران
البَارود، وعلا ضجيجهم كأصوات الرُّعود، فاستقبلتهم الأرناؤُط
بقلوب كالجمال، واشتبك بينهم القتال، وأخذت نيران الحرب في
الاشتعال حتى تزلزلت من ضجيجهم أرض وادي التَّيم.

وكان الرُّصاص يتناثر كالبرد، ودُخان /^{١٢٢} البَارود غطى
الآفاق كالغيم، واستمر القتال بين الفريقين نحواً من ساعتين، وكان
إبراهيم باشا يومئذ في حاصبيا بالقرب من ذلك المكان، فلما بلغه
الخبر نهض مسرعاً بأربعمائة مقاتل من الفرسان، ولما وصل إلى
ساحة المَغمعة ورأى تلك الأحزاب المتجمعة أطلق عليهم نار
الدَّائمة^(١)، وأمر العساكر أن تُبادرهم بالمُهاجمة، فأطبقوا عليهم من
كل جانب، وحملوا عليهم كالسَّلاهب^(٢)، وضيقوا بهم المَسالك
والمَذاهب، وأخذوا يذبُّونهم كالغَنَم، ويقطعونهم تقطيع لحم على
وضَم، فقتلوا منهم سِتْمائة وعشرين، وكان من جملة المقتولين الشيخ
ناصر الدِّين، ولم ينج من أصحابه سوى خمسين.

(١) كذا بالأصل.

(٢) كذا بالأصل.

وأما الشيخ /^{١٢٢}ظ حسن جنبلاط ومن بقي معه من مشايخ
الأرهاب فلما أيقنوا بالعطب، وعلموا أن لا نجاة لهم إلا بالهرب، ولوا
بكل خفة وسرعة، وقصدوا قرية شبيعة، فدهمهم إبراهيم باشا في ثاني
الأيام بجموع الأرناؤط وعسكر النظام، فانقلبوا على أعقابهم يطلبون
الفرار، وقتل منهم جملة أنفار، وفر شبل العريان بمائة فارس إلى
حوارن، ودخل المصريون إلى القرية فنهبوها، وقتلوا من وجدوا بها
من العصاة وأحرقوها، ولم يبق من أهلها إلا من كان طفلاً أو نائحة
تصرخ صراخ الثكلى، ثم أحرقوا بعدها أكثر القرى، وتركوها غير
لمن يرى، فندمت الذرور على ذلك الرأي الوخيم، ولم يعد يمكنها إلا
الانقياد والتسليم، /^{١٢٣}ظ والامتنال لأوامر إبراهيم.

ولما ينس شبل العريان من بلوغ الوطر، ورأى نفسه عرضة
للخطر؛ ندم على سوء عمله، وأيقن بحلول أجله، فحضر في جماعة
من الأبطال إلى إبراهيم باشا - صاحب السعادة والإقبال - فاعتذر
إليه ووقع على قدميه ملتمساً منه الرضى والعفو عما مضى، فتعطف
عليه بمراحمه، وصفح عن جرائمه، وغمره في بحر كرمه، ونظمه
في سلك خدمه، وجعله قائداً على ألف فارس من الهوار^(١)، فاكتسب
فخراً واعتباراً وتحسنت أحواله بهذه الخدمة وصار له بين الناس
منزلة وحرمة.

حرب نرب على وجه مختصر

وفي سنة ١٢٥٥ هجرية الموافقة لسنة ١٨٣٩ مسيحية /^{١٢٣}ظ
صدرت الأوامر السلطانية إلى حافظ باشا أن يتجهز في الحال ويسير

(١) كذا بالأصل.

بالرجال والأبطال لاستخلاص بلاد سورية من يد الدولة المصرية، فامتثل الأمر المطاع، وسار على قدم الإسراع في تسعين ألف مقاتل بين فارس وراجل، قاصداً عربستان من غير تأخير ولا توان، وما زال سائراً بذلك الموكب حتى انتهى إلى نِزْب^(١)، وهو سهل فسيح الرحاب بين بَرَجِيك^(٢) وعَيْنَتَاب، فزحف إليه إبراهيم باشا بالعساكر المنصورة، وصنمه يوم الجمعة الواقع في^(٣) من السنة المذكورة، وبعد المصادمة من العسكرين والمكافحة من الطرفين تزعزعت جيوش الأتراك ووقعت في / ١٢٤٤ء سوء الارتباك من تواتر الحملات والهجمات، وضرب السيوف وطعن السنكات، فتأخر إلى الورا، وتقهقرت في تلك الصحرا طالبة مَرَعش وتلك الأطراف، بعد أن قتل منهما نحو ثلاثة آلاف، وأسر حافظ باشا وزيرها ومدبر أمورها ومشيرها، واستحوذ المصريون على مهماتها وأثقالها، واستولوا على ذخائرها وأموالها.

ورجع إبراهيم باشا ظافراً منصوراً، وعدوه مُذْبِراً مهزوماً، وانتهى إلى الأستانة خبر هذا النصر بعد ثمانية أيام من وفاة السلطان محمود، وجلس ولده السلطان عبد المجيد.

في خروج الدولة المصرية من بلاد سورية

وكان بعد أن فاز إبراهيم باشا وانتصر في حرب نِزْب / ١٢٤٤ء - كما تقدم الخبر - ورفعت جيوشه رايات النصر والاستظهار،

(١) نِزْب أو نِزيب مدينة تقع على التخوم بين الشام والأناضول وهي اليوم على مقربة من خط الحدود السورية التركية، تقع بين عينتاب وبراجيك.

(٢) بَرَجِيك مدينة تقع بين سروج إلى الشرق ونِزيب إلى الغرب.

(٣) بياض بالأصل.

وحلّ ما حلّ بأعدائه من السقوط والانكسار، حاذرت الدول الإفريقية أن يفتح القسطنطينية، ويجلس على تخت السلطنة العثمانية، ولذلك اتحدت الدولة الإنكليزية مع الدولة الروسية والنمساوية البروسيانة على ترجيعه من تلك الديار، إما بالطوع والاختيار، أو بطريق الإكراه والإجبار. ٥

وفي ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ مسيحية عقدوا في مدينة لوندرا جمعية للبحث والمفاوضة بهذه القضية، وبعد عقد جلسات متعدّدة فرضوا عليه شروطاً وأحكاماً مقيدة، وبنوا على ذلك التحالف والمعاهدات على ما أرادوا من المقاصد والغايات، وأمضى بالمصادقة /^{١٢٥} كل من تلك الدول المشار إليها، فكان جلّ ما سطره وفحوى ما استحسنوه وحرّروه هو تقرير ذلك الهمام الأعظم والخبير الأكرم الأفخم محمد علي باشا - ذي الأخلاق الرضية - على ولاية الأقطار المصرية مع قسم صغير من الديار الشامية، ويكون ذلك من بعده لذريته وأولياء عهده، وشدّدوا عليه في الكلام أنه من بعد وقوفه عليها بعشرة أيام يسحب عسكره من أطراف بر الشام بلا نزاع ولا خصام. ١٥

فعند وقوف ذلك البطل الهمام، والليث الباسل الضرغام على هذا الطلب - الذي يستحقّ العجب - عظم الأمر لديه، ولم يُصادق عليه لكونه /^{١٢٥} خارجاً عن دائرة العدل والإنصاف، وكأنّ ما حملهم عليه [هو]^(١) الميل والانحراف، فما كان من الملوك المتحدّة ٢٠

(١) زيادة اقتضاها السياق.

والدول المُحتشدة إلا أنها اتفقت مع الدولة العليّة بإشهار الحَرْب على الدولة المصريّة، وأرسلت الدولة الإنكليزية سنة ١٨٤٠ مسيحيّة عمارة بحرية مشحونة بالعساكر والمُهمّات الحربية إلى أساكن سُوريّة تحت قيادة اللورد شارلس ستابغورد، فضرب بيروت الضُرب المهُول، فسُلّمت في الحادي عشر من شهر أيلول، وأما باقي الثُغور كطرابلس وصيدا وصُور فحيث لم يكن فيها من القلاع ما يقوم بحقّ الدّفاع اضطرّرت أيضاً إلى التّسليم بعد جهاد عظيم.

١٢٦/ ولما استولوا على هذه الأساكن شحّنها بالعساكر والجحافل، وقصدوا قلعة عكا الشهيرة بتلك المراكب والقوآت الكثيرة، وأطلقوا عليها مدافعهم وقنابلهم، وكانت المدينة تُحاربهم وتُناضلهم، وجنودها تجد في نيل مراكز المجد والظفر، غير مُبالية بالأهوال والخطر، واستمر القتال على هذا المَنوال ثلاث ساعات بلا انقطاع ولا انفصال حتى أوشك أن يكلُ كلا الفريقين سوّيّة، وكادت تقع الكسرة على القوآت الأجنبية، فاتفق بأمر الواحد الأحد، والفرد الصّمد وقُوع كلّة على جَبْخانة البلد فاحترقت في الحال، وقتلت عدداً كثيراً من الرجال، وبهذه الوسيلة ضعفت قواها /١٢٦هـ وسُلّمت إلى عداها.

٢٠ وكان حدوث هذا الأمر الرّبّاني في اليوم الثالث من شهر تشرين الثّاني، وحينئذ استولى عليها المتعاهدون وهم ببطش العساكر المصرية وبسالتهم يتحدّثون، ولما رأت الحضرة الخديوية أنها أُمست تُحارب أقوى الدّول الأوربّاوية ؛ سحبت عساكرها من الدّيار الشّامية بعد حرُوب عديدة، ووقائع هائلة شديدة.

وما زال مُحَمَّد علي باشا في عزّه وفخره، ونهيه وأمره إلى أن بلغ الثمانين من عُمره، فاعتراه مرضٌ سَوْدَاوي أحدث خللاً في فكره - الذي كانت تضرب بصحته الأمثال، وتستمد به فحول الرجال - وبعد ذلك بسنة انتقل إلى /١٢٧ هـ جوار الملك العلّام، وكانت مدة حكمه خمساً وأربعين سنةً وعشرة أيام، وكانت وفاته في اليوم الثامن من شهر آب سنة ألف وثمانمائة وتسع وأربعين مسيحية، الموافقة لسنة ألف ومائتين وخمس وستين هجرية، فتقطعت عليه القلوب حسرات، وانسكبت لفقده العبرات، وعظم ذلك على جميع أهل مصر، وناحوا عليه نواح الخنساء على صخر.

١٠ فسُبْحان الحيّ الدائم صاحب الملك والجبروت والصُّمد الذي لا يتغير ولا يموت، وكان يُلقب بالخدوي نسبة إلى "خدائي"^(١) بالفارسية وهو اسم الله، وجرى هذا اللقب من بعده على أولياء عهده وخلفاء الذين سمّت بهم المراتب، وعلا مجدهم هام الكواكب، /١٢٧ هـ وسارت بذكرهم الرُّكبان، وهامت الشعراء بمدحهم في كل مكان.

ولاية الهمام الأعظم إبراهيم باشا الأتعم

١٥

تولّى بعد تنازل أبيه، وكان في الأحكام يقتضيه، وقد ذكرنا فيما تقدّم مناقب هذا الأسد الغشْمَشَم، والخدوي الأعظم، وما أجرى الله على يده من الوقائع المشهورة، والفتوحات الماثورة، فلما استبدّ

(١) خدائي بالفارسية هي اسم الله المركب تركيباً مزجياً من خود بمعنى الذات ومن آي بمعنى أتى والمعنى "واجد الوجود"، والخدوي تعني المالك، آدي شير : الألفاظ الفارسية المعربة، القاهرة ١٩٨٨، ص ٥٢.

بزمَام الأحكام قام بتدبيرها أتمَّ قيام، وتحلَّت بحلِّي بمآثره الليالي
والأيَّام، فعامل النَّاس بالمعروف والكرم، وأصلَح بين الذُّنوب والغنم،
واقْتفى أثر والده في العدل، وعلوَّ الهمم، /^{١٢٨} ومكارم الأخلاق
وحسن الشُّيم، ومن شابه أباه فما ظَلَم.

وكان حضرة مولانا السلطان عبد المجيد خان^(١) [قد]^(٢)
استدعاه إلى سدَّته المنيفة، وزيارة حضرته الشريفة، فدخل إلى
القُسطنطينية عام ثلاث وستين ومائتين وألف هجرية، فقابلته بالتبجيل
والإكرام، واحترمه غاية الاحترام، وفوَّض إليه أحكام الديار
المصرية، وخلع عليه الخلع السنية، ورجع بالعز والإقبال على أحسن
حال وأنعم بال.

^(١) السلطان عبد المجيد (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م : ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م) تولى
السلطنة ولم يكمل بعد عامه الثامن عشر وأقام خسرو باشا - والي مصر
الأسبق - صدرا أعظم ثم لم يلبث أن أقاله وعين محمد رشيد باشا صدرا
أعظم، ثم لم يلبث أن استحدث منصب رئيس مجلس الوزراء الذي أصبح
يتولى مقاليد السلطة ويقاسمه نفوذه في حكم الدولة، كما عمل في الوقت ذاته
على الحد من نفوذ هيئة مشيخة الإسلام التي أصبحت في عصره مجرد
هيئة شورية، وهو والد السلطان عبد الحميد الثاني آخر سلاطين آل عثمان،
كما أنه كان هو السلطان الذي قدر له أن ينهي النزاع مع مصر عقب تسوية
لندن فيما عرف بفرمان ١٨٤١ المتعلق بحدود مصر ونظام الولاية بها،
الذي أقر فيه بحقوق أسرة محمد علي في حكمها وراثيا للأرشد من أبائهم،
عن عصره انظر :-

يوسف أصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ص ١٤٩ - ١٥١ ؛

Creasy : op cit, pp 451, 478

^(٢) زيادة اقتضاها السياق.

واستقر في ولايته الزاهرة، ولوائح السُعود في غرة جبينه
ظاهرة، وما زال السُعدُ خادمه والعز مُصاحبه وملازمه إلى أن
أنركه الأجل المحتوم، واستوفى عمره المعلوم، وكانت /^{١٢٨} وفاته
في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ألف ومائتين وأربع
وستين هجرية، ودفن باحتفال عظيم بالأسكندرية، وهو ابن اثنين
وستين سنة، رضي الله عن مساعيه الحسنة، وكانت مدة ولايته
اثني عشر شهراً، ورثاه شعراء العصر بكل قصيدة غراء، فمن ذلك
قول الفاضل الأديب والشاعر اللبيب، فخر الأدباء البارعين مُحَمَّد
أفندي شهاب الدين :-

صبراً على ما قد مضى	إذ لا مخلص من قضى
كيف التصبر والمنابا	ذات غضبٍ مُتقضى
أوتت بإبراهيم مُنذ	بلغ المقام المرتضى
وإليه آل الأمر في	حكم الأباله وانقضى
/ ^{١٢٩} فمضى وقلت مؤرخاً	الله يرحم من مضى

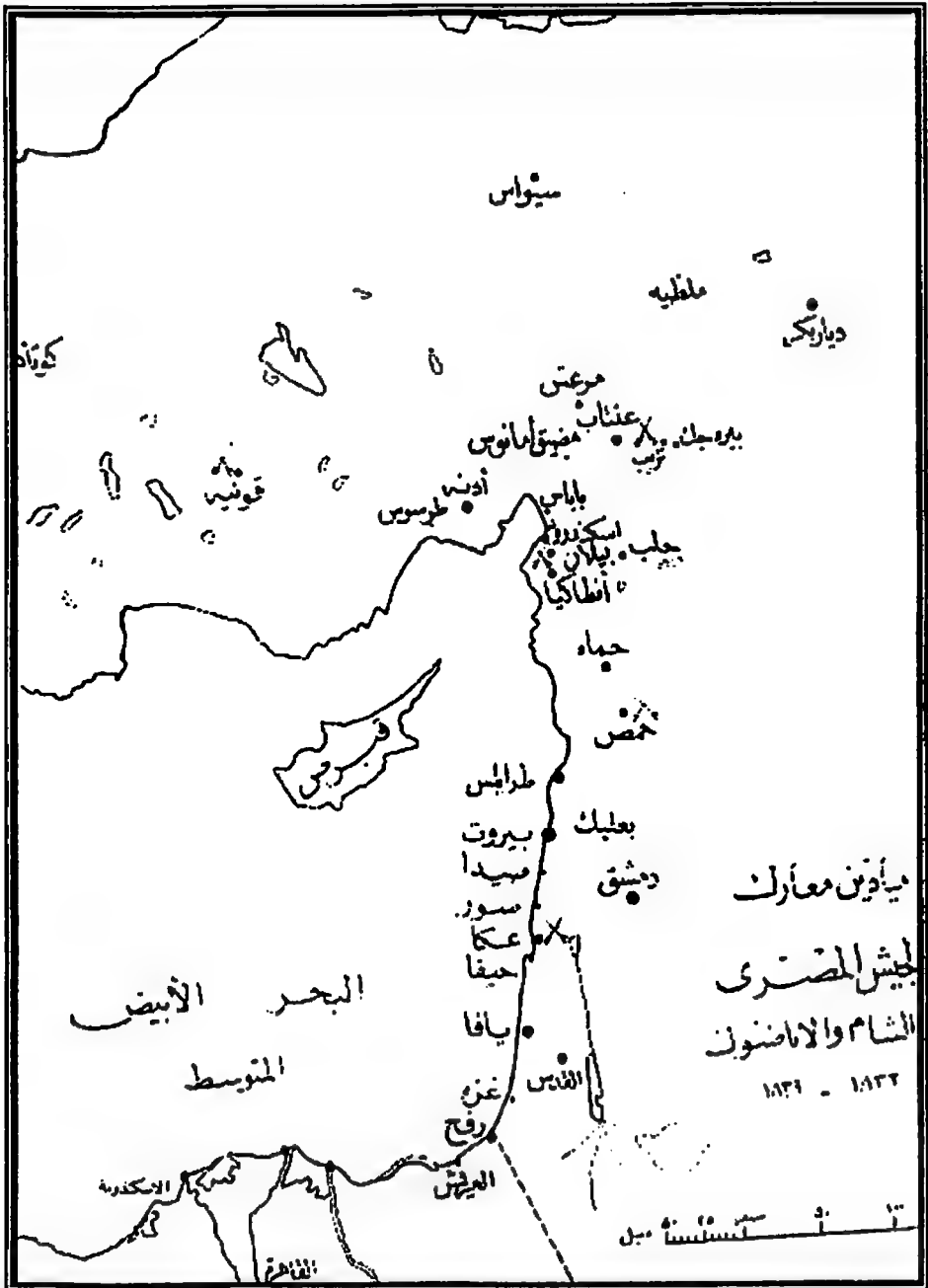
على أنه لم يمُت من بقيت مآثره، ونُشرت في الكون بعد موته
مفاخره، فكيف من أبقى أنجالاً كراماً، ووزراء عظاماً كمُصطفى
فاضل باشا وإسماعيل الذين أضحت مآثرهما غرة في جبين الجيل، لا
سيما مولاي مصطفى، من راق به ورد الزُمن وصفاً، وحاز غايته
الشرف والمفخر، وشاع ذكره في كل أرض وقطر.

وقد ذكرت في مقدمة الكتاب ما شأهده من مكارم هذا الوزير المهاب وما أولاني به من جزيل الإنعام، التي تَعَجَز عن وصفه السنة الأقلام، فهو أحق من تُهدى له غُرر المدائح والرُّسائل ؛ لأنه / ١٢٩^ط معدن الجُود ومصدر الفضائل، وفخرُ الأواخر والأوائل، والله المسئول في حفظ دولته الزَّاهرة، وسطوته القاهرة بيده القادرة، ورعايته على توالي الليالي والأَيَّام بعينه التي لا تَغْفَل ولا تنام^(١).

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه

(١) جاء في آخره "قد تم نسخ هذا الكتاب بقلم مؤلفه الفقير إليه تعالى اسكندر بن يعقوب أبكار يوس عفي عنه" وإلى الأسفل ختم ببضاوي برتقالي للون لاسكندر أبكار يوس تنصده كلمة "اسكندر"، إلى الأسفل منه إلى اليمين قليلاً ختم الكتبخانة الأزهرية، وأمام الختم إلى اليمين سطرين سطرهما فيما يبدو أحد موظفي الكتبخانة الأزهرية بالمداد الأزرق الجاف (الكوبيا) يُحصى فيه عدد أوراق المخطوط وعدد مسطراته " ١٢٩ ورقة، ١٢ سطراً".

المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلية



الفهارس

فهرست قواهي الأشعار الواردة بالنص

قافية الدال

الأحاد: ٧٠

تشهد: ٣٨

تغريدًا: ٣٩

توقد: ١٥٣

عنيد: ٦٥

مُسَدَّد: ١٤٨

قافية الراء

الحذر: ١٥٧

جهرًا: ٥٨

حافره: ١١٧

ذكرًا: ١٠٢

نظرًا: ٩٥

قافية الضاد

قضى: ١٧٩

قافية الكاف

البيكا: ١٥٠

مُشْتَرِك: ٣٨

يُزَكَّى: ٧٣

قافية اللام

استطالا: ٥٩

إلى: ١١٣

الغلى: ٦٧

الليالي: ٤٦

مُتَذَلِّلًا: ١٥١

منازل: ٤٣

قافية الميم

تضطرم: ٩٠

الكرم: ٤٠

قافية النون

ضدنا: ٨٧

قافية الهاء

بأكبها: ١٥٧

لقاله: ٧٢

فهرست أسماء الكتب

البدر السافر في أعيان القرن الحاضر: ١٦،

٦٧

ديوان الدواوين في أجواد المتقدمين

والتأخرين: ١٥

روضة الأدب في طبقات شعراء العرب:

١٥، ١٧

قصّة شهریار: ١٦

المناب الإبراهيمية والمآثر الخديوية: ١٦

المناب المصطفوية، والمآثر المحمدية

العلوية: ١٠، ١٦، ١٨، ٣٨

مُنية الثُفس في أشعار عترة عيسى: ١٥

نزهة الثُفس وزينة الطُروس: ١٥

نهایة الأرب في أخبار العرب: ١٥

نوادير الزُمان في ملاحم عربستان: ١٣

نوادير الزمان في وقائع جبل لبنان: ١٦،

١٧

فهرست الأعلام

إبراهيم أغا الجوخدار: ١٢٠

إبراهيم الخليل ~~الملك~~: ٦٠، ٦٥

إبراهيم باشا الصغير: ٧٣

إبراهيم باشا الكبير: ٩، ١١، ١٢، ١٦،

١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣،

٣٧، ٤٤، ٤٥، ٥٠، ٦٢، ٦٦، ٦٨،

٦٩، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧،

٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦،

٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤،

٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١،

١٠٢، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠،

١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٨،

١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣،

١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١،

١٣٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨،

١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤،

١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٧،

١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠،

١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨،

أحمد أفندي [ياور إبراهيم باشا]: ١٣٥

أحمد العائوي: ٢١

أحمد باشا الجزّار: ٦٨

أحمد بك الإسلامبولي: ١٢٧

أحمد بك المنكلي: ١٢٧، ١٣٤

أحمد طقطق الدلال: ٢١

أحمد فوزي باشا: ١٢٩

أحمد مرزا البيروني: ٢١

الاسكندر الأكبر: ٥٨، ٦٧، ١٠١، ١٣١،

اسكندر بن يعقوب أغا أهبكاريوس: ١٠،

١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٢٠،

٢١، ٢٤، ٢٧، ٣٧

إسماعيل [الأميرالاي]: ٨٩

إسماعيل باشا [الخدّير]: ١٢، ٢٢، ١٥،

١٧، ٦٦، ١٨٠

إسماعيل باشا صدّيق: ١٢

أمين الجندى: ١٥٢

أمين رعوف باشا: ١٢٢، ١٤٤

باكر باشا الخزنّدار: ٩٨

الدرويش أمين: ٦١
 درويش باشا: ٦٩
 دوريكلو [قنصل]: ١٠٦
 دي فارين [بارون]: ١٤٨، ١٤٢، ١٤٠
 ديونسُوس [ترايب]: ١١
 رشيد باشا: ١٧٩، ١٢١، ١١٤، ٥٥
 رمسيس الأكبر: ١٠١، ٦٧، ٥٨
 رؤسين [بارون]: ١٤٨، ١٤٦، ١٤٤
 زيد الخيل: ١٠١
 ستراتفورد [لورد]: ١١
 سَعَدُ الله باشا: ١٢٩
 سعيد بن محمد علي: ١٢٤، ٦٦
 سليم الثالث [السلطان]: ٥٤، ٤٦
 سليم بك المنسترلي: ١٣٥، ١٢٦، ١٢١
 سليم بك حجازي: ١٢١
 سليمان بك الفرنساوي: ١٢٦، ١٢٣
 ١٣٨
 شارلس ستافورد [لورد]: ١٧٧
 شاكِر النحلوي: ١٥٨
 شيل المريان: ١٧٤، ١٧١، ١٧٠
 شريف باشا: ١٧١، ١٧٠، ١٦٥
 صَخَر [أخو الخنساء]: ١٧٨
 طُرسُون باشا بن محمد علي: ٦٦، ٦٤

بشير الشهابي [الأمير]: ٧٧، ٧٣، ٦٩
 ٧٨، ٨٢، ٩٤، ١٥١، ١٥٧، ١٦٩
 ١٧٢، ١٧٠
 بطرس أبوت: - بيتر أبوت
 بطرس كرامة: ١٥٤
 بيتر أبوت: ٧٦، ٧٥، ١١
 الجبري: ٩
 حُرْجي زيدان: ١٠
 حافظ باشا: ١٧٥، ١٧٤
 حسن بك المنسترلي: ١١٠، ١٠٢، ٧٩
 حسن حَبْلَاط: ١٧٤، ١٧٢، ١٧١
 حسين افندي راشد: ١٦٧
 حسين باشا: ١٠٤، ٩٦، ٩٥، ٨١
 ١١٧، ١١٤، ١١٢، ١٠٩، ١٠٨، ١٠٥
 حسين بن محمد علي: ٦٦
 حلیم بن محمد علي: ٦٦
 حنا بك البحري: ٧٨
 الخديوي الأعظم: - محمد علي باشا
 خليل باشا باش قُبطان: ١١٣، ١٠٧
 خليل بن أحمد الرّجحي: ٩
 الخنساء: ١٧٨
 خَير الدّين باشا: ١٢٩
 الداوري الأكبر: - محمد علي باشا

عَامِر بن الطَّفِيل: ١٠٢

عَبَّاس باشا: ٧٣، ٨٥، ٩٦، ١١٢، ١١٩

عبد الرحمن المغربي: ٢١

عبد الغني الثَّأَلِسِي: ١٥٨

عبد الله باشا [صاحب عكا]: ٥٩، ٦٤

٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥

٧٦، ٧٧، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢

٩٣، ١١٦

عبد الله بن سَعُود الوُهَّاب: ٦٤، ٦٥

عبد المجيد [السلطان]: ١٧٥

عبد المجيد خان [السلطان]: ١٧٥، ١٧٩

عُثْمَان باشا اللبيب: ٨١، ٨٣، ١٢٣

عُثْمَان بك المرديسي: ٥٢، ٥٣، ٥٤

٥٥، ٥٦

عُثْمَان بك نور الدين: ٧٢، ١١٣، ١٢٠

علي أغا الخزنदार: ٦٨

علي باشا الأسعد: ٩٤

علي باشا الجزائرلي: ٥٤

علي بك الكبير: ٥٠

كِسْرِي: ٣٨

مارتِينلي [قنصل]: ١١٢

محمّد قاسم: ١٧٢

مُحَمَّد أفندي شِهَابُ الدِّين: ١٨٠

مُحَمَّد أفندي مَكَارِي: ١٦

محمد باشا [والي حلب]: ٩٨

محمد باشا أبي مَرْقِي: ٤٩

محمد باشا البيرقدار: ٨٠، ٩٦، ٩٧، ٩٨

١٠٤

محمد باشا الكرَيْتَلِي: ١٠٢

مُحَمَّد بك الألفي: ٥٢، ٥٤، ٥٦

مُحَمَّد بك: ١٢٣، ١٢٥

محمد خسرو باشا: ٥١، ٥٤، ٥٥

مُحَمَّد رشيد باشا: ١٢١، ١٣٨

مُحَمَّد علي باشا الكبير: ٩، ١٢، ١٦

١٨، ٢٢، ٢٣، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٨

٤٩، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٠

٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١

٧٣، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٩٣، ١١٤، ١١٨

١٢٣، ١٢٤، ١٣٩، ١٤٦، ١٤٩

١٧٩، ١٤٠، ١٤٧، ١٧٦، ١٧٨

مُحَمَّد خان [السلطان]: ٦٩، ٨٠

١٣٩، ١٧٥

عمُود خليل بن بشير الشهابي [الأمير]:

١٧٢

مُصْطَفَى باشا باش قُطْطَان: ٥٦

مُصْطَفَى باشا كامل: ١٧١

١١٩
الأحزاب: ٥٢
الأحلاف: ٥٢
الأخلاق: ٩٨
الأدباء: ٤١، ٥٩، ١٨٠
أرباب الولايات: ٥٥
أرمن المهجر: ١٩
الأرمن: ١١
الأرناؤط: ٤٤، ٥٤، ٨١، ٩٨، ١٠٤
١٢٤، ١٢٥، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤
الأساتذة: ٤٩
الأسرة العلوية: ١٢
أصحاب الشوكة: ٥٨
أصحاب المناصب والرتب: ٩٨
أصحاب النهي والأمر: ٥٠
الأصحاب: ٥٢
الأطفال: ١٠٣، ١١١
الأعادي: ١٠٠، ١٠٢، ١١٢، ١٢١
١٢٢، ١٣٠، ١٣٧
الأعداء: ٦٥، ٦٧، ٧٢، ٨٤، ٨٩، ٩٢
٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١١٠
١١١، ١١٩، ١٢٢، ١٢٤، ١٣٠
١٣١، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٤

مُصطفى باشا: ٥٦، ١٧١، ١٧٣
مُصطفى فاضل باشا: ١٧، ١٨، ١٩
الملك الأشرف: ٦٣
مُورانياف [جنرال]: ١٣٩
ميخائيل زكريا الخوري: ٦
ناصر الدين العماد: ١٧١، ١٧٣
ناصريف اليازجي اللبناني: ١٤٨، ١٥٧
وليم سدي سميت: ٤٨
يعقوب أغا أبكاربوس: ١٠، ١١، ١٦، ٢٠
يعقوب النبي ~~عليه السلام~~: ٤٦
يُوحنا بن يعقوب أغا أبكاربوس: ١٢، ١٣
يُوسف النبي ~~عليه السلام~~: ٤٦
**فهرست الأمم والشعوب
والقبائل والجماعات**
الأبطال: ٤٩، ٥٢، ٧٣، ٩٠، ٩٦، ١٠٨، ١١٢، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٣، ١٧٥
الأثرالك: ١٩، ٤٨، ٩٧، ٩٨، ١٠٠
١٠٢، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٣
١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨
١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥
١٣٦، ١٥٤، ١٧٥
الاجتاد: ٥٦، ٨٧، ١٠١، ١١٠، ١١٤

الأغوان: ٥٢، ٥٧، ٧٩

أعيان البلد: ١٠٨

الأعيان: ١٣، ٢٢، ٤٩، ٥٢، ٥٦، ٧٣،

٧٧، ٨٣، ٩١، ١٠٥، ١٦٨

أكابر الأشراف: ٤٩

الأكابر: ٥٥، ٩١، ١٦٨

آل عثمان: ٩٣

أئمة الإسلام: ٤٧

الأئمة العيسوية: ٤٨

الأمريكان: ١١

الأنبياء: ٦٤

الإنكليز: ٤٧، ٧٥، ٧٦

أهالي البلاد: ٥٦

الأهالي: ٥٥، ٥٧، ٩٢، ٩٥، ١٣٨،

١٦٥

أهل البغي والفساد: ١٧١

أهل البلد: ١٦٧

أهل الشوكة والبأس: ٤٩

أهل المناصب والشحار: ١٦٦

باشاوات الأتراك: ٩٦

الباشاوات: ٩٧، ٩٨، ١٠٩، ١٢٨

البدو: ٩٩، ١٢٨، ١٣٥

البروسانية: ١٧٦

البكاوات: ٥٥

البلطحية: ١٦٧

بنو الجرار: ٧٣

بنو صخر: ٧٣

بنو صقر: ٧٣

بنو طوقان: ٧٣

الثحار: ٦٤

الجاريشية: ١٦٧

جبايرة الغرب: ٨٩

الجحافل: ٨١، ٨٥، ١٧٧

الجثود: ٦٤، ٩٦، ١٠٠، ١٠١، ١٣٩

الجهابذة: ٤٩

الجيش: ٤٧، ٤٨، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٩٨،

١٠١، ١٠٩، ١١٠، ١١٤، ١١٨،

١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٩،

١٣٠، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٤

الحجاج: ٦٤

حكّام المدن والأمتصار: ١٠٨

الحكّام: ٤٣، ٧٠، ٧٤، ١٠٤، ١٦٥

الحواشي: ٧٩

الخلفاء: ٤١

خيالة النّظام: ١١٢

الخيالة: ٩٨، ٩٩، ١٢٧، ١٢٨

الثُّورَام: ١٠، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢
 الصُّنَادِيد: ١٠٠، ١٣٢
 الضُّبَّاط: ٢١، ٢٢
 الطَّائِفَةُ الْمَسِيحِيَّة: ٤٨
 الطُّغَاة: ٦٤
 طَوَائِف الْعَرَب: ٦٥
 الطُّوْبِجِيَّة: ٧٤
 الْعَائِلَةُ الْخَنْدِيرِيَّة: ١٢
 الْاِتِّصَانِيَّة: ٤٧، ٧٥، ٨١، ٩٥، ١٠١
 ١٠٩، ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١٢٣
 ١٣٨، ١٤١، ١٤٣، ١٧٦
 عَرَب السُّلْط: ٧٣
 عَرَب الْمَنَادِي: ٩٧، ١١٢، ١٣٠، ١٣٧
 الْعَرَب الرَّهْائِيَّة: ٦٤
 الْعَرَب: ٦٤، ١٢٢، ١٣٠، ١٤٩، ١٥٤
 ١٥٨، ١٦٣، ١٦٦
 الثُّرَبَان: ٦٤، ٨١
 عَسَاكِر الْفَرَنْسَاوِيِّين: ٤٧
 الْعَسَاكِر الْمَنْصُورَةُ: ٨١
 الْعَسَاكِر: ٤٧، ٥١، ٥٥، ٥٦، ٦٤، ٦٨
 ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨١
 ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٩
 ١٠٠، ١٠١، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩

الدَّلَالِيَّة: ٩٨، ١٢٨، ١٣٧
 دُرُوز الْبِلَاد: ١٧١
 دُرُوز حُورَان: ١٧٠، ١٧٢
 دُرُوز وَادِي التَّيْم: ١٧١
 الدُّرُوز: ١٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤
 الذُّرَات الْمُعْتَبَرِينَ: ٥٣
 الذُّرَات: ٤٥، ١٣٠
 رُؤَسَاء الطُّرْبِجِيَّة: ٧٦
 الرُّجَال: ٧٠، ٩٠، ١١٠، ١١٢، ١٢٣
 ١٢٤، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤
 ١٣٨، ١٥٢، ١٦٧، ١٧٨
 الرُّجَالَةُ: ٩٨، ٩٩، ١٠٩
 الرِّعَايَا: ٥٧، ٩٥
 الرُّعِيَّة: ١٦٥
 الرُّوسِيَّة: ١٧٦
 الزُّوَار: ٦٤
 السُّبَاهِيَّة: ٩٩
 سُكَّان الْبِلَاد: ٨٥
 السُّلَاطِين: ٥٩
 الثُّبَان: ٤٧، ١٧٠
 الثُّجَعَان: ٥٣، ١٠٢، ١٣١
 الشُّطَّار الْخَذَق: ٤٩
 الشُّعْرَاء: ٤١

١٣٨، ١٢٥، ١٠٣
 القواصة: ١٢٨
 الكتاب: ٩٧، ١٣٢
 المورخون: ٣٧
 المتأخرون: ٣٧
 المسلمون: ٩١، ١٠٨
 المرسلون الأمريكيان: ٦٤
 المسافرون: ٦٤
 المسلمون: ٦٤
 المشاة: ٨٥، ٩٩، ١٠٠، ١٢٣، ١٢٤
 ١٣٠، ١٣٤
 المشاهير: ٤٥، ٧٣، ٩٨، ١١٤
 مشايخ الأرقاط: ١٧٤
 المشايخ: ١٠٥
 المصريون: ٥٤، ٧٠، ٧١، ٨٥، ٨٩
 ٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١١١، ١٢١
 ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢
 ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨
 ١٧٥، ١٧٤
 المعتلون: ٥٢
 الملحدون: ٦٤
 الملوك: ٣٨، ٥٨، ٥٩، ١٤٩، ١٥٥
 ١٧٦، ١٥٦

١١٠، ١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٢٠
 ١٢٣، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢
 ١٤٢، ١٥٣، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧
 عسكر الأعادي: ٩٧
 العسكر النظامية: ١٠٤
 القصاة: ٥٤، ١٧٢، ١٧٤
 عظماء الأمم: ٣٨
 العلماء: ٤١، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٩
 العمد: ٥٥، ٥٦، ١٠٥، ١٠٨
 الثرياء: ٦١
 الفجرة: ٥٢
 الفراعنة: ٥٩
 الفرسان: ٤٩، ٦٤، ٦٧، ٧٣، ٧٤، ٨٢
 ٨٥، ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١١٩، ١٢٢
 ١٢٥، ١٣١، ١٣٦، ١٧٢، ١٧٣
 الفرنساوية: ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠
 ٦٨، ٥١
 الفضلاء: ٤١، ٥٩
 الفقراء: ٦١
 قبائل الأغراب: ٦٤
 قباطين الإنكليز: ٤٧
 قناصل الدول: ١٠٨
 القواد: ٥٥، ٧٨، ٧٣، ٨٨، ١٠١

الممالك البحريّة: ٤٣، ٥٣

الممالك: ٤٣، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤

١١٥، ٥٦، ٥٧، ٦٨، ١١٥

النُّبلاء: ٥٩، ١٣٦

النُّظامية: ٧٧، ١٢٠

النسابة: ١٧٦

المهارة: ٨١، ٩٨، ١٠٤، ١٧٤

الوزراء الأماجد: ٦٧

الوزراء: ٩٨، ١٠٣

وَلَاةُ الْأَقْطَار: ١٠٨

وَلَاةُ الْمَدَن: ٩١

الولاية: ٤٣، ٧٠، ٧٤، ٩١، ١٠٤

١٠٨، ١٦٥

فهرست الأماكن والبلدان والبقاع

الأبلق: ٦٢

أدنة: ١١٢، ١١٤، ١١٨، ١٤٨

أرض القصير: ٨٣

أرمينيا: ١٠

الأستانة: ١٧، ٣٩، ٦٥، ١١٥، ١٤٤

١٧٥

الإسكندرونة: ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨

الإسكندرية: ٤٧، ٥٥، ٦٣، ٧٢، ٧٩

١٣٩، ١٤٠، ١٤٧، ١٨٠

إسكودار: ١٢١

الأشرفية [ترعة]: ٦٣

أضاليا: ١٢٣

إقليم البلان: ١٧٠، ١٧١، ١٧٢

أكشهر: ١٢٢، ١٣٧

الأناضول: ١٠، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٢

٢٣، ١٤٥، ١٤٧

أنطاكية: ٩٦، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧

١٠٩، ١١٠

أوريا: ١٢، ١٩، ٢٢

أورفا: ١٠٨

أرغلو قشلة: ١٢٢

بر الترك: ٣٧

براجيك: ١٧٥

برج النبي صالح: ٨٨

برج كريم: ٨٧

برصة: ١٤٢، ١٤٣

البصرة: ٦١

بعلبك: ٨٥، ٩٦

بلاد الإسلام: ٤٧

بلاد العرب: ٨٠

البُوسفور: ١٤٥

بيروت: ١٠٩، ١١، ١٢، ١٣، ١٤،
 ١٥، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٤، ٣٧، ٦٢،
 ٧٥، ٧٩، ١٥٨، ١٦٦، ١٦٧، ١٧١،
 ١٧٧
 بيلان: ٩٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣،
 ١١٧
 تريايا: ١٤٢، ١٤٦
 تلّ السلطان: ١٠٧
 تلّ الفخار: ٧٤
 الجّامع الأزهر: ٢٤
 جبال طُوروس: ١٨، ١٢٠
 الجسر الحديد: ١٠٥
 حنينة سُترا: ٦٢
 حاصبيا: ١٧٢، ١٧٣
 الحجاز: ٦٤، ٨٠، ١٤٩، ١٦٣
 الحَرَمين: ٦٤
 حلب: ٨٠، ٩٣، ٩٧، ٩٨، ١٠٣،
 ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١١٤،
 ١٢٣، ١٥٣، ١٧٢
 حصن: ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٤، ٩٥،
 ٩٦، ٩٧، ١٠٤، ١١٧، ١٥٣، ١٦٦
 حُوارن: ١٧٤
 حيفا: ٧٢، ٧٤

خليج مُرمريس: ١١٣، ١٢٠
 الخُورتنق: ٦٢
 دار سَرايا الأَحكام: ٩٥، ١٧٢
 داريا: ٩٤
 دكان الزُّيدانيّة: ١٦٩
 دمشق: ٤٦، ٦٢، ٦٦، ٦٩، ٧٦، ٩٣،
 ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ١٠٨، ١٥٨
 ١٦٥، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢
 الديار الحجازية: ٦٤
 الدِّيار الشّامية: - الشام
 الدِّيار المصرية: - مصر
 ديار بَكر: ١٠٨
 دير القَمَر: ٨٣
 الرُّملة: ٤٧
 رُودس: ١١٣
 رُوسيا: ١٣٩، ١٤٥
 سَالونيك: ٥٦
 سلح [قرية]: ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩
 السُّودان: ٥٩، ١٥٦
 سُوريّة: ١١، ١٦، ٧٢، ١١٦، ١١٨،
 ١٢٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨،
 ١٦٩، ١٧٥، ١٧٧
 الشام: ٩، ١٠، ١٢، ١٦، ١٨، ١٩

عَيْتَاب: ١٧٥	٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣٧، ٤٧، ٥١
غُرَّة: ٤٧	٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤
عَمْدَان: ٦٢	٧٥، ٧٦، ٨٠، ٨١، ٩٣، ٩٤، ٩٥
الْفَرْعَوْنِيَّة [ترعة]: ٦٣	٩٦، ٩٨، ١٠٦، ١٠٧، ١٢٤، ١٤٨
فرنسا: ١١٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢	١٤٩، ١٥٣، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٩
١٤٦، ١٤٤	١٧٠، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧
القاهرة: ٩، ١٢، ٢١، ٢٤، ٢٦، ٤٤	شواطئ القرمات: ٩٥، ١١٣
٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٥	الصعيد: ٤٦، ٥٥
٦٢، ٦٣، ٧١، ٧٧، ٩١، ٩٨، ٩٩	صُور: ٧٩، ١٧٧
١٤٠، ١٥٤، ١٧٨، ١٨١	صيدا: ٧٩
قُبرص: ١١٣	طَوايزون: ١٢٣
القُسْطَنْطِينِيَّة: ٥٥، ٥٧، ٧٠، ٨١، ٩٥	طَرَابُلُس: ٧٩، ٨١، ٩٦
١١٤، ١١٥، ١١٩، ١٣٨، ١٤٤	طَرَبُوس: ١٢٠
١٧٩، ١٧٦	طُقُوزلُوخَان: ١٢٥، ١٢٦
القُشْلَاق: ١١	عربستان: ٢٢، ٤٧، ٩٥، ٨٠، ٧٦، ٨٣
قصر البهجة: ٩١	٨٥، ٩٣، ٩٥، ١١٣، ١٦٥، ١٧١
القُصير: ٩٦، ٩٧	١٧٥
القلمة السُلْطَانِيَّة: ٤٩، ٥١، ٦١	عَكَا: ٢٢، ٦٠، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٣
قَرَالَة: ٤٤، ٦٦	٧٩، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٩٠، ٩١، ٩٢
قُرُونِيَّة: ١١٢، ١١٣، ١١٨، ١١٩، ١٢٢	٩٤، ١١٦، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١
١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥	١٥٨، ١٦٢، ١٧٠، ١٧٧
١٣٦، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٣	عَكَا: - عَكَا
قِصْرِيَّة: ١٢٣، ١٢٥	عَكَا: - عَكَا

كريت: ١٤٨، ٨٢

كلس: ١١٠، ١٠٩، ١٠٧

كُرتاهية: ١٤٨، ١٤٤، ١٤٢

لاديك: ١٢٦، ١٢٥

اللاذقية: ٨١

لبنان: ١٧، ٢٣، ٦٩، ٧٣، ٧٦، ٧٧

٧٩، ٩٤، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢

لوندرا: ١٧٦

المحمودية [ترعة]: ٦٣

مرعش: ١٢٣، ١٧٥

المزة: ٩٤

مصر: ١٢، ١٤، ١٩، ٢٢، ٢٣، ٤٣

٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠

٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩

٦٢، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١

٧٢، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٩٤، ٩٩

١٠٤، ١١٥، ١١٨، ١٢٤، ١٠٤

١٤٠، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧

١٥٨، ١٦٤، ١٧١، ١٧٨، ١٧٩

معرة النعمان: ١٠٧

مكة: ٥٠، ٦٤، ١٥٣

المملكة المصرية: - مصر

منارة حنان: ١١٩

المورة: ٧٠، ٧١، ٨٠، ٨٢، ١٥٦

نُزب: ١٧٥، ١٧٤

نمرود [قربة]: ١٢٠

نهر القاصي: ٩٨

نهر النيل: ٦٣، ١٠٦، ١٤٩

وادي التيم: ١٧١، ١٧٢، ١٧٣

وادي النيل: ١٨

يانا: ٤٧

اليمن: ٥٩

فهرست الألفاظ الاصطلاحية

الإنبيق: ١٢٠

الإرادة السيئة: ٧٠

الإرادة الشاهاية: ٥٧

الأساكل: ٤٧، ٧٢، ٧٦، ٧٩، ٨٠

٨١، ١٠٦، ١٧٧

الأغوان: ٥٢، ٥٧، ٧٩

الأغوات: ٥٥

الآليات: ٨٧، ٨٨، ٩٨، ٩٩، ١٠١

١٠٩، ١١٠، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦

١٢٧، ١٢٨، ١٣٤

الإمداد السلطاني: ٤٨

أمير آلاي: ٤٤، ٧٨

الأوردي: ٧٨

الباب العالي: ٥٤، ٧٠، ١١٦، ١٤٠،

١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧،

الباش بُزق: ٩٨، ١١٩

الباش ياور: ١٤٦

البرفس: ١٣٥

البروسانية: ١٧٦

البكاوات: ٥٥

البلطحية: ١٦٧

البرارج: ١٠٧

البراريد: ١٠٠، ١١٠، ١٣٤

البراغيز: ٤٧، ٧٢، ١٢٠

البيارق: ٩٧

الترسخانات البحرية: ٥٧

الترسيم: ٩١، ١٦٧

التفويض الخاقاني: ٤٨

الثفور: ٤٧، ٧٩، ١٧٧

الجامكية: ١٠٤

الجاويشية: ١٦٧

جبنخانة البلد: ١٧٧

الجبنخانة: ٨٦، ١١١

الجريدة السلطانية: ١١٥

الجهابذة: ٤٩

حساب الجمل: ١٥١

الحضرة الخديوية: ٧٠، ٧٥، ٧٦، ٧٧،

٩٣، ١١٣، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٣٩،

١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٦٥، ١٧٧

الحكومة الكولمائية: ٤٣

خيالة النظام: ١١٢

الدالاتية: ٩٨، ١٢٨، ١٣٧

الدائري الأكرم: ٤٣، ١٣٩

دستور الدولة: ١٣٥

رؤساء الطوبجية: ٧٦

الرخصة السنية: ٧٥

السباهية: ٩٩

الشحج: ١٢

السر عسكر: ٨٠، ١٠٢

السردار: ٨١، ٩٥، ٩٦، ١٠٤، ١٠٦،

١٠٧، ١١٤

الشكة: ٥٠

الششخانة: ١٠٠

الشقة الرسمية: ١٤٦

الشنك: ٩٢

الصدر الأعظم: ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٤٩،

٥٤، ٨٠، ١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٢١،

١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩،

المكاحل: ٨١	١٣٤، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤
الناشير: ١٧٠	الصولة الحيدرية: ٦٠
مناصب البلاد: ١٦٩	الطوابير: ٨٧
المهمات الحربية: ٤٧، ١٢٠	الطوبجية: ٧٤، ١٠٩، ١٢٧، ١٢٨
وجاق العسكرية: ١٧٠	١٣٥
الرجاقات السبعة: ٥١	الطوبخانه: ١٠٠، ١٢٨
	عسكر النظام: ١٧١، ١٧٢
	المُلوغات: ٨٦
	العمارة الإنكليزية: ٤٨
	العمارة البحرية: ٤٧، ٤٨، ٧٢، ٧٦
	٧٩، ١١٣، ١١٧، ١٢٠، ١٤٠، ١٤٥
	١٧٧
	الفرقاطة: ١٢٠
	قبطان باشا: ٧٦
	القواصة: ١٢٨
	الكراديس: ١٣٣
	الكلل: ٧٩، ٨٤، ٨٥
	الكوتر: ١٢٠
	التسلّم: ٩١، ١٠٨، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨
	محافظة الحدود والنفوس: ٥٠
	المسكوبية: ١٤٠
	مشايخ الأرهاط: ١٧٤
	المصكوكات: ١١٨

مصادر ومراجع التحقيق

المصادر والمراجع العربية والعربية

أثير الدين الألدلسي (أثير الدين محمد بن يوسف كان حياً سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م) .

الإذراك للسان الأثرak ، نشرة جعفر أوغلي أغا ، استانبول ١٩٣٠ .

احمد السعيد سليمان

تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، القاهرة ١٩٧٩ .

احمد فهمي يومي

حرب كريت والمورة ، بحث منشور ضمن الكتاب التذكارى لإبراهيم باشا بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته ، منشورات الجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٤٨ .

اذوارد فنديك

اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، بيروت ١٩٨٧ .

آدي شير

الأنفاظ الفارسيّة المعربة ، القاهرة ١٩٨٨ .

اسماعيل البغدادي

هدية العارفين بأسماء الكتب والمصنّفين ، بيروت ١٩٨٢ .

إيضاح المكتون في الذيل على كشف الظنون ، بيروت (د.ت) .

إلياس الأيوبي

محمّد علي ، سيرته وأعماله ، مطبعة الهلال ، القاهرة ١٩٢٣ .

الجبرنيّ (عبد الرحمن بن حسن المتوفى في حدود عام ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢)
عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، نشرة عبد الرحيم عبد
الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨ .

جورجي زيدان

تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة (١٩٥٧) .

غالب فهمي

كل رجال الباشا ، نقله إلى العربية شريف يونس ، القاهرة ٢٠٠١ .
الخشّاب (اسماعيل بن سعد المتوفى ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م)
خلاصة ما يُراد من أخبار الأمير مُراد ، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر ،
دانيال كريسيوس ، القاهرة ١٩٩٢ .

الحوّازميّ (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب المتوفى
٣٨٧هـ / ٩٩٧م)

مفاتيح العلوم ، نشرة جوّدت فخر الدّين ، بيروت (د.ت)

خير الدّين الزركلي

موسوعة الأعلام ، بيروت ١٩٧٩ .

الدّمرداش (أحمد الدّمرداش كتنّدا عزّبان ، كان حيّاً عام ١٢٣هـ /
١٧١١م)

الدّرة المصانة في أخبار الكِنانة ، نشرة دانيال كريسيوس وعبد
الوهاب بكر ، القاهرة ١٩٩٢ .

الرّجحي (خليل بن أحمد الرجحي المتوفى تقريباً في حدود عام
١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م)

تاريخ الوزير محمد علي ، باعتناء دانيال كريسيوس ، حمزة عبد العزيز
بدر ، حُسام الدين اسماعيل ، القاهرة ١٩٩٧ .

السيد فرج

حرّوب محمد علي ، القاهرة ١٩٤٢ .

شيخ الرّوبة (محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المتوفى
٧٢٧هـ/١٣٢٦م)

نُجبة الدّهر في عجائب البر والبحر ، بيروت ١٩٩٨ .

ابن طاوروس البغدادي (رَضَى الدين عَلَى بن موسى
المتوفى ٦٦٤هـ/١٢٦٦م)

فرج المهموم بتاريخ علماء النجوم ، النجف (د.ت)

الطبري (محمد بن جرير بن يزيد المتوفى ٣١٠هـ/٩٢٢م)

تاريخ الرّسل والملوك ، نشرة محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة
١٩٦٩ .

العبّاسي (عبد الرّحيم بن عبد الرّحمن المتوفى ٩٦٣هـ/١٥٥٦م)

مَنَح ربّ البريّة في فتح رُودس الأيّّة ، تحقيق فيصل الكندري ،
حوليات كلية الآداب جامعة الكويت ، الحوليّة الثامنة عشرة ،
الكويت ١٩٩٨ .

عبد الرّحمن زكي

حملة الشّام الأولى والثّانية ، بحث منشور ضمن الكتاب التذكارى
لابراهيم باشا بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته ، منشورات الجمعية
الملكيّة للدراسات التاريخيّة ، القاهرة ١٩٤٨ .

عراقي يوسف

الوجود العثماني في مصر في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر
دراسة وثائقية ، القاهرة ١٩٩٦ .

المناقب المصطنعة والمآثر الحميدة العلوية

عُمر طوسون

الجيش المصري في عهد محمد علي ، القاهرة ١٩٩٦ .
ابن كثير (أبو القدا إسماعيل القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ — ١٣٧٢م)
البداية والنهاية ، بيروت ١٩٩٦ .

لويس شيخو

تاريخ الآداب العربية ، بيروت ١٩٢٤ .

محمد صبري

مصر من محمد علي إلى اليوم ، القاهرة ١٩٢٧ .

محمد قنديل البقالي

التعريف بمصطلحات صنّيع الاعشى ، القاهرة ١٩٨٣ .

مجهول

تاريخ مجهول العنوان نُشر تحت اسم مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم
باشا على سورية ، باعتناء احمد غسان سبأثو ، دمشق (د.ت) .

يوحنا أبكار يوس

قطف الزهور في تاريخ الدهور ، بيروت ١٨٧٣ .

يوسف آصاف

تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجاوي ، دمشق
١٩٨٥ .

يوسف إتيان سر كيس

معجم المطبوعات العربية ، مكتبة آية الله العظمى ، النجف (د.ت) .

المراجع الأجنبية

Asad Rustum: *Notes on Akka and its defences under Ibrahim Pasha, Beirut 1926.*

-----: *The royal archives of Egypt and the origins of the Egyption Expedition to Syria (1830-1841), Beirut 1936.*

Asad Rustum; F. Boustani: *Libnan al'epoque des emirs Chihab, Beirut 1933.*

Creasy, Edward Shepherd: *History of the Ottoman Turks from the beginning of their empire, London 1856.*

Goldschmidt, Arther: *Biographical dictionary of modern Egypt, Pennsylvania, 2000.*

Mengin, Félix: *Histoire de l' Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly ou récit des événements politiques et militaires qui ont eu lien depuis le départ des français jusqu' en 1823, paris 1823.*

-----: *Histoire sommaire de l' Egypte sous la gouvernement de Mohammed Aly, Paris 1839.*

Narzakian, Sarkis: *Memoirs of Sarkis Narzakian, translated by Garine Narzakian, publshrd by Gomidas istitute, U.S.A 1995.*

Shaw, Stanford Jay: *Between old and new, The Ottoman Empire under Sultan Selim III, Harvard university press, 1971.*

Zürcher, Erik J: *Turkey, A modern history, third edition, London 2004.*

الفهرست

٣	تقديم بقلم الأستاذ الدكتور رءوف عباس
٩	مقدمة المحقق
٢٩	اللوحات
٣٧	مقدمة المؤلف
٤٣	ذكر ولاية مُحَمَّد علي باشا
٦٤	خبر ظهور عبد الله بن سعود وهجومه على مكة بالفرسان والجنود ...
٦٥	في وصف نجله الكريم سمي الخليل إبراهيم
٦٨	في مسير إبراهيم بالعساكر المصرية لافتح الديار الشامية
	في حصار عكا وفتح أساكل عرب استان واستيلاء إبراهيم باشا على
٧٦	جبل لبنان
	في قدوم مُحَمَّد باشا والي حلب وسر عسكر بلاد العرب إلى حمص بأمر
٨٠	السُلطان لاستخلاص أساكل عرب استان
٨٥	في فتح المدينة وهدم أبراجها الحصينة
٩٣	في مسير إبراهيم باشا لافتح دمشق

٩٥	في وصول حسين باشا الى عرب اسٲان وهزيمة في موقعي حمص وبيلان
١١٣	حرب قونية
١٦٥	حادثة عجيبة ونادرة غربية
١٦٩	في تمرد دروز حوران مع شبل العريان واقبيادهم الى الطاعة بعد العصيان
١٧٣	حرب نرب على وجه مختصر
١٧٤	في خروج الدولة المصرية من بلاد سورية
١٧٧	ولاية الهمام الأعظم ابراهيم باشا الأفخم
١٨٣	الفهارس
١٨٥	فهرست قوافي الأشعار
١٨٥	فهرست أسماء الكتب
١٨٦	فهرست الأعلام
١٨٩	فهرست الأمم والشعوب والقبائل والجماعات
١٩٣	فهرست الأماكن والبلدان
١٩٦	فهرست الألفاظ الاصطلاحية
١٩٧	مصادر ومراجع التحقيق
٢٠٣	فهرست موضوعات الكتاب